سادة القافلة
8

سأنتظرك..

خواطر ومذكَّرات ابنة شينا زوجة الشهيد ستار إبراهيمي هجير

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اسم الكتاب:	**سأنتظرك...** خواطر ومذكَّرات ابنة شينا زوجة الشهيد ستار إبراهيمي هجير
ترجمة:	مركز بيان للترجمة
إعداد النسخة العربية:	مركز نون للتأليف والترجمة
نشر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى:	2016م - 1437هـ

سادة القافلة (8)

سأنتظرك...

خواطر ومذكَّرات ابنة شينا زوجة الشهيد ستار إبراهيمي هجير

تدوين

بهناز ضرابي زاده

ترجمة

رضوان راغبي - إيمان صالح

مركز نون للتأليف والترجمة

فهرس

مقدمة 7
هو المحبوب 9
قصّة هذا الكتاب 11
الفصل الأوّل: الطفلة المدلّلة 15
الفصل الثاني: اللقاء الأوّل 19
الفصل الثالث: الخطوبة 21
الفصل الرابع: الدعوات المتبادلة 29
الفصل الخامس: عقد القران 35
الفصل السادس: الحياة الزوجيّة 39
الفصل السابع: ولادة التوأم 43
الفصل الثامن: صمد في طهران 47
الفصل التاسع: صمد والإمام الخميني 59
الفصل العاشر: صمد في خدمة الثورة 67
الفصل الحادي عشر: الانتقال إلى همدان 73
الفصل الثاني عشر: حادثة السرقة 83
الفصل الثالث عشر: صمد على الحدود العراقيّة 87
الفصل الرابع عشر: تحمّل المتاعب 93
الفصل الخامس عشر: صمد جريحًا 111
الفصل السادس عشر: الحياة في الثكنة 131
الفصل السابع عشر: شهادة ستّار 151
الفصل الثامن عشر: الاستعداد للشهادة: أريهم صورتي 163
الفصل التاسع عشر: الوداع الأخير والوصيّة 169

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيّدنا محمد وآله الطاهرين، وبعد:

إنّه كتاب يروي سيرة السيدة «**قدم خير محمدي كنعان**»[1]، زوجة الشهيد ستّار إبراهيمي هجير[2] أو «**صمد**» كما كانوا ينادونه في العائلة. وقدم هي صغيرة إخوتها ومدلّلة أبيها، شاء القدر أن تكون زوجة مجاهد عاهد نفسه أن يكون جنديًّا للإمام حتى آخر قطرة من دمه. وبسبب هذا العهد، لم تقض قدم شهرًا واحدًا متواصلًا مع زوجها، فقد بدأ نشاطه قبل انتصار الثورة، ولم يُثنه شيء عن مواصلة الدفاع عن الثورة وخطّ الإمام. فحارب «منافقي الداخل»، وكان قد أُصيب إثر قنبلة خبّأتها امرأة لم يقم بتفتيشها حفاظًا على الضوابط الشرعية، وقاتل في الجبهات أثناء الحرب المفروضة، إلى أن أُصيب في معركة كربلاء 5، وارتفع شهيدًا.

يروي الكتاب يوميّات زوجة مجاهد كثيرًا ما يتغيّب عن منزله، فتتحمّل وحدها عبء الاهتمام بالأطفال، وتقوم بنفسها بمهمة إدارة المنزل، لتأمين احتياجاته... تذهب لتعبئة المازوت، وتجرف الثلج عن السطح حتى! وكانت ابنةُ «**شينا**»[*] تنقم على الحرب التي ما تركتها وشأنها وأرخت بكلّ مآسيها على عائلتها؛ فيصوّر الكتاب، بقالب من الحبّ والإيثار،

---

(1) الاسم: قدم خير محمدي كنعان، تاريخ الولادة: 1341/2/17هجرية شمسية (1962م)، مكان الولادة: قرية «قايش»، من أرياف مدينة «رزن» في محافظة «همدان»، سنة الزواج: 1356/8/13 هجرية شمسية (1977م)، تاريخ الوفاة: 1388/10/17 هجري شمسي (2010/1/5م).

(2) الاسم: الحاج ستّار إبراهيمي هجير؛ قائد «كتيبة 155«من فرقة» أنصار الحسين عليه السلام»، تاريخ الولادة: 1335/8/11 (1956م).
مكان الولادة: قرية «قايش»، من أرياف مدينة «رزن» في محافظة «همدان»، الشهادة: 1365/12/12هـ.ش؛ (1987/3/2م)، في «شلمتشة»، خلال عملية «كربلاء 5».

(*) شينا والدة قدم خير، وهو مخفف «شيرين».

الجـدل الذي يحصل بين هذه المرأة التي ما فتئت تنتظـر زوجها ليعود، والزوج المجاهد المفعـم بالعواطف الإنسانية والأحاسيس الثوريّة الذي يحاول أن يبثّها لزوجته ليحثّها على الصبر.

يُقـدّم هـذا الكتاب نموذجًا للمـرأة المضحيّـة الصابرة، ويرسل عبرهـا تحيّة إجلال وتكريـم لكلّ من يُماثلها، ممّن شاركن في صنـع الانتصارات، واستحقين أن يُخلّد ذكرهنّ -كأزواجهنّ - على صفحات المجد.

وفـي الختـام لا بد من توجيه الشكر لكل مـن ساهم في إخراج هـذه النسخة العربية، ولا سيمـا مركز بيـان للترجمة، الذي أشرف على كلّ مراحـل الترجمة وتقويمها، ومعالجة النصوص والمصطلحات، وفريق الترجمـة المتمثّل بكل من رضوان راغبي وإيمان صالح، وفريـق التحرير والتصحيح اللغوي المتمثِّل بالأخت حنان الساحلي والأخوين فيصل أشمر وعدنان حمود.

ويبقـى الشكر المفعم بالمحبة موصولاً لمؤسّسة «**سـوره مهر**» التي أنتجت هذا الكتاب القيّم.

والحمد لله ربّ العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

هو المحبوب

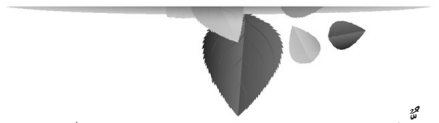

حـلّ المســاء، فغادرها الأصدقاء كلٌّ إلــى منزله، وبقيت هي مع دميتهــا مستلقيةً على سطح المنزل تعدُّ النجوم.

لا أحـد يعلـم أيَّ أمنيّـة أسرّت بها لدميتها قبل أن تغفو، ولم تعلـم هي أيّ قدرٍ خُطَّ لها وتهامست به النجوم فيما بينها.

كبـرت صاحبة الدمية، وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها، باحت النجوم بما كان مكتومًـا، وخـرق جدار قلبها عشق غيـر عشق والدها الحـاج. كان عشقها «**صمـد**» وكانت الفتاة «**قدم خير**» والزمن **عصر الخميني**.

مـذ رأى صمد طائـرة الإمام تحطُّ على تـراب الوطن، أقسم معاهـدًا أن يكون جنديّ الإمام والإسلام والثورة؛ أمسك بيد «**قدم خير**» وبدآ معًا مشوار الجهاد والتضحية والإيثار، وشهدت الفصول الأربعة بحرِّها وبردها ليالي الانتظار الممزوجة بدموع الشوق إلى الغائب الذي تربّع على عرش فؤادها فملكه.

كُتبـت الشهـادة لصمد لكنّـه لم يُفلت يد «**قـدم خير**» قطّ، كان يقتـرب منها في بعض الأحيان ليهمس في أذنها: «**أسرعي.. لا تتباطئي.. أنا بانتظارك.. أُقسم لك أنّي لن أدخل الجنّة من دونك!**»

وبقـي في انتظارها علـى باب الجنة ثلاثـة وعشرين عامًا حتى كبـر الأطفال؛ حينها، استجـاب قلبهـا المشتاق لنداء الحبيـب ورحلت تاركة لنا سيرة عظيمـة من مسيرة زوجة شهيد.

المحرّر

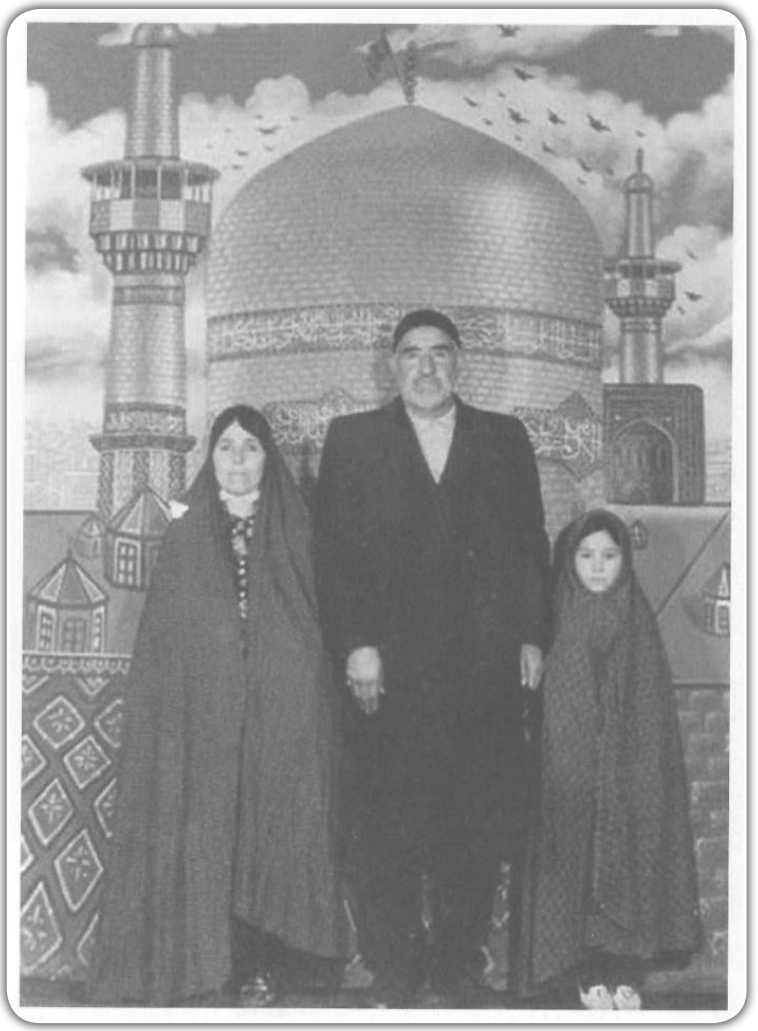

أنا، الحاج وشينا في أول سفر إلى مشهد 1350/1/15هـ.ش (1971م).

قصّة هذا الكتاب

قلتُ في نفسي: سأدوّن سيرة هذه السيدة. لقد اتّخذتُ قراري!

رفعتُ سمّاعة الهاتف واتّصلت بكِ. أجبتِني شخصيًّا. توقّعتُ أن تحدّثني سيدة متقدّمة في السنّ، لكنّي شعرت بفتوّة في صوتك، ظننت أنّي أتحدّث إلى ابنتك، فقلتُ: «**أريد التحدّث إلى زوجة الحاج ستّار**»، ضحكتِ وقلتِ: «**هذه أنا!**».

سمعت عنك الكثير، عرفت أنّك ربّيت أطفالك الخمسة بعد استشهاد الحاج ستّار، بمفردك، بمشقّة ومرارة. قلت في نفسي: «**هذه هي ضالّتي وها قد وجدتها! سأدوّن سيرة هذه السيدة، وقد تهيّأت جميع الأسباب**».

قلتِ: «**أنا لست ممّن يُحبّون الظهور في المقابلات**». رغم ذلك حدّدت أوّل موعد للّقاء، متى كان؟! في 21 نيسان 2009؛ فصل ثمار الجنارك. كنتُ آتي إلى منزلك لأجلس أمامك وأشغّل آلة التسجيل، أُصغي إليك وأنت تسردين ذكرياتك عن أمّك وأبيك، عن قريتكم الجميلة، وعن طفولتك. إلى أن وصلت إلى «**الحاج ستّار**» والحرب، اللذين كانا قد اندمجا معًا، فالحرب كانت قد أرخت بثقلها على منزلك الصغير، على كتفيك النحيلين الضعيفين، أي على «**قدم خير محمدي كنعان**»، ولم يلتفت أحد لذلك!

كنتِ تتحدّثين وأنا كلّي آذان صاغية، ضحكتُ معك وبكيت. وهكذا استمررنا، حتى انتهت المقابلات على أعتاب شهر رمضان، أتذكّر كيف أبديتِ سرورك بذلك لأنّك ستتمكّنين من أن تتفرّغي للعبادة، وقلتِ في النهاية: «**لم أكن أنوي قول شيء، لكن يبدو أنّني قلت كلّ شيء!**».

أمّا أنا، فكنت أشعر بسعادة أكبر! لأنّني سأتفرّغ لتدوين المقابلات. كنّا قد اتّفقنا على إعطائك وقتًا لتنقيح الكتاب وإضفاء ما يلزم عليه، لكن ما إن انتهيتُ من تدوينه حتى حصلت ضعضعة كبيرة!

فـي كانـون الأوّل 2009م، أسرعت لزيارتـك في المستشفى فـور سماعي الخبر، هذه المـرة لـم أحمل معي أوراقًـا، إنّما فواكه معلّبة وعصيـرًا. رأيتك مستلقيـة على الفراش، تنظرين إليّ ولا تعرفينني. لم أُصدّق ما رأيت، فقلت: «**قدم خير! فديتك، ماذا جرى لك؟ هـذه أنـا! «ضرابـي زاده»**[1]**! ألا تذكرينني؟** هذه أنا، تلك التي كانت تجلس أمامك وتحكين لهـا ذكرياتك! تلك التي كانـت تغمض عينيها بحجّة حموضة الجنارك كي لا ترينها تحبس دموعها. كنت أتمالك نفسي خوفًا من أن أُجدّد أحزانك!.

كنـتِ تقوليـن: «**يـا لسعادتـي، أن يأتي شخص لأتحدّث إليـه بعد كلّ هـذه السنوات، عـن معاناتـي وآلامـي وعن همومٍ لم أبـح بها لأحد**». ثم تواصليـن كلامك: «**بعد كلّ هذه المـدّة، عندمـا أروي لـك عن الحـاج، أشعر بشوق إليـه! عشت معه ثمانـي سنوات، ولكن لـم يتسـنّ لـي أن أرتـوي من وجوده ولـو لمرّة واحدة حيث لم نمض أيامًـا متتالية معًا كما يعيش الزوجان عادة. كنّا نعشق بعضنا بعضًا، لكنّنا عشنا بعيدين. لم يحدث خلال ثمانـي سنـوات أن نكـون بجانب بعضنا مدّةً طويلة. كان الحـاج زوجي، لكنّه لم يكن لي! كان صغـاري يسألونـنـي دائمًـا عن أبيهم الغائـب، يسألونني عنه قبـل أن يستشهد، وبعد استشهاده: لماذا لا يُرافقنا أبونا إلى المدرسة كما يفعل آباء زملائنا؟ أليس لدينا أب؟ وكنـت أُجيبهـم: لكنّ أمّكم معكم. كنت أذهب مع أطفالـي الخمسة، لإيصال خديجة إلى المدرسـة، وعنـد الظهـر نعاود الكـرّة لإرجاعها، وبعـد ذلك ننطلق جميعًـا، نحن الستّة، لإيصـال معصومـة -ابنتـي الأخرى- إلـى مدرستها حيث كانت تدرس فـي دوام مسائي. هكذا في المساء وفي باقي الأيام، كانت الأحداث تتكرّر يومًا بعد يوم**».

كنـتُ أذرف الدموع عندما رويتِ لي قصّة أيـام الشتاء الثلجية حين اضطررت لجرف الثلج عن السطح بمفردك.

صديقتـي العزيـزة! لقد ربّيـت أطفالك أفضل تربيـة، زوّجت ابنك الوحيـد، وأرسلت بناتك إلى بيت الزوجية، إلا آخرهنّ -ابنتك الصغيرة- التي كنت تحملين همّها.

قومـي! قصّتك لـم تنته بعد! لماذا لزمـت الصمت؟ أُريـد أن أشغّـل المسجّلة، لماذا تنظرين إليّ بنظرات فارغة؟!

---

(1) الكاتبة.

بناتـك يبكيـن عليـك ويقلن: «لم نكن نعلـم طوال هذه السنـوات أنّ أُمّنـا مريضة، لم تُخبرنـا خوفًا على مشاعرنا». لقد أخفيـتِ داءك عن فلذات أكبادك، الذين بدأوا يتذوّقون طعم الحياة كالآخرين، ولم ترضي بتعكير صفو عيشهم بهمومك.

تقول أختك: «يا لهذا المرض اللعين..».

لا، لا أريد أن يتحدّث أحد سوى «**قدم خير**». عزيزتي قدم خير! لا أرضى بهذا الوضع، يجـب أن تُنهي قصة حياتك. لقد قلت كلّ شيء عن الحاج ستّار، لكن الآن جاء دورك أنت. نريـد أن نسمـع عنك، عن صبـرك وشجاعتك وحلمـك وإيثارك. لمـاذا أصبحت طريحة الفراش والتزمت الصمت. لِمَ لا تذكرينـي؟ قومي! هذه القصة يجب أن تُكتب! لقد شغّلت آلة التسجيل، وها أنا الآن جالسة أمامك. لا تُحدّقي بي هكذا!

بهناز ضرابي زاده

صيف عام 2011م

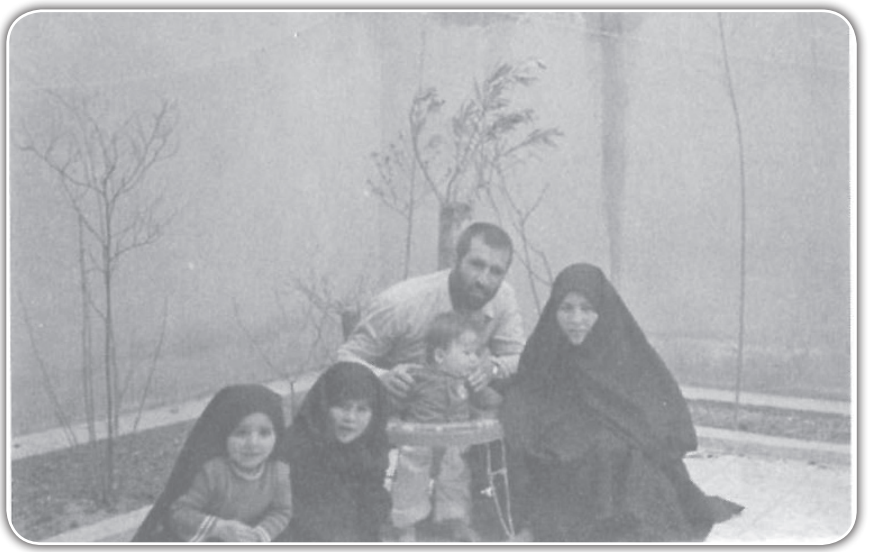

أنا، مهدي، خديجة ومعصومة؛ كان صمد يحبّ التقاط الصور كثيرًا؛ سنة 1362هـ.ش (1983م).

أنا، مهدي، خديجة ومعصومة في فناء منزلنا الذي اشتريناه في همدان. كان صمد يُحبّ تزيين المنزل وقام بتزيين الفناء بطلقات الدبّابات وبقايا القذائف.

الفصل الأوّل

الطفلة المدلّلة

كان والدي مصابًا بمرض، قالوا إنّه مستعصٍ. ما إن أبصرتُ النورَ حتى استعاد عافيته. كانت عائلتي والأصدقاء والأقارب يعتبرون ولادتي سبب تحسّن صحّة والدي. يومها قال عمّي لشدّة فرحه: «**هذه الطفلة جلبت لنا الخير! فلنسمّها «قدم خير»!**»

كنت آخر العنقود لأبويّ حيث ولدتُ بعد ابنتين وأربعة صبيان كانوا يكبرونني بعدّة أعوام، وقد تزوّجوا وسكنوا في بيوتهم. لذلك استطعت الحصول على أعلى درجات اهتمام والديّ، فسرعان ما أصبحت الفتاة المدلّلة، خاصّة عنده.

كنّا نعيش في إحدى قرى ريف مدينة «رزن». كنت سعيدة بالعيش في قرية قايش الجميلة بطبيعتها الخلابة، حيث أحاطت حقول القمح والشعير والعنب بيوتَ القرية. كنت أقضي أيامي فيها من الصباح حتى المساء في مرح ولعب مع قريناتي من فتيات الجيران؛ نركض في الأزقّة الترابية، نلعب طوال اليوم، ونضحك من دون أي همّ وغمّ، وفي المساء نعود إلى المنزل لنحمل الدُّمى التي كانت من صنع أيدينا من الأقمشة وخيطان الصوف ونصعد إلى السطح. كنت أجمع الدُّمى في تنّورتي لنصعد درجات السلّم ونلعب بها فوق السطح لعبة «بيت بيوت».

أُعجب الأطفال بألعابي التي اشتراها لي أبي من المدينة، فكنت أسمح لهم باللعب بها حتى يملّوا منها. وعندما يحلّ الليل وتملأ النجوم صفحة السماء، يتركنني واحدةً تلو الأخرى ويُعدن إلى بيوتهنّ عبر سطوح المنازل. فأبقى وحدي أواصل اللعب مع دمياتي وألعابي، وحينما أشعر بالتعب أستلقي فوق السطح محدّقة بالنجوم الفضية التي تلمع في السماء وكأنّها تغمزني. وعندما يبرد الجو، تأتي أمي لتحضنني وتنزلني عن السطح، فتقدّم لي العشاء ثم تأخذني إلى الفراش وتمسّد شعري بحنان وتحدو لي حتى أنام. ثم تنصرف لتحضير العجين الذي ستخبزه في الصباح الباكر.

كنـت أستيقظ في الصبـاح على رائحة الحطب والخبز الطـازج، أحسّ بنسيم يلامس وجهـي، فأركض إلى فناء الـدار لأغسل وجهي بماء بـارد تستخرجه أمـي يوميًّا من البئر الواقعة في زاوية منه. ثم أدخل لأجلس كعادتي في حضن أبي عند تناول الفطور، ويُلقّمنيه لقمة لقمة مقبّلًا شعري.

كان أبي يعمل في تجارة الغنم، ففي كلّ شهر يُحمّل شاحنته بالأغنام التي يشتريها من القـرى المجـاورة ويأخذها إلى طهران أو المدن الأخرى الكبيـرة ليبيعها هناك، فيحصل على أرباح جيدة، وكان يشتري لي الألعاب خلال أسفاره تلك.

لا أذكر يومًا أسوأ من اليوم الذي كان يودّعني فيه قاصدًا السفر. كنت أبكي إلى درجة تتـورّم عيناي وتصبحـان حمراوين، فيضطرّ إلى أن يحضنني، ويُقبّلني قائلًا: «**إذا كففتِ عـن البـكاء سأشتـري لك ما تُحبّيـن**». وأنا كنت أقتنع بكلامه ووعـوده فأهدأ ثم أسمح له بالسفـر مقدّمةً له قائمة مـن الطلبات التي أُريدها منه: «**حاج! أريـد دمية شعرها طويل، عيناهـا زرقـاوان، تفتحهما وتغلقهمـا، أريد سـوارًا، وأريد حذاءً خشبيًـا (قبقاب) يصدر صوت «طق طق»** عندما أتمشّى، وأريد أيضًا أدوات طبخ للّعب!»

كان أبـي يُقبّلني ويقـول: «**سأشتري لك، شـرط أن لا تبكي، وأن تكونـي فتاةً مطيعة. حسنًا! اضحكي الآن في وجه أبيك الحاج، والحاج يعدك أن يشتري لك كلّ شيء**».

كنـت أكفّ عن البـكاء لكنّي لا أضحك له، ويبقى شعوري بالحزن يُرافقني خلال الأيام التـي أفتقـده فيها، على الرغم من أنّ أسفاره عادة لا تطول أكثر من ثلاثة أيام. لكنّي أكره الوحدة وأحبّ أن يكون أبي إلى جانبي صباحًا ومساء.

كان أبناء القرية كلّهم يعرفون علاقتي بوالدي. أذكر عندما كنت أرافق أمي إلى العين لنحضـر الماء أو لنغسل الثياب، تُمازحني نساء القرية ويسألنني: «**من ستتزوّجين يا قدم خيـر؟**» فأُجيب: «**سأتزوج الحاج!**» فيطلقن الضحكات وتقـول إحداهنّ: «**لكنّه أبوك!**» وأنا أردّ بكلّ ثقة: «**بل إنّه زوجي! لأنّه يشتري لي ما أحتاجه!**». كنت صغيرة لا أفقه معنى هذا الكلام، وكانت النسوة يضحكن ويتهامسن ويتابعن عملهن.

كنت أحسب الأيام القلائل التي يُسافر فيها والدي، وكأنّها سنة. كانت أمي تنشغل عنّي بأمور البيت، وأنا أملّ من كلّ شيء، حيث لم أكن أجد عملًا منزليًّا أقوم به، خاصّة أنّ أمي كانـت ترفض إشراكي في الأعمال، وتقول وهي تتابع عملها: «**كلـي ونامي! سيحين دورك**

يومًا ما، ستتعبين من العمل، ثم إنّ أباك طلب منّي أن لا أدعك تعملين في البيت قطّ».

لـم أكن أرغب في الأكل والنوم، لكـن يبدو أنّه لا يوجد ما يشغلني. في حين كنت أسمع أحيانًا أختيّ تعترضان على المعاملة الخاصّة التي أحظى بها وتقولان لأمي: «**كم تدلّلينها؟ لِمَ لم تُعاملينا هكذا عندما كنّا صغيرتين!**»

رغـم كلّ الاهتمـام الذي حظيتُ بـه في بيت أبي، لـم يسمح لي والـداي بالذهاب إلى المدرسة ولم أستطع إقناعهما. كان أبي يقول: «**لا فائدة من المدرسة للفتيات**».

كانـت مدرسة القرية الوحيـدة مختلطة[1] ومدرّسها رجلاً شابًّـا. كانت أمي تقول: «**لا ينقصنا سوى أن تذهبي إلى المدرسة، تجلسين بين الصبيان ويُدرّسك رجل شابّ!!**»

لكـنّ هـذه المبرّرات لم تُقلّل مـن شوقي إلى الدراسـة والتعلّم. كنت أعـرف أنّ أبي لا يطيـق بكائي، لذلك كنت أستمرّ في البكاء صباحًا ومساءً وأتوسّل إليه ليسمح لي بالذهاب إلـى المدرسة، وهو يعدني بذلك ويقول: «**حسنًا! إن كففت عن البكاء سأطلب من أمّك أن ترافقـك إلـى المدرسة غدًا**». وأنا كنت أعتقد أنّه سيكون صادقًا في وعده هذا، فأخلد إلى النـوم لأصحـو في الصباح الباكر شوقًا إلى المدرسة. وفـي الصباح عندما أطلب من أمي مرافقتي إلى المدرسة، يأتي أبي ليقدّم لي مبرّرات ويؤجّل الموعد للغد. لذلك بقيت أمنيّة الذهاب إلى المدرسة في القلب ولم تتحقّق أبدًا.

مضـت الأيـام وأنا أكبـر. علّمتني أمي الصلاة وكنـت حينها في التاسعـة من عمري. تمكّنت تلك السنة من إكمال صوم شهر رمضان، رغم أنّني كنت أشعر بالمشقّة، خاصّة في الأيـام الأولى من الشهر المبارك، لكنّنـي كنت متحمّسة للصوم وأحرص على النهوض في الأسحار وأتناول الطعام كباقي أفراد الأسرة.

فـي عيد الفطـر السعيد، أمسك والدي بيدي واصطحبني إلـى دكان ابن عمّه مخاطبًا إيـاه: «**أريد جائـزة لابنتي، لأنّها صامـت الشهر بأكمله**». فأعطاه ابـن عمّه عباءة بيضاء (شـادور) منقّشة بورود صغيرة زهرية اللون أخرجها من بيـن الأقمشة، فألقاها أبي على رأسـي. كانت العباءة على مقاسي كأنّها قد خيطت لي! اجتاحني حينها شعور بالفرح كأنّي

(1) يعود تاريخ هذه الوقائع إلى سبعينيات القرن الماضي أو ما قبلها، أي قبل انتصار الثورة الإسلاميّة؛ وحينها لـم يكـن هناك أي مراعاة لأحوال الناس وشؤونها الدينيّة والشرعيّة؛ ولذلك كانت أغلب العوائل تفضّل عدم إرسـال بناتها إلى المدارس المختلطـة عندما لا تتوافر المدارس غير المختلطة، إلّا أنّه وبعد انتصار الثورة الإسلاميّة عمّت المدارس المفصولة وغير المختلطة الى ما قبل المرحلة الجامعيّة (المحرر).

أطيـر فـي السماء. خاطبني أبي وهـو يبتسم لي: «**عزيزتـي قدم خير، من اليـوم يجب أن ترتدي هذه العباءة أمام الرجال الأجانب، اتّفقنا؟!**»

بعـد عودتنا إلـى المنزل سألت أمي عن معنى الأجانب، كنـت عندما يأتي رجل ما إلى منزلنـا أركض وأسأل أمي: «**هل هذا الرجـل أجنبيّ أم لا؟!**» كانت أمـي تملّ منّي أحيانًا، لذلـك صرت أسرع لارتداء عباءتي كلّما دخل رجل إلى بيتنا لا أفرّق بين غريب وقريب، بل صرت أرتديها حتى أمام إخوتي!

الفصل الثاني

اللقاء الأوّل

تعـوّدت منـذ صغري أن أمضـي يومياً بضع ساعـات في منزل عمّـي؛ فمنزله كان يقع بمحاذاة بيتنا. وفي بعض الأحيان كانت أمي ترافقني أيضًا.

ذات يـوم، ذهبت وحدي إلى هناك. كان الوقـت ظهرًا عندما نزلت على الدرج الطويل الذي يمتدّ من شرفة المنزل إلى الفناء، وتفاجأت بفتًى يافع ظهر أمامي. للحظات قصيرة تشابكت نظراتنا ببعض، فأطرق الشاب رأسه مسلّما عليّ. كنت أسمع دقّات قلبي الذي كاد أن ينخلع من صدري. انعقد لساني وارتبكت، وغادرت المكان من دون ردٍّ أو سلام، وحثثت خطاي حتى وصلت إلى فناء البيت. كانت خديجة -زوجة أخي- تُخرج دلو الماء من البئر. ما إن رأتني حتى أفلت الحبل من يدها وسقط الدلو في البئر لشدّة خوفها، وسألتني: «**قدم خير! ماذا حدث؟ لماذا تغيّر لون وجهك؟**».

وقفت قليلًا لأستعيد أنفاسي. كنت أرتاح لخديجة التي كانت أقرب زوجات إخوتي إليّ. حدّثتها بما جرى معي، فضحكت ساخرة: «**ظننت أنّ العقرب لدغك، كأنّك لم تري صبيّاً في حياتك!**».

لـم أكن بعيدة عن الصبيان وكنت أرى الكثيـر منهم؛ أيعقل أن تعيشي في قرية وتلعبي مع الصبية ولا تتحدّثي إليهم بكلمتين أو ثلاث!

كان أبـي من وجهة نظـري أفضل رجل في العالم. كنت أُحبّه إلـى حدٍّ أصبحت أمنيتي الوحيـدة في تلك السنوات من عمـري أن أموت قبله. أتذكّر حينما يتوفّى أحد أبناء القرية ونحضر في عزائه، كنت أسترسل لا شعوريًا في البكاء بمجرّد أن يخطر في بالي أنّه يمكن أن أفتقـد أبـي يومًا من الأيام. كنت أبكي إلى درجةٍ أفقد فيهـا وعيي، بينما يظنّ الآخرون أنّني أبكي على فقيدهم. كان أبي يُبادلني الشعور ذاته، فقد كان يحتضنني بعض الأحيان، ويُقبّل رأسي رغم أنّ عمري ناهز الرابعة عشرة.

أدركـت تلـك الليلة، من خلال حديث أمي أنّ ذلك الشاب أحد أحفاد عمّ والدي واسمه «**صمد**».

غـداة ذلك اليوم، بدأت زياراتٌ مريبة إلى بيتنـا. بدأها عمّ والدي الذي جاء ليتحدّث إلى أبي، ثم وصل دور زوجة عمّ أبي، التي كانت تأتي إلينا صباح كلّ يوم بعد إنهاء أعمالها المنزلية، فتجلس في فناء دارنا وتتكلّم مع أمي حتى الظهر. وبعد فترة، جاءت والدة صمد، ثم والده.

لـم يكـن أبي راضيًا عن زواجي، فـكان يقول: «**قدم خير طفلة، لم يحـن وقت زواجها بعـد**». كانـت أُختـاي تعترضـان: «**عندمـا تزوّجنا كنّـا أصغـر منها سنًّـا، فلمـاذا تمنعون زواجها؟**» لكنّ أبي كان يُقدّم الذرائع قائلًا: «**لقد تغيّر الزمن**».

كنت سعيدة بحبّ أبي لي، حينها عرفت أنّ السبب الوحيد في عدم قبوله مسألة زواجي، هـو تعلّقـه الشديد بي، وأدركت أنّـه لن يرضى أن يُبعدني عنه. لكـنّ الأقارب لم يستسلموا وبدأوا يبعثون الرسائل ويوسّطون الأصدقاء والمعارف بغية الحصول على رضاه.

مضـى عامٌ على تلـك القضية. كنت قد تيقّنت أنّ أبي لـن يزوّجني في المدى القريب. لكـن في ليلة من الليالي، جاء عدد من رجـال العائلة إلى بيتنا من دون موعد مسبق، وكان بينهـم عمّ والدي. بقي الرجـال يتحدّثون لبضع ساعات، وكانوا قـد أغلقوا الباب خلفهم. كنـت جالسة في الفناء الغارق في الظلام، تحت إحـدى شجرات التفاح من دون أن يراني أحـد، أراقـب جيدًا تلك الغرفة التـي يجتمع فيها الرجال، فرأيت عـمّ أبي يخرج ورقة من جيبـه وقد كتب عليها شيئًـا؛ أدركت حينها كلّ شيء، وخاطبت نفسي: «**قـدم خير! وأخيرًا أبعدوك عن أبيك**».

الفصل الثالث

الخطوبة

بعد أن غادر الضيوف بيتنا، تحدّث أبي إلى أمي: «**أُشهد الله أنّي لست راضيًا بعدُ عن زواج قدم خير، ولا أعرف كيف وصل الأمر إلى ما وصل إليه! ربما السبب يعود إلى ابن عمّي، لقد أحرجني بكلامه، وقوله بحرقة: لو كان ولدي حيًّا هل تزوّجه ابنتك؟! انظر فصمد هو ابني**».

فـي الماضـي، كان لابن عـمّ والدي فتًى يافـعٌ أُصيب بمرضٍ ومات على أثـره. وكلّما يذكره، بعد كلّ هذه السنوات، يحنّ إليه ويبكي، فيتأثّر الجميع لحزنه. وها هو اليوم استغلّ الموضوع ليُقنع أبي بتزويج ابنته من ابن بنت عمّه.

مـن التقاليـد السائدة في قايش قبل مراسم الخطبـة، أن يجتمع الرجال وكبار العائلة للاتّفاق، فيتمّ تحديد المهر ويُقدّرون مصاريف الحفل وما يجب شراؤه، ثم يكتب كلّ ذلك فـي لائحـة تُرسل إلى أسرة العريـس، وهم بدورهم يوقّعون على الورقـة بعد الموافقة على قائمة المصاريف، ثم يردّونها إلى أسرة العروس مرفقة بهدية.

بقيتُ تلك الليلة أدعو الله حتى الصباح ليتشدّد أبي في تعيين المهر ومصاريف العرس كي لا تقبلها أسرة العريس.

في صبيحة اليوم التالي، حمل أحد الضيوف اللائحة إلى منزل والد صمد. علمت فيما بعد أنّ أبي حدّد خمسة آلاف تومان مهرًا لي، وقد تحفّظ والدا صمد على المصاريف التي عيّنهـا أبي، لكنّ صمد لم يُشاطرهما الـرأي، حتى إنّه اعترض على المبلغ الذي حدّده أبي للمهر قائلًا: «**لماذا هذا المبلغ المتواضع؟! فلنُضاعف المهر!**» فأصرّ على إضافة خمسة آلاف أخرى على المهر رغم اعتراض الجميع، ووقّع على اللائحة بنفسه.

مسـاء ذلك اليوم، أتـى أحدهم باللائحـة الموقّعة مرفَقة بقطعة قماشٍ تصلح لثوب نسائي، حينها خابت آمالي. لقد وافق أبي على زواجي من أوّل خاطب، ورضي بهذه السهولة أن يُرسل ابنته «آخر العنقود» في العائلة إلى بيت الزوجية.

أُقيمت بعد أيام، مراسم الخطوبة. خصّصت غرفة للرجال، وأخرى للنساء. أمّا أنا فلجأت إلى غرفة المونة التي تقع في طرف الفناء ورحت أبكي بشدّة.

كانت خديجة تبحث عنّي في كلّ مكان تحتمل فيه وجودي، فوجدتني أخيرًا هناك. ولمّا رأتني على تلك الحالة بدأت تنصحني: «**ما معنى هذه التصرّفات يا فتاة! هل تظنّين أنّك ما زلت طفلة؟ أنت الآن في الرابعة عشرة من عمرك! تتمنّى كلّ فتاة بعمرك أن يتقدّم شاب مثل صمد للزواج منها. هيّا قولي أيّ عيب رأيتِه في صمد؟ أليس من أسرة محترمة؟ أليس طيب المنبت؟ إن لم تقبلي أن تتزوّجي هذه السنة، ستضطرّين لذلك في السنة القادمة. عاجلًا أم آجلًا لا بدّ لكلّ فتاة أن تذهب إلى بيت زوجها؛ لكن برأيك من هو أفضل من صمد؟ هل تعتقدين أنّ في هذه القرية الصغيرة زوجًا بمواصفات أفضل منه؟ أو أنّك تحلمين بقدوم أمير من أقصى العالم ليأخذ بيدك ويرافقك إلى قصر الأحلام؟ كفي عن هذا الجنون! لا ترفضي السعادة التي تقف ببابك. صمد شابٌّ طيب، لقد رآك ورغب فيك. لا تكوني عنيدة! لا تتصرّفي بطريقة تجعل هذا الشاب يندم على اختياره فيتركك. عند ذلك سوف يتحدّث الناس عنك ويظنّون أنّ فيك عيوبًا، فتضطرّين حينها أن تعيشي في بيت أبيك إلى الأبد**».

شعرت بالاطمئنان لسماع كلامها. أخذت خديجة بيدي وذهبنا إلى الفناء معًا. أخرجت خديجة الماء من البئر وصبّته في طشت لتغسل وجهي ويديّ، كأنّها تتعامل مع طفلة، ثم رافقتني إلى الغرفة. كدت أموت من الخجل؛ تجمّدت يداي وقدماي ونبضَ قلبي بشدّة. لمّا رأتني أُختي قامت وألقت على رأسي منديلًا أحمر اللون، صفّق لي الحضور ثم بدأوا يغنّون بعض الأغاني والأهازيج باللغة التركية، لكن كلّ ذلك المشهد لم يؤثّر بي ولم أشعر بشعور خاصّ في داخلي يدلّ على أنّني أصبحت على وشك الزواج. في تلك اللحظات، لم أفكّر في شيء، غير أنّي كنت أتمنّى أن ينتهي الحفل بسرعة ويغادر الضيوف منزلنا لأتمكّن من رؤية أبي. كنت متأكّدة أنّني سأنسى كلّ همومي وقلقي عندما يمسح أبي بيده على رأسي.

مضت على تلك الليلة أيام عدّة. في صبيحة أحد أيام الربيع، كنت واقفة في فناء دارنا الكبير الذي تحيط به الغرف من كلّ جانب. كان فيه بوّابتان، إحداهما تفتح على الزقاق والأخرى تطلّ على حديقة صغيرة كنّا نُسمّيها البستان.

كانت الحديقة مكتظّة بأشجار الكرز الحامض، فأحببت أن أمرّ بها في ذلك اليوم،

ففـي هذا الفصل تكون في غايـة الروعة والجمال، وتظهر البراعم علـى الأشجار والأوراق الصغيـرة الخضراء متلألئةً تحت شمس الربيع المنعشـة. رحت أستمتع بالمناظر الخلّابة فـي ذلك الطقس اللطيف الذي كان ممتعًا حقًّا بعد شتاء قارس. فإذا بي أسمع صوتًا، وكأنّ شخصًـا يُناديني من خلـف الأشجار. في البدايـة، تفاجأت وشعرت بالخـوف، لكن عندما أنصتّ جيّدًا، أصبح الصوت أكثر وضوحًا. وإذا بشابٍّ يقفز داخل الحديقة من وراء الجدار المنخفض، كطيف غائم، اقترب منّي، وقبل أن أقوم بأيّ حركة أو ردّ فعل، وقف أمامي وجهًا لوجـه. وكانت الصدمة عندما أدركت أنّ ذلك الظلّ هـو صمد بعينه. سلّم عليّ مبتهجًا. لم أُصـدّق مـا رأيت! أطرقت رأسي ورتّبت عباءتي، وركضت نحو الفناء من دون أن أتفوّه بكلمة أو أردّ سلامـه. رحـت أصعد السلّم درجتيـن درجتين، مسرعةً نحو الغرفـة، وأقفلت الباب ورائي.

بقـي صمد ينتظرني بعض الوقت، ولمّا يئس مـن عودتي، اتّجه مباشرة إلى زوجة أخي ليشكـو قائلًا: «**أظنّ أنّ قدم خيـر لا تُحبّني أصلًا، لقد عانيت كثيـرًا لأحصل على إجازة مـن مسـؤول الثكنـة، وكان أملـي معلّقاً علـى رؤيتها والحديـث إليها ولـو ببضع كلمات! بقيـت خلـف جـدران الحديقـة لعـدّة ساعات أتحيّـن الفرصـة لأتمكّن مـن رؤيتها، حتى وجدتها بمفردها أخيرًا. لكنّها لم تردّ سلامي، مجحفة! ما إن رأتني حتى هربت منّي!**»

قبـل ظهر ذلك اليـوم، جاءت خديجة إلى بيتنا وقالت لي: «**قدم خيـر! تعالي إلينا في المساء، عندنا ضيوف وأحتاج مساعدتك**».

ذهبـت إلى خديجة عند المساء وصرت أُساعدها في إعـداد العشاء، ولم أنتبه إلى ما كانـت تُخطّط له. ما إن حلّ الظلام وأذّن المؤذّن، حتـى فُتح الباب ودخل صمد. انزعجت مـن خديجـة وخاطبتها: «**لو عـرف الحـاج وأمي بالأمـر لقتلانـا معًـا!**» ضحكت خديجة وقالت: «**لا تقلقي! إذا أبقيت فمك مطبقًا، لن يعرف أحد، ثمّ إنّ على إخوتك ريّ الحقل هذه الليلة، وزوجي سيكون معهم**».

ارتـاح بالـي قليلًا فاختلست نظرة إلى صمـد. كان أصلعَ! لم يُعجبنـي مظهره، فبدأت بالتمتمـة والتأفّف: «**ما هذه الهيئة؟!**» دعته خديجة للدخـول إلى الغرفة حيث كنت. دخل صمـد وسلّم علـيّ، فلم أستطع الردّ هذه المـرة أيضًا، بل قمت وذهبـت إلى غرفة أخرى. نادتنـي خديجة فلم أردّ. بعـد لحظات، جاءت إلى الغرفة ومعها صمـد. أرادت خديجة أن

تفهمني بغمزات العين وإشارات الحاجب أنّي مخطئة في تصرّفي، ثم غادرت الغرفة. بقيت أنا وصمد. تردّدت بعض الشيء ثم نهضت محاولة الهرب من نظراته الثقيلة، لكنّ صمد وقف في الباب، وسدّ عليّ الطريق، ثم ابتسم وقال: «**إلى أين؟ لماذا تهربين منّي؟ اجلسي، أريد التحدّث إليك**».

أطرقت رأسي وجلست في زاوية الغرفة، وجلس هو أيضًا، عند الباب، واسترسل في الحديث. كان يتكلّم عن المواصفات التي يُفضّلها في زوجته، وقال إنّه يريد الذهاب إلى طهران بغية الحصول على مهنة جيدة ما إن يُنهي خدمة العلم، لكنّه سرعان ما غيّر كلامه بعدما رأى ملامح القلق في وجهي، وقال: «**من الممكن أيضًا أن أبقى هنا في قايش**». ثم تحدّث عن مهنته في البناء، وأنّ بإمكانه أن يجد في طهران مجالات أكثر للعمل.

كنت مطرقةً رأسي، ولم أنطق بكلمة، لكنّه ظلّ يتحدّث بلا انقطاع، الأمر الذي جعله يفقد أعصابه أخيرًا واعترض قائلًا: «**قولي شيئًا، ولو كلمة، لتنفرج أسارير قلبي**».

لم يكن لديّ ما أتحدّث عنه. كنت ممسكة بعباءتي تحت ذقني موجّهةً نظري نحو الغرفة المحاذية لنا. عندما رأى عدم جدوى استدراجي في الكلام، سألني: «**أين تودّين أن تعيشي؟**» هذه المرة أيضًا لم أردّ عليه، لكنّه لم يتوقّف عن السؤال فتابع: «**هل تُحبّين العيش مع أمي؟**» أجبت أخيرًا بكلمة واحدة: «**لا!**» ثم لزمت الصمت مجدّدًا.

عندما تلاشت جهوده لاستنطاقي، سكت أخيرًا. اقتنصت الفرصة وخرجت من الغرفة بحجّة مساعدة خديجة. مددتُ المائدة ثم قمت بتحضير الطعام، بينما كانت خديجة تصرّ: «**اذهبي واجلسي مع صمد وتحدّثا معًا، وأنا سأقوم بتحضير الطعام بمفردي**». لكنّي رفضت، وبقيت في المطبخ، بينما بقي صمد وحيدًا في الغرفة. وعلى مائدة العشاء، فضّلت أن أجلس قرب خديجة بعيدًا عن صمد.

وبعد العشاء، جمعت الصحون وخرجت من الغرفة لإعداد الشاي وتنظيف المطبخ، وفي الواقع، كنت أهرب من صمد.

تلك الليلة، قال صمد لخديجة: «**أعتقد أنّ قدم خير لا تُحبّني، أظنّ إن بقيت الأمور هكذا لن نستطيع العيش معًا**».

حاولت خديجة مواساته: «**لا تنزعج، هذه الأمور عادية، سوف تُحبّك إذا أعطيتها بعض الوقت، عليك أن تتحمّل وتكون صبورًا**».

بعد تناول العشاء والشاي غادر صمد المنزل. بعد مغادرته بحثُ لخديجة بعدم إعجابي بـه لأنّه أصلـع[1]! ضحكت خديجة قائلة: «**وهل هناك مبرّر آخر لديـك أيّتها المجنونة؟! مـن الطبيعـي أن يكـون مظهـره هكذا لأنّه فـي «خدمة العلم»**[2]، سـوف ينبت شعره بعد بضعة أشهر عندما يُنهي خدمته».

ثم سألت: «**هل يوجد مشكلة أخرى؟**».

قلت: «**يتكلّم كثيراً!**».

ضحكـت مـرة أخرى وقالت: «**هذا أيضًا له حلّ، اصبري قليـلاً، حينما تتعوّدين عليه وتضعين الخجل جانبًا، سيحين دورك ولن تسمحي له بالحديث حتى**».

أضحكنـي كلام خديجة فتمادينا في المزاح والضحك ولم ننم إلا بعد وقت متأخّر من الليل.

بعـد عـدّة أيام، أخبرتنـا أم صمد أنّها تريـد أن تأتي إلى بيتنا. جـاءت عصرًا، كانت بمفردها وتحمل معها صُرّة من الثياب. شكرتها أمي، أخذت الهدايا ووضعتها وسط الغرفة ثم أشارت لي لأفتح الصُرّة. جلستُ مكرهةً وفككتُ العقدة. كان بداخلها عدد من القمصان والتنانير والأقمشة. لم يُعجبني أيّ منها، طويتها ووضعتها في الصُرّة حيث كانت، وعقدتُها من دون أن أنبس ببنت شفة.

أدركت أم صمد أنّ الهدايا لم تُعجبني لكنّها لم تُبدِ شيئًا. راحت أمي تعضّ على شفتيها وتغمزني كي تُنبّهني بأن أشكرها وأن أبتسم وأبدي سروري، لكنّي لم أكترث لذلك وجلست متجهّمة في زاوية الغرفة.

أخبـرت والدة صمد ابنها بما جرى؛ فقَدِمَ بعـد أيام مرتديًا قبّعة كي يُخفي صلعته، وكان يحمل بيده حقيبة، عندما رآني أعطانيها وقال مبتسمًا: «**ليست من قيمتك!**».

أخـذت الحقيبة وأسرعت نحو غرفة في القبو من دون أن أتكلّم معه بكلمة، لكنّه تبعني وكان يُنادينـي، فوقفت أمام بـاب الغرفة. أخرج من جيبه ورقة ليُريني إياها ثم قال: «**قدم خير! أقسم عليك بالله أن لا تهربي منّي، انظري إلى هذه الورقة! إنّها ورقة مأذونيّتي. لقد حصلت على مأذونيّة من الثكنة فقط من أجل رؤيتك**».

---

(1) أو حليق الرأس.

(2) الخدمة العسكرية الإجبارية.

وبمـا أنّنـي أمّية لا أجيد القراءة والكتابة حدّقت في الورقـة فحسب. انتبه صمد لذلك فبدأ يشرح لي: «**لقد كانت المأذونيّة ليوم واحد فقط لكنّي زوّرتها وجعلت اليوم يومين. أتمنّى أن لا يطّلع أحد على ذلك، إذا عرف المسؤول سوف يُعاقبني عقابًا شديدًا**».

كنـت خائفـة من أن يأتي أحد ويُشاهدنا نتحدّث معًا. دخلت الغرفة من دون أن أقول شيئًا. لا أعـرف لمـاذا لم يدخل هو واكتفى بجملة: «**ما هو موقفك منّي؟ إذا كنت لا تُحبّينني قولي ذلك بصراحة كي أذهب في سبيلي**».

لـم أكن أملك جوابًا. كان فـي الغرفة باب آخر يفتح على الغرفـة المجاورة، فدخلت منه إلـى الغرفـة الثانية. غادر صمد المنزل مـن دون أن يودّعني. كانـت الحقيبة ما زالت بيدي، جلسـت في الغرفـة وفتحتها. وجدت فيها عـدّة قمصان، تنانير ومناديـل. أعجبني ذوقه في اختيـار الهدايا. فـي لحظة، لا أدري ماذا حـدث في داخلي، انقلب حالـي وشعرت بضيق في صـدري. جمعـت الملابس في الحقيبة وأغلقتهـا وركضت نحو الفناء، لكنّنـي لم أجد صمد، كان قد ذهب.

لـم يأت صمد غداة ذلك اليوم ولا في الأيام التاليـة. بدأ يساورني القلق عليه، كنت في وضع لا أستطيع أن أبوح بسرّي وحديث قلبي لأحد، كنت أخجل أن أسأل أمي عن صمد وعن أخبـاره. ذهبت ذات مرّة إلى النبع، سمعـت من النسوة هناك أنّ الثكنات في حالة استنفار وأنّهم لا يُجيزون المأذونيّات للجنود. في تلك الأيام، كان أبي أيضًا يتحدّث عن المظاهرات المناهضة للشاه، وعن إعلان الحكم العسكري في أغلب المدن، والناس يهتفون ضدّ الدولة والشـاه. علـى الرغم من ذلك كانت قريتنـا الصغيرة بعيدة عن كلّ هـذا الضجيج والحياة فيها تمضي بهدوء.

مضى شهر على اللقاء الأخير بيني وبين صمد. في أحد الأيام، كنّا جالسين في الإيوان وكانت خديجة وأخي عندنا في البيت. كان باب الفناء مفتوحًا كسائر بيوت القرية، لا يغلق إلا ليـلًا. سمعنـا صوتًا ينادي من الخارج: «**يا الله... يـا الله!**»؛ كان صمد. لأوّل مرّة انقلب حالـي لدى سماعي صوته وبدأ قلبي يخفـق بشدّة. أسرع أخي «**إيمان**» نحو الباب واستقبله بحفاوة سائلًا عن أحواله، ثم دعاه للدخول. ما إن رآني حتى ارتسمت ابتسامة على شفتيه كعادتـه وسلّم عليّ. شعرت أنّ خدّي يتوهّجان حـرارة وكأنّ مغرفتين ساخنتين قد أُلصقتا بهمـا. أطرقت رأسي ودخلت الغرفة حيث دعته خديجـة ليدخل. عندما دخل، خرجت من

شـدّة حيائي من دون أن أُكلّمه أمام أخـي أو أن أجلس معه في غرفة واحدة. بقي صمد في البيـت لساعة تقريبًا يتحدّث إلى أخي وخديجـة. عندما خاب أمله من رؤيتي، قام ليودّعنا وينصـرف. التقينا مجدّدًا في الإيوان وخاطبنـي بلهجة شبه ساخرة: «**عذرًا على الإزعاج! سلّموا على الحاج وشيرين**[1]». ثم ودّعنا وذهب.

نادتني خديجة وقالت: «**قدم خير! لقد أفسدت الأمر مجدّدًا! لِم لم تدخلي الغرفة؟ انظري ماذا أحضر لك!**» ثم أشارت إلى حقيبة في يدها وقالت: «**هذه لك أيتها المجنونة!**»

كنت مرتبكة من لقاء صمد إلى حدّ أنّي لم أنتبه إلى الحقيبة في يده. أخذت خديجة بيدي ودخلنـا معًـا إحدى الغرف الداخلية وأغلقنا الباب ثم قمنـا بفتح الحقيبة. كان صمد قد وضع صـورة كبيرة له في غطـاء الحقيبة من الداخـل وألصقها بإحكام. عندما وقعـت أعيننا على الصـورة ضحكنا لهذا التصرّف. كانت الحقيبة مليئة بالثياب والأقمشة، وقد وضع بينها بضع قطع من الصابون المعطّر خاصة بالعروس.

كانـت الملابـس قد طويت بـذوق رفيع، فبـدأت خديجـة تُمازحنـي: «**الله لا يعطيك العافية! هنيئًا لك، كم يُحبّك يا فتاة!**».

عندما طـرق «**إيمان**» الباب. ارتبكـت وقلت لخديجة: «**هيـا لنخبّئ الحقيبـة!**» سألت خديجة باستغراب: «**لماذا؟!**» كنت أخجل من أن يرى إيمان الحقيبة، فقلت: «**إذا رأى إيمان صورة صمد سيظنّ أنّني أيضًا أعطيته صورتي**».

قال إيمان وهو يطرق الباب: «**لماذا أغلقتما الباب؟ هيّا افتحا!**».

كنـت أحـاول أنا وخديجة نـزع الصورة من الحقيبـة لكن دون جـدوى. وكأنّ صمد قد ألصقها بإحكام، فلم نُفلح.

كان إيمان يطرق الباب بشدّة وكأنّه يريد اقتلاعه. لم نجد حيلة أمامنا لأنّ الصورة لم تُنـزع بـأيّ شكل من الأشكال. أغلقنا غطاء الحقيبـة وخبّأناها تحت فراش النوم في زاوية الغرفـة. فتحـت خديجة الباب لإيمان الـذي استشعر حدوث أمر مريـب، تفحّص أطراف الغرفة بنظراته ثم سأل: «**أين الحقيبة؟ ماذا أحضر صمد لقدم خير؟**».

همسـتُ في أُذُن خديجة: «**إن تكلّمت بشـيء وكشفت أمري سيكـون حسابك عسيرًا!**» فألهتْ خديجة إيمان ببعض الكلمات ثم خرجتْ معه من الغرفة.

---

(1) شيرين والدة «قدم خير»، وسيمر في الكتاب ذكرها باسم : «شيرين جان» أي شيرين العزيزة.

«سر پل ذهاب»؛ سنة 1363هـ.ش (1984م)؛ سمية، خديجة، مهدي، أنا وصمد برفقة السيد شمس الله.

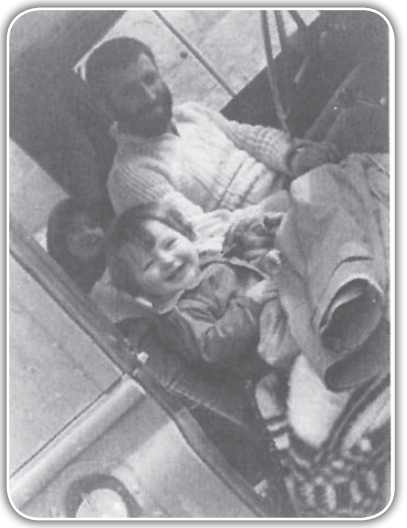

صمد، مهدي وخديجة؛ «سرپل ذهاب»؛ سنة 1363 (1985م).

في هذا المكان أعطاني صمد المنظار لأشاهد الخط الأمامي، كان مهدي قد أخذ المنظار ولم يرغب بإعطائه لأحد مطلقًا؛ «سر پل ذهاب»؛ سنة 1363.

الفصل الرابع

الدعوات المتبادلة

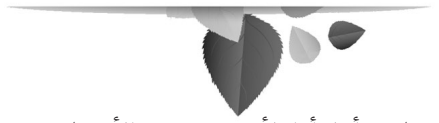

توالــت الأيــام وصمد إمّا يكثر من زيارتي أو لا أراه لأشهر. لم تعد الأوضاع مستقرّة في البلاد، والمظاهرات المناهضــة لنظام الشاه الديكتاتوري قد تجاوزت المدن ووصلت إلى القرى. حلّ فصل الخريف، ثم تلاه الشتاء والبرد القارس والصقيع.

عندمــا يغيــب صمد عنّا لفترة طويلة كنــت أنساه تمامًا، لكن مــا إن يعود ويزورنا حتى أتذكّــر أنّ ثمّــة علاقة ستجمع بينـــي وبينه في المستقبل، فيساورنـــي القلق من جديد. لكنّ اهتمام أبي الخاص بي كان يُعيد إليّ الهدوء ويجعلني أنسى كلّ شيء.

لــم يتبــقّ سوى بضعة أيام لعيد النــوروز[1] وبداية السنة الجديــدة. دعونا الأقارب إلى مأدبــة عشــاء، كانت أمي قد أعدّتها. كان أهل القرية يعرفــون أنّ أمي ربّة منزل ماهرة، لا ينافسهــا أحد في الطهو. كانــت دائمًا حنونة مع الآخرين، فكان الجميــع يُناديها «**شيرين جان**».

ذلــك اليوم، جاءت أخواتي وزوجات إخوتي إلى بيتنا لمساعدة أمي في إعداد المأدبة. كانت أسرة صمد أيضًا بين المدعوّين. قبيل الغروب، صعد عدد من الشباب سطح الغرفة حيــث كنّــا مجتمعين وبــدأوا يغنّون ويصفقون. كان فــي وسط سقف الغرفة كــوّةً (تهوئة) كباقي بيوت القرية. جاء الأولاد وأخبرونا أنّ صمد وأصدقاءه فوق السطح. في تلك الأثناء، ونحــن نستمــع إلى الأصوات، وإذا بصُــرّة معلّقة بحبل أُدخلت من الكــوّة إلى داخل الغرفة حيث المنضدة وسط الغرفة، فصفّقت لي صديقاتي مشجّعات: «**هيّا! أسرعي يا قدم خير! خذي الصُرّة!**».

---

(1) 1 فروردين رأس السنة الهجرية الشمسيّة الإيرانيّة الموافق 21 آذار من السنة الميلاديّة.

لم أكن أدرك وأصدّق ما يجري حولي، وأنّ هذه مراسم تُقام للعريس والعروس، فأجبت غير آبهة، من دون أن أقوم من مكاني: «**اذهبن أنتنّ وخُذنها!**».

عندها، قامت إحدى صديقاتي، أخذت بيدي ودفعتني نحو المنضدة وهي تقول: أسرعي! خذي الصُرّة!

لم يبق لديّ حيلة. فصعدت أعلى المنضدة محاولةً أخذ الصُرّة. لكنّ صمد أخذ يشدّ الحبل إلى الأعلى كأنّه يريد ممازحتي. أجبرني على الوقوف على أطراف أصابعي، إلا أنّه شدّ الحبل هذه المرة أكثر. كنت أسمع ضحكاته من الكوّة، فقلت في نفسي: سأريك الآن! عند ذلك انحنيت لأبدو كأنّني أريد أن أنزل عن المنضدة فوضعت إحدى قدمي على الأرض. ظنّ صمد أنّي انزعجت من تصرّفه وانصرفت عن استلام الصُرّة، فأرخى الحبل حتى وصلت فوق رأسي، عدت حينها بسرعة وخطفت الصُرّة في لمح البصر. أرخى صمد الحبل أكثر وأكثر بعد أن خسر اللعبة. صفّق لي الضيوف ثم جاؤوا وفكّوا الصُرّة من الحبل ووضعوها وسط الغرفة وشرعوا بفتحها.

كان صمد قد تكبّد العناء هذه المرة أيضًا؛ اشترى لي كنزةً وبنطالًا وتنّورة ومناديل كلّها من أحدث موضة متوافرة في السوق، ومن أفخم وأرقى الأقمشة، ما جعل الحاضرات يندهشن لرؤيتها.

في المقابل كانت هناك هدايا أخرى قد اشترتها أمي لصمد، عبارة عن حذاء وملابس داخلية وجوراب وقميص وقطعة قماش للسروال وصابونة وسكّر نبات، وضعتها أمي في الصُرّة نفسها لتقدّمها لصمد. ثم عقدت الصُرّة بالحبل المتدلّي من السقف وقالت: «**عزيزتي قدم خير! اطلبي من صمد أن يشدّ الحبل**».

صعدت على المنضدة غير آبهة بشيء، لكنّي سرعان ما وجدت نفسي في موقف محرج. تُرى كيف أُناديه وأنا لم أتفوّه باسمه حتى الآن! صرت أشدّ الحبل عدّة مرات كي أنبّهه، لكنّهم كانوا منشغلين عنّا، فلم يلتفت إليّ أحد. في حين كانت أمي تطلب مكرّرة: «**هيا قدم خير! بسرعة! ناديه!**».

رحت أناديه بصوت متقطّع: «**سيد... سيد..**».

كنت أشعر بنبرات صوتي المتقطّعة، وقد تجمّدت أطرافي من شدّة الخجل. لم أسمع ردًّا من صمد فشددت الحبل أكثر وصرخت ثانية: «**سيد.. سيد.. سيد صمد!**».

كان قلبـي ينبض بشدّة واحتبست أنفاسي. وأخيرًا سمع صمد صوتي، انحنى من الكوّة حيـث كنـت واقفة تحتها، فشاهدت وجهـه حينها. كان ينظر إليّ باستغـراب. تلك النظرة وذلك الوجه الحنون جعلا قلبي ينبض بسرعة. أشرت إلى الصُرّة ليرفعها فضحك وشدّها إلى الأعلى بفرح.

كان أصدقـاء صمد على السطح يُصفّقون ويدبكون لبعض الوقت، ثمّ نزلوا وذهبوا إلى غرفة الرجال. بعد أن تناولنا العشاء، تحدّثت الأسرتان عن مراسم العقد والعرس.

جـاءت أم صمـد غداة ذلـك اليوم إلـى بيتنا لتدعونا إلـى الغداء. نادتنـي أمي قائلة: «**حبيبتـي قـدم خيـر! اذهبي إلـى أخواتك وزوجـات إخوتـك وأخبريهنّ بالموعـد لأنّهنّ مدعوّات أيضًا**».

ارتديت عباءتي وانطلقت إلى منزل أُختي فرأيت صمد في أوّل الزقاق. كان يحمل سلّة علـى كتفه. توقّف عندما رآني وابتسم، كأنّه امتلك الدنيا. ضحك ووضع السلّة على الأرض وسلّم عليّ. رددت سلامه لأوّل مرة، لكن سرعان ما شعرت بالندم كأنّي ارتكبت ذنبًا كبيرًا. كان جسمـي يرتجف، فهربت منه كعادتي. وبمـا أنّ أُختي كانت في الفناء، أبلغتها الرسالة وطلبـت منها أن تُخبـر بقية الأخوات وزوجـات الإخوة، ثم انصرفت، وعـدت راكضة نحو المنـزل. كنت أعرف أنّ صمد سيبحث عنّي في الأزقة، فحاولت أن أختفي قبل أن يجدني. التقيـت في طريق العودة بخالي، أشرت إليـه ليوقف السيارة. وقف وسألني: «**ماذا حصل؟ لم وجهك باهت اللون؟**».

أجبتـه: «**لـم يحصل شيء، أنا على عجلـة من أمري، أريد الذهاب إلـى المنزل**». فتح الباب وقال: «**اركبي، سأوصلك**». فرحت وركبت السيارة، فقد حصل ما كنت أرغب به. كنّا نمـرّ من منعطف الزقاق فشاهدت من المرآة الجانبيـة صمد واقفًا عند أوّل الشارع ينظر إلينا باستغراب.

مضـت الشهـور، وكانـت مراسم تبادل الزيـارات والضيافـة قد بدأت بيـن الأسرتين. اشتـرى والـدي خروفًـا لنذرٍ كان يريـد أن يفي به. وقامـت أمي بدعوة أسـرة صمد. ركبنا فـي الصباح الباكر حافلـة صغيرة كان أبي قـد استأجرها وانطلقنـا. وضعنا الخروف في الصندوق الخلفي للحافلة واتّجهنا إلى مقام أحد أبناء الأئمّة عليهم السلام الواقع فوق الجبل على مسافة ليست بقريبة. واجهت الحافلة مشكلة في صعود الجبل وكانت تمشي ببطء.

قال السائق: «**الصعود صعب، يجب أن يترجّل بعضكم منها**».

نزلت أنا وأخواتي وحماتي ونزل معنا صمد أيضًا. كان يرغب في الحديث معي في تلك الفرصة المتاحة، غير أنّني كنت أحاول أن أستبقه أو أتأخّر عنه أو أمشي بين أخواتي وأتحدّث إلى زوجات إخوتي. كان صمد يتحسّر ألمًا من تصرُّفاتي ويشعر بالحرج.

وصلنا أخيرًا إلى المقام. ذبحوا الخروف وقسّموا اللحم ووزّعوه على الموجودين في المكان. واختاروا منه جزءًا لتحضير الطعام ولطبخ مرق اللحم للغداء.

كانت هناك حديقة صغيرة موقوفة[1] بالقرب من المقام. دخلنا إلى الحديقة ولمّا رأيت الكرز الحامض على الأشجار صحتُ فرحةً: «**يا لهذا الكرز!**» تقدّم صمد وأخذ يقطف الكرز وطلب منّي عدّة مرّات أن أُساعده، لكنّي تغافلت ولم أُجبه، إلى أن قدِمت أُختي وزوجة أخي لمساعدته بدلًا منّي. قطف صمد مقدارًا من الكرز وأعطاها لأختي وقال: «**أعطيها لقدم خير، صحيح أنّها تهرب منّي لكنّها قالت إنّها تُحبّ الكرز**».

اختفيت طوال ذلك اليوم عن صمد ولم أظهر أمامه حتى العصر.

قلّت زيارات صمد بعد ذلك اليوم. كانت أمّه تقول: «**لقد انتهت مأذونيّاته كلّها**». كان يأتي أحيانًا أيّام الخميس والجمعة ويُخصّص وقتًا لزيارتنا، لكنّ أخاه «**ستّار**» كان يزورنا كثيرًا ويحضر هدية في كلّ مرّة يأتي إلينا. أحضر معه في إحدى المرّات قرطًا ذهبيًا. كان رائعًا جدًا واكتشفنا فيما بعد أنّه باهظ الثمن. وأحضر مرة أخرى ساعة يد ثمينة، قال أبي عندما رآها: «**سلمت يداه، حافظي عليها، إنّها يابانية أصلية!**»

بدأت الأسرتان تطرحان مختلف المواضيع حول مراسم العقد وحفل الزفاف، وراح كبار العائلتين يتشاورون في شأن الحفل وكيفية إقامة المراسم، لكنّنا؛ أنا وصمد؛ لم نكن قد جلسنا وتحدّثنا بعد.

دعتني خديجة ذات ليلة إلى منزلها وكانت جميع زوجات إخوتي حاضرات أيضًا، في حين أنّ إخوتي كانوا قد ذهبوا لريّ الحقول. لذلك استغلّت النساء الفرصة ليسهرن معًا. في نهاية السهرة وعندما أردنا النوم، طلبت إحداهنّ أن أحضر الفراش من الغرفة المجاورة. كانت الغرفة مظلمة؛ لا يصل إليها سوى ضوء خافت من الغرفة المحاذية. دخلت

(1) الوقف إحدى الشعائر الإسلاميّة حيث يجعل صاحب ملك ما أرضًا أو مالًا أو دارًا وقفًا على الاستفادة منها للعبادة أو أعمال الخير..

الغرفة ورفعت الغطاء عن البطّانيات. شعرت حينها بوجود شخص ما في الغرفة. من شدّة الخوف كدت أُصاب بنوبة قلبيّة، فحاولت تسلية نفسي: ليس هناك شيء، أنت تتخيّلين! ثم واصلت عملي، إلى أن سمعت صوت حركة. فحبست أنفاسي، وقلت: «**من هنا؟**» لكن الغرفة كانت غارقة في الظلام ولم أكن أرى شيئًا مهما جلت بنظري فيها.

– «**هذا أنا! لا تخافي، اجلسي، أُريد التحدّث إليك**».

كان صمد. حاولت أن أهرب منه كالعادة فوجّه لي كلامًا بنبرة غاضبة: «**هل تريدين أن تفرّي منّي هذه المرّة أيضًا؟ قلت لك اجلسي!**».

لأوّل مرة رأيته غاضبًا. كدت أبكي، وقلت له: «**أُقسم عليك أن تخرج من المنزل، هذا التصرّف ليس جيدًا. سوف نفتضح!**».

قال: «**لماذا نفتضح؟! نحن لم نفعل ما يُسبّب الفضيحة، لم آت إلى هنا إلا بدعوة من أهلك. لقد دعتني السيدة خديجة، وزوجات إخوتك أيضًا. جئت كي نتحدّث معًا، أليس من المقرّر أن نتزوّج الشهر القادم؟ نحن حتى الآن لم نتكلّم كلمة واحدة. تفرّين منّي دائمًا كما يهرب الناس من الجنّ! لكنّي قرّرت أن أُسمعك كلامي وأسمع رأيك بي أيضًا. من المستحيل أن نعقد القران قبل أن أتحدّث معك، وأعرف رأيك بي**».

كنت خائفة. قلت له: «**سيصل إخوتي وسوف يرونك هنا!**».

أجابني بنبرة قاطعة: «**سأواجههم بنفسي! اجلسي وقولي هل تُحبّينني أم لا؟**» خجلت كثيرًا وشعرت بأنّي سأموت خجلًا. ترى ما هذا السؤال! لكن بقيت أحمد الله على أنّ الظلام يمنعني من أن أرى وجهه بشكل واضح، فلم أُجبه.

سأل ثانية: «**سألتك هل تُحبّينني أم لا؟ ليس صحيحًا أن تتصرّفي معي هكذا وتفرّي منّي كلّما رأيتني! ربما أنّك تريدين شخصًا آخر؟!**».

«**آه، لا، لا... ما هذا الكلام! أنا لا أُحبّ أحدًا قطّ**».

ضحك، ثم قال: «**انظري، عزيزتي قدم خير، أنا أُحبّك كثيرًا، لكن هذا لا يكفي، يجب أن يكون الحبّ والعشق عند كلا الطرفين، لا أريد منك أن ترضخي للزواج عن غير رضى، إن أخبرتني بأنّك لا تُحبّينني، أعدك أن أُنهي كلّ شيء من دون أي مشكلة أو ضجّة**».

بما أنّ صمد كان يقف أمامي، استطعت أن أرى شبحه في الظلام الدامس. كنت واقفة،

وقد اتكأت على الفراش، قلت بصوت خافت: «**أنا لا أُحبّ أحدًا، لكنّني أخجل منك فقط**».

تنفّس الصعداء وقال: «**هل تُحبّينني أم لا؟**» لم أجب. قال: «**أعرف أنّك فتاة عفيفة وأنا أحبّ منك هذا الحياء والنجابة، لكن ليس هناك مشكلة لو تحدّثنا معًا. إذا جعلك الله من نصيبي فسوف نعيش معًا طوال حياتنا. قولي هل تُحبّينني أو لا؟**».

لم أردّ. قال: «**أحلّفكِ بأبيك الحاج أن تجيبيني. هل تُحبّينني؟**».

أجبت بصوت خافت: «**نعم**».

كأنّه كان ينتظر منّي هذه الكلمة، فبدأ يسترسل في الحديث ويُعلن عن حبّه وإعجابه بي. وقال: «**سأنهي خدمة العلم قريبًا، أُريد أن أجد عملًا، ثم أشتري قطعة أرض وأبني بيتًا. أحتاجك بقربي في كلّ هذه الخطوات يا قدم خير! أُريدك أن تكوني سندي وعوني**». ثم واصل كلامه عن معتقداته وعبّر عن رضاه وسروره بأنّ فتاة مؤمنة ومحجّبة مثلي أضحت من نصيبه.

كان حديثه جميلًا ومريحًا كما كان جديدًا بالنسبة لي. أحسست تلك الليلة أنّه لا يوجد في القرية رجل مثل صمد يقول لزوجته: «**أُريدك أن تكوني سندًا لي**».

كنت أستمع إليه وأتكلّم أحيانًا. طال كلامنا بضع ساعات، تناولنا خلالها صنوف الأحاديث، تحدّث عن الذكريات الماضية، عن هروبي منه وعن شوقه لرؤيتي، عن أنّه لطالما كان يأتي إلى بيتنا آملًا رؤيتي، لكنّني كنت في كلّ مرّة أستقبله بالبرودة وعدم الاكتراث.

التفت إليّ بعد كلّ هذا الحديث وكأنّه تذكّر شيئًا: «**كأنّك أتيت إلى هنا لتأخذي الفراش!**»

كان محقًّا! ضحكت وأخذت البطانية وذهبت إلى الغرفة حيث كنّا مجتمعين، وجدت خديجة نائمة من دون لحاف ووسادة، بينما تجلس الأخريات في الفناء.

كانت عقارب الساعة قاربت الرابعة فجرًا. خرج صمد إلى الفناء، شكر الجميع وقال: «**أشكركنّ جميعًا. لقد ارتاح بالي الليلة، سأصبّ جهدي من الآن فصاعدًا على العرس**».

رافقته عندما خرج، وكانت هذه المرة الأولى التي أُرافقه فيها إلى الباب.

الفصل الخامس

عقد القران

فــي العادة كانت حفــلات الزفاف في القرية تُقام في فصــل الخريف بعد الانتهاء من مواسم الحصاد.

فــي الرابع عشر مــن شهر كانون الأول سنة 1977م، جهّزنا أنفسنا للذهاب إلى «**دمق**» لعقــد القــران، حيث كانت في ذلك الوقت مركز القضاء. جــاء صمد مع والده إلى منزلنا، ارتديت العباءة، ودّعتني أمي عند الباب، قبّلت وجهي وقرأت في أُذُني الدعاء، ثمّ انطلقت مــع أبي. جلســتُ خلف أبي على درّاجته النارية، وكذا ركب صمــد خلف والده. حضرنا إلى مكتــب الــزواج الوحيد في «**دمــق**». كان مسؤول المكتب رجلاً كبير الســنّ، لطيف المعشر. طلب منّا بطاقة الهوية ثم بدأ يتحدّث إلى صمد ممازحًا: «**اذهب واحمد الله على أنّ هوية العروس ليس عليها صورة ولن أستطيع عقد قرانكما، هيّا اذهب واستغل الفرصة وانجُ بنفسك**».

فــي البداية، اعتبرنا كلامه مجــرّد مزاح فضحكنا، لكنّنا أدركنا فيمــا بعد أنّه فعلًا لا يجــري العقــد بهوية لا صورة عليها، أزعجنا هذا الأمر إذ لم يكــن لدينا خيار سوى العودة إلــى قايش. تعجّب الجميع من عودتنا السريعة، فأخبرناهم بما جرى معنا. تركنا الدرّاجة في البيت وانطلقنا إلى همدان بالحافلة. وصلنا إلى هناك بعد الظهر. قال أبو صمد: «**من الأفضل أن نذهب ونلتقط صورة شمسية أولاً**».

التقينــا هنــاك مصوّرًا جوّالًا. توجّه والد صمد إلى المصــوّر، وطلب منه تصويري، ثم وقــف المصوّر خلف الكاميرا ذات القوائم الثلاث، ووضع غطاء الكاميرا القماشي الأسود على رأسه وأشار بيده لأنظر في الاتّجاه الذي حدّده.

جلســت أنظــر إلى يد المصــوّر من دون حركة. بعــد لحظات خرج المصــوِّر من خلف الستار قائلًا: «**ستكون الصور جاهزة بعد نصف ساعة**».

جُلنا في الميدان قليلًا إلى أن تمكّن المصوّر من تظهير الصورة، أخذها والد صمد وأعطانيها. كانت الصور غير موفّقة، ظهرتُ فيها قبيحة الهيئة. نظرت إلى أبي وقلت: «**حاج! هل أنا بهذا القبح؟!**» بدت ملامح عدم الرضى على وجه أبي وقال للمصوّر: «**ما هذه الصورة يا رجل! إنّها لا تُشبه ابنتي!**».

لم يُجب المصوّر وانشغل بعدّ المبلغ الذي استلمه. تدخّل والد صمد قائلًا: «**بل على العكس، تبدو عروستي جميلة جدًا، لا يوجد مشكلة**».

وضعت الصور في حقيبتي وذهبنا إلى منزل أحد أصدقاء والد صمد لنبيت الليلة عندهم. غداة ذلك اليوم، ذهب أبي إلى مركز القضاء لوضع الصورة على بطاقة الهوية، ثم عاد وذهبنا جميعًا إلى مكتب الزواج لعقد القران.

أخذ المسؤول عن إجراء العقد بطاقة هويّتي وسأل والدي عن المهر، ثم التفت إليّ وقال: «**آنسة قدم خير محمدي كنعان! هل ترضين بوكالتي عنك على أن أزوجك بفلان ابن فلان مقابل نسخة من المصحف الشريف ومهر قدره عشرة آلاف تومان...**«**لم أكن أسمع بقية كلام العاقد. كنت أشعر بالقلق. نظرت إلى أبي؛ وقد ارتسمت بسمة على وجهه، هزّ رأسه في إشارة لإعطائي الإذن، فقلت: «بعد إذن أبي، نعم!**».

وضع رئيس الدائرة دفترًا كبيرًا أمامنا لنوقّع أنا وصمد عليه، وبما أنّني كنت أميّة، بصمتُ على الدفتر، بينما وقّع صمد عليه.

عندما خرجنا من المكتب، خالجني شعور غريب. أحسست أنّ هناك شيئاً أو شخصاً يريد أن يفرّق بيني وبين والدي، فغمرتني رغبة بالبكاء. التصقت بأبي، لم أفارقه لحظة. كان الوقت قد اقترب من الظهر ويشير إلى موعد الغداء. ذهبنا إلى مطعم تقليدي حيث طلب أبو صمد ديزي[1]. جلست بجانب أبي رغم أنّ صمد كان يشير لي ومن دون أن يلفت الأنظار كي أجلس بقربه. لم أكترث له وحاولت أن أبدو كأنّني لا أفهم ما يريد. كان صمد منهمكًا بنا ولا يقدر على البقاء في مكانه، فراح يسير جيئة وذهابًا ليعود ويقف أمام طاولتنا ويسألنا: «**هل أنتم بحاجة إلى شيء؟**».

(1) قِدر صغير يحوي وجبةً من مرق اللحم والحمص والبندورة لشخص واحد، حيث يُطهى ويُقدّم في القدر نفسه.

وأخيراً احتدّ أبوه وقال: «**لا ينقصنا شيء سواك! تعال واجلس معنا!**» .

أحضَـروا الطعام. لم أعرف كيف أتناول الغداء أمام صمد وأبيه، في حين كنت جائعة جـدًّا. لم يكن بيدي حيلة، قرّرت أن لا أُشغل بالـي بالحضور، فأحكمتُ عباءتي على وجهي وتناولت الغداء حتى آخره. كان مرق اللحم لذيذًا جدًا. بعد الغداء مباشرة، ركبنا الحافلة وانطلقنـا إلى القرية. هذه المرة أيضًا، أشار صمد أن أجلس قربه، لكنّي أدرت وجهي عنه نحو والدي وقلت بصوت خافت: «**حاج! أُريد أن أجلس قربك**».

جلست بجانب الشبـاك وجلس والدي قربي. كنت أعرف أنّ صمد منزعج، ففضّلت أن لا ألتفت ناحيته، حيث كان يجلس مع أبيه في المقعد المجاور لنا.

عنـد وصولنا إلى قايش، وجدنا الجميـع بانتظارنا: أخواتي، زوجـات إخوتي وأقاربي، كانوا قد تجمّعوا في بيتنا. لمّا رأوني هرولوا إليّ يهنئونني ويُقبّلون وجهي وعينيّ.

رافقَنا صمد وأبوه إلى باب المنزل ثم ودّعانا وانصرفا.

بعد ذهاب صمد، أدركت كم أنّ قلبي مشغوف به، كنت قد ألفْتُ حضوره في هذه الفترة القصيـرة التـي قضيناها معًا. تمنّيت أن يكون حاضرًا ويبقـى بجانبي. بقيت حتى المساء أرقب فتح الباب ودخول صمد، لكنّه لم يأت!

فـي صبـاح اليوم التالي، عندما جلسـت حول مائدة الفطور، راودنـي شعور مزعج، إذ شعـرت بالخجل من والدي. أنـا الفتاة التي كانت تجلس في حضن أبيها تتناول الطعام من يـده، ها هي الآن تشعر بفاصل كبير بينهـا وبينه. لم يتكلّم والدي بكلمة، استغرق بالتفكير مطرقًا رأسه وهو يتناول طعام الفطور.

لـم يطـل الوقت حتى غـادر أبي المنزل. وبعـد دقائق، سمعت صوت أمـي تُناديني من الفناء: «**قدم خير! تعالي.. السيد صمد هنا!**».

لم أنتبه كيف نزلت عن الدرج لأصل إلى فناء الدار، كنت أنتعل نعلين مختلفين. ألفيته في الفناء وهو مرتديًا زيّه العسكري حاملًا حقيبته بيده. لأوّل مرّة سبقته بالسلام. ضحك وقال: «**هل أنت بخير؟**».

لـم أكن بخيـر، كنت قد اشتقت إليه في هذه الفترة القصيـرة. قال: «**أريد العودة إلى الثكنة، لأنّ مأذونيّتي على وشك الانتهاء. لا أظنّ أنّنا سنلتقي قبل موعد العرس، انتبهي لنفسك**».

انهمـرت دموعـي على خديّ وبلّلـت وجهي. لم أرغـب أن يراني أحد علـى تلك الحال. أسرعـت نحو الحديقة وجلست تحت الشجرة حيـث التقيت بصمد أوّل مرة بعد الخطوبة، وأخذت بالبكاء.

غداة ذلك اليوم، بدأت مراسم ما قبل العرس (نقل جهاز العروس، تهيئة العروس و..) تُنفّذ الواحد تلو الآخر.

كان أبي قد حضّر لي جهازًا كاملًا ولم ينسَ شيئًا؛ طقم صحون صينيًّا لستة أشخاص، فراشيـن للنوم مع الأدثرة، موقد «**علاء الدين**» النفطي، سجّادة، ماكينة خياطة وأغراض المطبخ.

ذات يـوم، ووسط أجواء مفعمة بالسـرور والفرح، اجتمع الأقـارب ليضعوا الجهاز في الشاحنـة الصغيرة، ثـم أخذوه إلى منزل والـد زوجي ووضّبوا الأغراض فـي الغرفة التي كانت قد خُصّصت لنا.

الفصل السادس

الحياة الزوجيّة

عاد صمد من الثكنة قبل موعد العرس بيوم، وظلّ يتردّد إلى منزلنا حتى منتصف الليل بذرائع مختلفة.

غداة ذلك اليوم، جاء أخي إيمان بشاحنته (بيك أب) الحمراء اللون الجديدة، ليقلّني بها إلى بيت صمد. ركبت السيارة بينما جلست خديجة زوجة إيمان بجانبي. أطرقتُ رأسي، لكنّني كنت أستطيع رؤية ما يجري حولي من خلال المنديل الأحمر المشبّك الذي يُغطّي وجهي. بينما عبّر الأطفال عن فرحهم وراحوا يركضون ويصرخون بجانب السيارة، وتجمّع بعضهم خلفها وقفزوا عليها، ما جعلها تهتزّ بشدّة. جعلَنا هذا المشهد نتخيّل أنّ كلّ أولاد الضيعة قد تجمّعوا معنا في السيارة. كان المسكين أخي قلقًا على سيارته الجديدة ويقول: «**ستفرغ دواليب السيارة من الهواء!**».

لا يفصل بين بيتنا وبيت صمد سوى بضعة أزقة.

بينما كنّا في السيارة، جاءت أمي مسرعة تسأل عنّي، حيث لم تنتبه أنّي صعدتُ إليها. أنزلتني بعطف وحنان ثم حملت القرآن لأعبر من تحته، مصحوبة بالدعاء وصلوات الحاضرين.

لم يكن من المتعارف عليه في القرية أن يُشارك والد العروس في حفل زفاف ابنته إلا أنّني كنت أتمنّى في تلك اللحظات الأخيرة رؤية والدي.

جاءت خديجة لتساعدني على ركوب السيارة مرّة أخرى بينما كنّا؛ أنا وشيرين جان؛ قد استرسلنا في البكاء ولا نريد أن نفترق عن بعضنا. تأثّرت خديجة بهذا المشهد وأخذت تبكي معنا.

وأخيرًا، انطلقت السيارة وافترقنا. كنّا نبكي أنا وخديجة؛ إلى أن وصلنا إلى بيت صمد، حيث يترقّب أهل العريس وأقاربه وصولنا محتشدين أمام الباب، لمّا رأونا، جاؤوا نحونا

وفتحـوا باب السيـارة ليأخذوا بيدي وينزلوني منها. في تلك الأثنـاء، كانت أصوات الناس تعلو بالصلوات بينما تفوح رائحة البخور في الزقاق. بدأ أحد أقربائهم ينشد بعض المدائح والأشعار عن الرسول ﷺ بصوته العذب والناس يُردّدون معه الصلوات على النبيّ وآله.

كان صمد قد توجّه مع خاصة رفاقه نحو سطح المنزل وأخذوا يرشقوننا بحبّات السكّر والرمّـان. وكنت أترقّب في كلّ لحظـة أن يُصيبني أو يقع على رأسي شيء منها، لكنّ صمد لم يطاوعه قلبه أن يرمي شيئًا نحوي.

استمرّت مراسم العرس بتقديم الغداء للضيوف، إلى أن انصرفوا في المساء ولم يبق في البيت إلا خاصّة الأقارب الذين انشغلوا بإعداد طعام العشاء.

بقينا أنا وصمد يومين في الغرفة، لم نخرج منها خجلًا. كانت أمّه تعدّ وجبات الفطور والغـداء والعشـاء تضعها في صينية خلـف باب الغرفة وتُخبرنا بذلك كـي نأخذها، ونحن نبقى نترقّب خلو المكان لنفتح الباب، ندخل الصينيّة ونتناول الطعام.

كان من المتعارف عليه في القرية أن تذهب أسرة العريس في الليلة الثانية لزيارة أهل العروس. كنت على أهبة الاستعداد منذ العصر. ارتديت ملابسي وجلست في زاوية الغرفة أنتظـر بفارغ الصبر. أردت بذلك أن يُـدرك الجميع مدى شوقي لرؤية والدي فلا يتأخّرون في الخروج من المنزل.

وأخيرًا، انطلقنا بعد تناول العشاء.

كـدت أطيـر فرحًا، أردت أن أسرع فـي المشي لأصل قبلهم. فكنـت أسابق الجميع في الطريق، وكان صمد يلحق بي ويشدّ عباءتي ليفهمني أن أخفّف سرعتي.

كنت أتحرّق شوقًا للوصول إلى منزل والدي. ما إن رأيته حتى ألقيت بنفسي في حضنه وأخـذت أقبّلـه كما كنت أفعل دائمًـا. قبّلت عينيه، ثم خدّه الأيمـن والأيسر، حتى لم أترك أنفه وأُذُنيه. كانت أمي واقفة إلى جانبنا، تنظر إليّ والدمعة تجري من عينيها وهي تتمتم: «**لا خيّب الله آمالك يا أجمل فتاة!**».

كان صمـد وأسرته ينظرون إليّ باستغراب، فليس في القرية فتاةٌ تتصرّف مثلي؛ تقبّل أبيهـا أمـام الآخرين وبهـذا النحو! كان شعوري خـلال فترة مكوثنا في منـزل أبي مختلفًا تمامًـا، شعرت بأنّنـي ولدت من جديد. جلسـت بجانب والدي طوال الوقـت، آخذة بيديه، أضعهما على عينيّ وأقبّلهما، أو أجلس قرب أمي أحتضنها وأُحادثها.

انتهـى الوقت وحان موعد الذهاب. صعُبَ عليّ أن أُفـارق والديّ. ودّعتهما عدّة مرّات، وفـي كلّ مرّة كنت أعود إليهما بحجّة وذريعة، كنت أكـرّر لأمي وصاياي للاهتمام بوالدي: «**اعتني بأبي، لقد أودعته أمانة عندك**».

وفـي طريق العودة، كنت أمشي بخطوات بطيئـة، فتأخّرت عن الجميع، لأذرف الدموع بعيدًا عن نظراتهم.

لـم يكـن صمد يتكلّـم. كان يمشي بحذر ويُراقبني كـي لا أقع في حفـر الأزقة الترابية الضيّقة.

فـي اليوم الثالث من زواجي، كان على صمد أن يُغادر المنزل متّجهًا إلى الثكنة. أصبح المنـزل بعد ذهابه كالسجن بالنسبة لي. وبما أنّ أم صمد كانت حاملًا، أصبحت مضطرة أن أغسـل الصحـون، وأكنـس وأعدّ العجيـن لعشرة أو اثنـي عشر شخصًا، فـي حين أنّي لـم أعتـد على ذلك كلّـه ولم أكن قد عملت في بيـت والديّ قطّ. كانت يـداي أصغر من أن تُساعداني على إعداد العجين بمهارة.

حـلّ شهـر تشرين الثاني. بـدأ الطقس يبـرد شيئًا فشيئًـا، وتتساقـط أوراق الأشجار الصفراء اليابسة على الأرض، ما يجبرني على كنس الفناء يوميًا وفي ذلك الطقس البارد لبضع ساعات.

كان قـد مضـى أسبوعان على زواجنـا. ذات يوم، أرادت والدة صمـد أن تذهب لزيارة ابنتها، فطلبت منّي أن أعدّ طعام العشاء.

كنـت قد جرّبت، خـلال الأسبوعيـن الماضيين، كلّ أعمـال المنـزل باستثناء الطهو. لكـن لم يكن باليد حيلـة. ذهبت إلى المطبخ الذي يقع في إحدى غرف المنزل من الطابق الأرضـي، أشعلـت النار، ثم وضعت الماء في القدر لتغلي. وبما أنّ شعلة «**بابور الكاز**» كانت تخـفّ وتـزداد، كنت مضطرة أن أقف بجانبها أراقب النـار وأضغط منفخة البابور حتى لا تنطفئ الشعلة. أخيرًا غلى الماء وسكبت فيه الأرز الذي كنت قد نظّفته وغسّلته من قبل.

كانـت يداي قـد تخدّرتا من شدّة الاضطراب، إذ لم أكن أعـرف متى ينضج الأرزّ. في تلـك الأثنـاء، وصلت «**كبرى**» أخت صمد وأنقذتني. كنت أدعـو الله أن يكون الأرزّ قد طبخ جيـدًا وبذلـك أحفظ ماء وجهي. بعد مضيّ بعض الوقت من غلـي الأرزّ قالت كبرى: «**حان الوقت، هيّا لنرفع الأرزّ عن النار**».

تعاونّـا على رفع القدر، وسكبنا الأرزّ في المصفاة لتصفيته من الماء، ثم وضعناه على نار خفيفة ليكتمل طبخه وانشغلنا بعد ذلك بقلي البطاطا واللحم والبصل كي نضعها وسط الأرزّ في النهاية.

عندما اجتمعت الأسرة في المنزل للعشاء، قدّمت لهم الطعام ولم أجرؤ على البقاء في الغرفـة لشـدّة قلقي، بقيت في المطبخ أجلس في الزاوية وأدعـو الله. إلى أن نادتني كبرى فاضطررت لتلبية ندائها ومشاركتهم الطعام.

جلست أم صمد في مقدمة المائدة التي تتوسّطها أطباق الأرز الفارغة. كانوا يتناولون الطعام ويقولون: «**يا له من طعام لذيذ!**».

فـي الصباح، أتـت إحدى الجارات لزيـارة والدة زوجي. كنت أكنـس الفناء وفي نفس الوقـت أسمع حديثهما حيث أثنت أم صمد على مهارتي في الطبخ وقالت: «**ليتكم البارحة كنتـم معنـا وجرّبتم الطعام الذي حضّرته لنا قدم خير! إنّها ماهرةٌ في الطبخ، وهذا ما كنّا نتوقّعه منها، فهي ابنة شيرين جان!**».

كانت هذه أوّل مرّة أشعر فيها بالارتياح في ذلك البيت الجديد.

الفصل السابع

ولادة التوأم

مضـى شهران على زواجنا. كان قد اقترب موعد وضـع أم صمد مولودها، وكنّا ننتظر بدء آلام المخاض في أي لحظة.

أنهيـت أعمـال المنزل في المساء، وتوجّهت إلى غرفتي لآخـذ قسطًا من الراحة، فإذا بكبرى تفتح باب غرفتي وهي مرتبكة جدًا: «**أسرعي قدم خير، انهضي، حالة أمي سيئة**».

نهضـتُ وأسرعتُ نحو غرفة والدة زوجي. رأيتها تتلوّى من شدّة الألم. كنتُ مرتبكة ولا أعرف ماذا أفعل، قلت: «**فلتذهب إحداكنّ وتُخبر القابلة!**».

تذكّرت ماذا كانت تفعل «**شيرين جان**» عند مجيء مخاض أخواتي ونساء إخوتي. أتيت بمساعدة أخوات زوجي بسماور[1] كبير وضعناه في زاوية الغرفة وأوقدنا تحته النار.

عندمـا كانت الآلام تخـفّ عنها، كانت تُعطي توجيهاتها في بعض الأمور، مثل أنّها قد وضعت ملابس المولود والأقمشة اللازمة التي هيّأتها لهذا اليوم في الخزانة، وأيضًا كانت هناك بعض الأوعية والأقمشة النظيفة تحت درج الفناء. كنّا أنا وأخوات زوجي نركض من مكان إلى آخر ونُهيّئ ما يلزم.

وصلت القابلة أخيرًا. لم يُطاوعني قلبي أن أرى أمّ زوجي على تلك الحال. أدرت ظهري وتظاهرت بأنّني مشغولة بمراقبة النار تحت السماور لأرى إذا سخن الماء جيّدًا أم لا.

كنت أبكي وأدعو لها كلّما صرخت. بعد قليل، علا صراخها وتبعه صراخ المولود الجديد.

فجـأة نهضت النسـاء اللواتي كنّ جالسات حولهـا من فرحتهنّ. لفّـت القابلة المولود بقطعـة من القماش الأبيض وسلّمته إلى النسـاء. عمّت الفرحة الجميـع وتنفّست النساء الحاضـرات الصعداء بعد لحظات صعبة حبسن خلالها أنفاسهنّ. لكنّني بقيت جالسة في

---

(1) قدر كبير يُملأ بالماء أو أي شيء آخر يُراد تسخينه.

زاوية الغرفة. جاءت شقيقة صمد إليّ وقالت: «**قدم خير! املئي الطشت بالماء**».

أتت أخت صمد الصغيرة لمساعدتي وحين كنّا ننتظر ليمتلئ الطشت بالماء قالت لي: «**تعالي لتري أخا زوجك كم هو رائع**».

مـا إن امتـلأ الطشت بالماء حتى أخذناه ووضعناه أمـام القابلة. كانت النسوة يمزحن بصـوت عال وانشغلن عن أم صمـد التي كانت ما تزال تتألّم. غضبـت القابلة وقالت: «**ما خطبكـنّ؟! اصمتـن! لا يصحّ إحداث ضجّة فوق رأس القابلة. دعوني أُنهي عملي، إنّهما توأم!**».

احتبست الأنفاس من جديد وساد الصمت. حاولت القابلة إخراج المولود الثاني. كنت واقفـة بجانبها فقالت لي: «**اطلبي منهـم أن يحضروا سيارة، يجب نقلها إلى المدينة. لا أستطيع مساعدتها بشيء**». ركضت نحو الفناء. كان والد صمد جالسًا على الدرج، شاحب الوجه. نظر إليّ بتعجّب؛ قلت وأنا أخطف أنفاسي: «**هما توأم، أحدهما قد ولد، لكنّ الثاني لم يولد بعد، يجب نقلها إلى المدينة، أحضروا سيارة على الفور**».

نهضـ والد صمـد وضرب بيديه على رأسـه وقال: «**يا حسين!**» ثم ركضـ متوجّهاً إلى الشارع.

وبعـد لحظات قليلة، كانت سيارة أخي عند الباب. ساعد عدد من الحاضرين في حمل أم صمد، التي كانت فاقدة الوعي تقريبًا من شدّة الألم، إلى السيارة.

قال أخي: «**نأخذها إلى رزن**».

رافقـت بعض النسـوة أم صمد، بينما بقيـت أنا وكبرى والمولود الـذي كان يبكي منذ ولادته في المنزل.

كنّـا مرتبكتيـن ولا نعلم مـا علينا فعله لهـذا المولـود. ألبسته كبرى ثوبًـا ووضعته في البطّانية ثم دفعته إليّ وقالت: «**احملي أنت المولود وأنا سأحضر له الماء والسكّر**».

تهيّبتُ حمل الطفل وقلت لها: «**لا، بل احمليه أنت وسأحضر أنا الماء والسكّر**».

لـم أنتظر ردّ كبرى، ذهبتُ نحو السمـاور، وضعتُ الكوب تحته ووضعت السكّر فيه. لم يكـن صوت بكاء الطفل ينقطع للحظة. كان السماور يغلي ويتصاعد بخاره. خطر ببالي أنّه مـن الأفضـل أن أُطفئ النار تحته، لكن لم يتسنّ لي القيام بذلك، فقد كاد الطفل أن يهلك من شدّة البكاء.

أحضـرت الكوب إلى كبرى التـي حاولت أن تسقي المولود منـه بالملعقة ولكن المولود لـم يكـن يستطيع تناوله. كان يفتح فمـه محاولًا الرضاعة ... لكـنّ الملعقة المعدنية كانت تصطدم بشفتيه وتؤذيه فيشتدّ بكاؤه.

فـي تلك الليلة، استطاعت أم صمد إنجاب المولود الثاني في مستشفى رزن. كانت بنتًا هـذه المرة. وفي الصبـاح، أحضروهما إلى المنزل. لم تكد أم صمـد تجلس في الفراش، حتـى وضعنـا الصبيّ في حضنها كـي تُرضعه. بدأ الطفل يرضع بلهفـة ونهم ونحن أخذنا نبكي فرحًا لرؤيته.

أدخلـت ولادة التوأم لونًا جديدًا في حياتنا. كنت مسرورة بهذا الوضع. فقد كنت أشعر بالوحشـة لأنّ صمد كان منشغـلًا بالخدمة العسكرية، كان يحضر إلـى المنزل بين أسبوع وآخـر، لكـن بعد قدوم التوأم، ازدادت الزيارات إلى منزلنا وكثـرت أعمالي إلى حدّ أنّه لم يبق لديّ وقت للتفكير بصمد.

كنـت طوال اليـوم مشغولة باستقبال الضيـوف وغسل الصحون وكنـس الفناء وإعداد الطعام. وفي الليل، كنت أنام ملء جفوني من شدّة التعب والإنهاك من دون أن أُفكّر بشيء.

عـاد صمـد إلى المنـزل بعد عدّة أسابيـع، ما إن وقـع نظره عليّ حتى بـدأت علامات الاستغراب على وجهه وقال: «**عزيزتي قدم خير، لقد نحفتِ كثيرًا، هل أنت مريضة؟**».

ضحكت وأجبت: «**هذا نتيجة انشغالي بأخويك التوأم!**».

لـم أكـن جادّة في هذا الـكلام، إنّما كنت أمـزح. كنت مستعدّة لأواجـه صعوبات أكثر وأتفانى على أن يكون زوجي بجانبي.

عندمـا كان صمـد يخـرج من المنـزل لعملٍ مـا، كان لا يقرّ لـي قرار، وتبقـى عيناي مسمّرتين على الباب حتى يعود.

كنت أقول له: «**ألا يُمكنك أن تبقى هذين اليومين في المنزل ولا تخرج؟**» فيردّ عليّ: «**هناك بعض الأعمال التي يجب أن أُنجزها**».

كنـت أشتـاق إليه كثيرًا، الأمر الذي جعل صمد يوجّه إلـيّ سؤالًا: «**قدم خير، قولي لي لمـاذا تريديـن أن أبقـى بجانبك؟**» كان يُحبّ أن يسمع منّي أنّـي أُحبّه وأشتاق إليه، أما أنا فكنت أطرق رأسي خجلًا وأهرب من الجواب.

كان يحـاول أن يقضي أوقاتًا أكثر إلى جانبي، لكنّه كان يقول: «**من العيب أن أُساعدك**

في أعمال المنزل بوجود والديّ، لكنّي أعدك عندما نذهب إلى منزلنا الخاص سأُساعدك في جميع الأعمال».

يحدث أحيانًا أن يجلس بجانبي ويطلب منّي: «**تحدّثي معي وأنت تقومين بعملك، وأنا أجلس هنا أنظر إليك**». فأقول له: «**بل تكلّم أنت!**» ولكنّه يردّ: «**لا، تكلّمي أنت، أحبّ أن أسمع حديثك، عساني أتذكّره أثناء الخدمة فيخفّ شوقي إليك**».

كان صمد يذهب ويعود وأملي معلّقًا على نهاية خدمته. وبانتظار بناء حياتنا كنت أحاول تحمّل كلّ شيء.

كان التوأمان يكبران يومًا بعد يوم، وكلّما خرجنا من المنزل، كان حملُ أحدهما من نصيبي. كنت في أغلب الأوقات أحمل «**حميد**»، لأنّني كنت أشعر بشيء ما تجاهه بسبب أحداث ليلة الولادة وبكائه حتى الصباح، كنت أشعر تجاهه بعاطفة الأمومة.

عندما كان الناس يرونني أحمل الطفل، كانوا يُمازحونني قائلين: «**مبروك! أنجبت ونحن لا نعلم!**».

بعد مضيّ شهر، استعادت أم صمد عافيتها وعادت الأمور إلى ما كانت عليه. كانت تستيقظ في الصباح الباكر لتخبز العجين، وكنت أستيقظ قبلها وأشعل التنّور وأجهّزه ثم أبقى بانتظارها كي أكون بجانبها وقت الخَبز.

تعوّدت خلال هذا العمل أن أصحو باكرًا، لكن يحدث أحيانًا أن يغلب عليّ النوم وأستيقظ متأخّرة عنها، حينها كانت تُشعل هي التنّور وتنشغل بتحضير الخبز بمفردها. أمّا أنا فأبقى في الغرفة ومن شدّة الخجل لا أجرؤ على الخروج. لذلك كنت كلّما أصحو وقبل أن أقوم بأيّ عمل، أرفع طرف ستار نافذة غرفتي لألقي نظرة إلى مدخنة التنّور، فإذا رأيت الدخان لا يخرج منها أعرف أنّي استيقظت قبلها، وإذا كان الدخان ظاهرًا أندب حظّي.

الفصل الثامن

صمد في طهران

أوشـك الشتـاء على الانتهاء، ومع أنّنا أصبحنا في منتصـف شهر آذار إلا أنّ الثلوج لم تكن قد ذابت بعد، وقد امتزج الثلج في أزقة القرية بالطين والوحل وبقايا الرماد.

كانـت النساء منشغلات فـي تنظيف المنازل وغسل الملابس والسجـاد[1]. كنّا ننظّف النوافـذ يوميًّـا، لكن عند المسـاء تمتلئ السماء بالغيـوم وفي منتصف الليـل تهبّ الرياح وترعد السماء ويهطل المطر فيذهب تعبنا هباءً منثورًا.

لـم يكـن يفصلنا عن العيد سوى بضعـة أسابيع وتنتهي خدمة صمـد العسكرية أيضًا. كنـت أعتبر نفسي أسعد نساء قايش، صرت أنظّف المنزل برمّته من الصباح حتى المساء برضى ومحبّة بالغين، وأقول في نفسي: «**لا بأس، فهذا العيد أجمل عيد في حياتي؛ صمد إلى جانبي، وبالتأكيد نُسرّ ونستمتع بهذا الترتيب والنظافة**».

كان صمـد قد عاد وبدأ يبحث عن عمل. فهو قليلًا ما يكون في المنزل، كان يذهب إلى رزن للبحث عن عمل مناسب.

ذات صبـاح، استيقظنا باكرًا وبعد تناول الفطور طرقت أم صمد الباب وضعت التوأم في غرفتنـا وقالـت لصمد: «**أريد اليـوم الذهاب إلى منـزل أختك شهلا، لديهـا بعض الأعمال وأريـد أن أساعدهـا، سيربكنا وجود الأطفال، اهتمّا بهمـا**». عند مغادرتها الغرفة التفتت إليّ وقالت: «**قدم خير، الغرفة المجاورة متّسخة كثيرًا، نظّفيها**».

كان صمـد قـد ارتـدى ملابسه واستعـدّ للخروج. لكنّه أخـذ يفكّر قليلًا ثـم قال: «**هل تستطيعين القيام بتنظيف المنزل وفي الوقت نفسه الاهتمام بالطفلين؟!**» رفعت كتفيّ وبشكل لا إرادي، ظهر على وجهي علامة الإستياء، لكنّي لم أنبس بكلمة. تابع صمد كلامه:

---

(1) موسم «تنظيف» المنازل.

«**لا، لا يُمكنك أن تنجزي العملين معًا**». عندها، خلع المعطف وقال: «**أنا أُراقب الطفلين وأنت اذهبي ونظّفي الغرف، وعندما تنتهين أذهب**».

فكّرت في أن أترك صمد مع أخويه في غرفتنا وأبدأ العمل باكرًا قبل أن يستيقظا. فذهبت إلى الغرفة وفتحت نوافذها، رفعت «**منضدة التدفئة**»[1] من جوانبها الأربعة، ثم قمت برفع الفراش عن الأرض ووضعت عليه الشراشف النظيفة. ما إن أمسكت بالمكنسة حتى ارتفع صوت التوأم بالبكاء. حاولت في البداية أن لا أكترث معتقدةً أنّ صمد سيتمكّن من إسكاتهما، لكن بعد ذلك سمعتُ صوت صمد أيضًا: «**قدم خير، قدم خير، تعالي وانظري إلى الطفلين ما خطبهما!**».

رميت المكنسة من يدي وأسرعت نحو غرفتنا في الجانب الآخر من الفناء. كانا قد استيقظا ويريدان أن يأكلا. وضعت أحدهما في حضن صمد وحملت أنا الآخر وانصرفت لتحضير الحليب لهما. أطعمناهما حتى شبعا.

استغليت الفرصة وذهبت لأكمل تنظيف الغرفة. لم أكد أنتهي من كنس نصف الغرفة حتى ارتفع صوت التوأم مرة أخرى. بالتأكيد هما بحاجة إلى تغيير الحفاضات. اضطررت للذهاب قبل أن يُنادني صمد، كان ظنّي في محلّه. انشغلت بتغيير حفاضيهما في حين كان صمد واقفًا ينظر إليّ ويقول: «**أريد أن أتعلّم كي أهتمّ بأطفالنا، في المستقبل**».

أنهيت تبديل حفاضات التوأم. ارتاح بالي وتوقّعت أنّهما سيهدآن ويخلدان إلى النوم لساعات. عدت إلى الغرفة وأمسكت المكنسة لأستأنف عملي. أغلقت فمي بمنديل لأتّقي حذرّات الغبار المتصاعد في الهواء تحت أشعة الشمس.

قرّرت وضع الفراش تحت أشعة الشمس على الشرفة ريثما أُنهي تنظيف الغرفة. لكنّ صوت الطفلين ارتفع مجدّدًا بالبكاء ومعهما صوت صمد: «**قدم خير، قدم خير! تعالي وانظري ماذا يريد هذان!**».

رميت المكنسة مجدّدًا وذهبت إلى غرفتنا. فهما قد أكلا وملابسهما جافة أيضًا، إذاً لماذا كلّ هذا الصراخ والبكاء؟! اضطررت أن أحمل أحدهما وحمل صمد الثاني وبدأنا نروح ونجيء داخل الغرفة. كنت قلقة لأجل أعمال المنزل المتوجّب عليّ إنهاؤها، وقد

(1) طاولة خشبيّة لا ترتفع عن الأرض أكثر من 50 سم، تستخدم للتدفئة؛ بحيث يوضع تحتها في الشتاء موقد الفحم وتُغطّى بلحاف كبير وتجلس العائلة حولها أو تنام بوضع الأرجل تحتها من أطرافها الأربعة.

تأخّر صمد أيضًا في الخروج، رغم ذلك كان يُطمئنني ويقول: «**سوف أساعدك بعد أن ينام الطفلان**».

أخذ الطفلان ينامان في أحضاننا ولكن كلّما أردنا أن نضعهما على الفراش بهدوء، يستيقظان ويبكيان من جديد. لمّا تعبنا من المشي في الغرفة، جلسنا ووضعناهما على قدمينا وأخذنا نهزّهما بغية أن يناما.

بدأ صمد يتحدّث عن الماضي وعن الذكريات، عن ذلك اليوم الذي رآني على درج منزل عمّ والدي؛ كان يقول: «**لقد دخلت قلبي منذ ذلك اليوم**». ثم تحدّث عن تلك الأيام حين كنت أفرّ منه، كان يوسّط يوميًا أحد الأقارب لخطبتي وكان حينذاك قد يئس من تحقيق أُمنيّته، ثم قال: «**ها أنا الآن وبعد كلّ تلك الصعوبات قد حصلت عليك، فلا بدّ أن أجعلك أسعد امرأة في قايش**».

كان صوت صمد كحداء يشنّف آذان الطفلين وعندما يتوقف عن الكلام يعاودان البكاء. رغم كلّ الجهود التي بذلناها، لم نُفلح في جعلهما ينامان، احترنا في الأمر، كلّما وضعناهما على الأرض ضجّا بالبكاء. قمت مجدّدًا بإعداد الحليب لهما، ولمّا شربا الحليب بلّلا نفسيهما ثانية، بدأت بتنظيفهما فنشطا ورغبا في اللعب.

حان وقت الظهر ولم أستطع حتى أن أُنهي كنس الغرفة، لذلك تركت التوأم عند صمد وذهبت لأعدّ الطعام، لكنّ صمد لم يكن يعرف كيف يهتم بهما وحده، ومن جانب آخر لم يكن من الممكن إخراجهما من الغرفة بسبب برودة الطقس. أخيرًا بعد عناء، تمكّنت من إعداد طعام الغداء.

عند الظهر، عاد الجميع إلى المنزل إلا أم صمد وأخته، قدّمت الطعام إلى إخوة صمد وأبيهم، وما إن أردت جمع المائدة حتى ضجّ الطفلان بالبكاء. عدت إلى نقطة الصفر واستأنفت عملي من جديد، بين إطعامهما وتغيير حفاضيهما والانشغال بإرقادهما.

حلّ الظلام، وعادت أم صمد إلى المنزل، لكنّي لم أكن قد نظّفت الغرفة ولا كنست الفناء ولا أعددت طعام العشاء ولم أغسل الصحون، ومن ناحية أخرى لم يستطع صمد مغادرة المنزل للبحث عن عمل.

تذمّرت أم صمد عندما رأت ذلك، لكنّ صمد قام ليدافع عنّي وشرح لأمّه ماذا فعل بنا الطفلان طوال اليوم، عندئذ كفّت عن التذمّر، فأعطيناها الطفلين وانفرجت أساريرنا.

في صبيحة اليوم التالي عاود صمد البحث عن العمل، وبما أنّه لم يجد عملًا في قايش اضطـر للذهاب إلى رزن، لكنّـه في النهاية جهّز حقيبته للسفر إلى طهران حين خاب أمله من إيجاد عمل في رزن أيضًا.

لـم تمضِ أيام قليلة حتى عاد وقال: «**وجـدت عملًا مناسبًا في طهران وسـوف أبدأ به في الأيـام المقبلـة، جئـت لأُطلعـك على ذلـك وأعتذر منـك لأنّي لن أقـدر أن أكـون بجانبك في العيد، ليس بيدي حيلة**».

انزعجـت كثيرًا، اعترضـت قائلة: «**طالما خطّطـت لعيد هذه السنـة، لست مضطرًا للذهاب**».

لكنّ صمد كان أكثر انزعاجًا منّي. قال: «**ليس لديّ حلّ آخر، إلى متى يتحمّل والداي مصاريفنـا؟ أصبحـت أخجل منهمـا، لم أعد أستطيع أن أجلس علـى مائدتهما. لا بدّ أن أعمل لنأكل ممّا تجنيه يداي**».

ذهب صمد وبقيت أنا بمفردي في ذلك العيد الذي كان أوّل عيد في حياتنا المشتركة. كانـت أيامًـا صعبة، في كلّ ليلة أضـع فيها رأسي على الوسادة لأنـام أغصّ بالبكاء وأحلم بصمد. كم حاولت أن أمسك نفسي عن البكاء حين أرى العروسات الأخريات كيف يذهبن مع أزواجهنّ من مكان إلى آخر يأخذن الهدايا من هذا وذاك.

انتهـى شهـر آذار وأتى نيسان، أصبح الهواء محمّلًا بعطـر الأزهار، كأنّ الله ألقى بكلّ الألوان الخضراء التي خلقها على أرض قايش.

ذات يـوم كنـت منشغلة بأعمال المنزل، عندما صاح موسـى؛ الأخ الأصغر لصمد؛ في الزقاق: «**عاد أخي صمد!**».

اندفعـت مرتبكة، ونزلت حافية القدمين عن الدرج ووصلـت إلى الفناء. أخذت الدثار الـذي كان على الحبل في وسط الفنـاء، ألقيته على رأسي وركضت نحو الزقاق. كان صمد قد عاد ضاحكًا، يحثّ خطاه حاملًا بيديه حقيبتين كبيرتين.

التقينا وسط الزقاق، وقفنا قليلًا، ترقرقت عيناه بالدموع، وأنا أيضًا خالجني الشعور ذاته إذ تجمّعت الدموع لا إراديًا في عينيّ. فجأة! انفجرنا ضاحكين وامتزجت الضحكات بالبكاء.

نسينـا أن نسلم على بعضنا، وعدنا إلى فناء الـدار. عند وصولنا أمام غرفتنا أعطاني صمد إحدى الحقيبتين وقال: «**هذه لك، خذيها إلى غرفتنا**».

اجتمع أهل المنزل في الفناء لاستقبال صمد حين علموا بعودته. بعد السلام والعناق والترحيب، دخلنا غرفة أم صمد، وضع صمد الحقيبة على الأرض، جلسنا جميعًا نسأل عن أحواله وأوضاع العمل، أخبرنا أنّه بدأ العمل في ورشة بناء غير مكتمل [كعامل باطون].

مضى بعض الوقت، فتح صمد الحقيبة ليوزّع الهدايا التي كان قد اشتراها لوالديه ولإخوته وأخواته. كانت الحقيبة تحتوي على الكثير من الهدايا من الشالات والمناديل والقمصان والسراويل والأحذية. وبما أنّ كبرى قد رأت من النافذة الحقيبة التي أعطاني إيّاها صمد، كانت تصرّ وتقول: «**قدم خير، اذهبي وأحضري حقيبتك لنرى هداياك**».

خجلت أن أُريهم الحقيبة، كنت خائفة من أن يكون بين الهدايا شيء لا يليق أن يراه إخوة صمد، لذلك قلت: «**لندعها لفرصة أخرى**». فهمت أخت صمد قصدي ولم تصرّ بعدها.

دخلنا غرفتنا. أصرّ صمد عليّ كي أفتح الحقيبة. بالفعل لم يترك شيئًا إلا واشتراه لي؛ من المناديل والتنانير والسترات وبعض الأقمشة للعباءة.. حتى المقصّ وأدوات الخياطة والصابون ومشابك الشعر، بشكل يصعب معه إغلاق الحقيبة.

قلت: «**لم هذا كلّه؟ كأنّك ذهبت للحجّ!**».

قال: «**لا شيء من قيمتك، أعرف تمامًا كم تتعبين في منزلنا، الاهتمام بعشرة أو اثني عشر شخصًا ليس عملًا سهلًا، لا أؤدي حقّك بهذه الأشياء**».

قلت: «**إنّها كثيرة فعلًا!**»، ضحك وتابع كلامه: «**أوّل يوم وصلت إلى طهران، عاهدت نفسي أن أشتري لك هديةً كلّ يوم، هناك حكاية لكلّ من هذه الأشياء، أخبريني الآن أيّ منها أعجبتك أكثر؟**».

كان كلّ ما أحضره جميلًا ومن الصعب أن أختار شيئًا وأقول هذا أجمل من ذاك، فاكتفيت بالقول: «**سلمت يداك، كلّها جميلة**». لكنّه أصرّ وقال: «**لا، أقسم عليك قولي أي منها أعجبك أكثر!**» أعدت النظر إلى الهدايا، وجدت قماشًا يليق بسروال شتويّ، كان فعلًا مختلفًا عن باقي الأغراض، فقلت: «**هذا أجملها**». نهض من شدّة فرحه وقال: «**لو تعلمين بأيّ حال كنت حينما اشتريت هذا القماش! ذلك اليوم كاد ينفد صبري من شدّة شوقي إليك فاخترت لك هذه الهدية بلهفة وحبّ مختلفين، حينها كنت مستعدًا لأن أترك كلّ شيء وآتي إليك**». ثم أطرق رأسه ليخفي عنّي عينيه الحمراوتين الممتلئتين بالدموع.

منـذ تلـك الليلة، بـدأت الدعوات للموائـد التي أُقيمـت على شرف صمـد. استضافنا الأقرباء الذين عرفوا بعودته؛ أخته شهلا، شيرين جان، الأخوات ونساء الإخوة. كان صمد يقبـل كلّ دعـوة برحابة صدر، كنّـا نسهر كلّ ليلة في منزل هذا القريـب أو ذاك الصديق، نتنـاول صنوف الأحاديث والضحكات، وعندمـا نصل إلى المنزل في وقت متأخّر من الليل يبدأ صمـد الحديث معي ويقول: «**هذه السهرات تُبعدني عنـك. فأنت تذهبين وتجلسين مـع النسـاء وأبقـى أنا مع الرجال فأُحـرم من رؤيتك وأشتاق إليك. علـيّ في هذه الأيام التـي أكـون فيهـا بجانبك، أن أُقدّرك، كي لا أنـدم على ابتعادي عنك وأقـول: لِم لم أُكثر النظر إليك، ولِم لم أُطل حديثي معك**».

لم تطل هذه السعادة أكثر من أسبوع وافترقنا في نهايته. وذهب ذات أصيل، فانزويت في الغرفة حتى المساء، أذرف الدموع بعيدًا عن أنظار الآخرين.

كنـت كلّمـا أنظر إلى أيّ زاوية من زوايا المنزل، أتذكّره؛ رائحته تفوح في كلّ مكان، لم يكـن لديّ رغبة في رؤية أحد ولا القيام بأي عمل. كنـت أترصّد أبسط شيء يُزعجني ومن أيّ شخص حتى ينهمر من مقلتيّ سيلٌ من الدموع فأشعر بالارتياح.

شعـرت بعد غياب صمد أنّني وحيدة، وحيدة جـدًا، اشتقت لأبي الحاج ولشيرين جان. تدثّـرت بالبطانيـة التي كانـت تحمل رائحة صمـد، كنت مشتاقـة إلى منزلنـا. آه.. كيف استطعـت يـا حـاج أن تدع ابنتك وحيدة هكـذا! لماذا لم تعـد تأتي لرؤيتـي؟ آه.. لماذا يا «**شيرين جان**» لا تسألين عن أحوالي؟

بقيت في تلك الليلة أبكي وأتكلّم مع نفسي تحت البطانية إلى أن غفوت.

في اليوم التالي، أصبحت أقلّ صبرًا وسريعة الانزعاج، كأنّ المحيطين بي أصبحوا غرباء عنّـي. كنـت أرغب في الذهاب إلى منـزل والدي، إلا أنّي ذهبت إلى التـوأم، بدّلت ملابسهما، وبمـا أنّ أم صمد لم تكن في المنزل أطعمتهما الحليب فناما، ثم قمت بإعداد الطعام وغسلت صحـون الليلة الماضية ونظّفت ورتّبت المنزل وأخذت التوأم إلى غرفتي. بعد الغداء بدأ عملي مـن جديد: غسل الصحون وإعـداد العشاء وكنس فناء الدار والاهتمـام بالتوأم. كنت مرهقة جدًا فغفوت أوّل المساء.

استيقظت في اليوم التالي مذعورة، كان الصبح قد انبلج. رفعت طرف الستار كالعادة، كان ظنّي في محلّه، ماذا أفعل الآن؟ لقد أصبح الخبز جاهزًا وهو الآن ينضج في التنوّر. لِم

تأخّرت في النوم؟! لِم لم أصحُ باكرًا؟ بماذا أُجيب أم صمد؟ مهما فكّرت، لم أستطع تحمّل العتاب. فارتديت عباءتي وهرولت من دون إصدار أي صوت، نحو منزل والدي.

ما إن رأيت «**شيرين جان**» في الفناء حتى اجهشت بالبكاء. كان أبي في المنزل، عندما رآني بهذه الحال سألني: «**ماذا حدث؟ من آذاك؟ هل قال لك أحد شيئًا؟ ما خطبك؟ لِم تبكين؟!**».

لم أكن قادرة على التكلّم، فقط كنت أبكي، فقد أرجعني المنزل إلى الماضي. كنت قد اشتقت إلى الأيام الماضية. لم يكن أحد يعلم حقيقة شعوري، وأنا كنت أستحي أيضًا أن أبوح بمكنونات قلبي وأخبرهم بأنّي اشتقت لزوجي ولا أستطيع احتمال الوحدة، وبما أنّ صمد ليس بجانبي الآن، أرغب أن أبقى بجانبكم.

مضى أسبوع وأنا في منزل والدي. رغم أنّ الشوق إلى صمد لم ينطفئ في داخلي، لكنّ زيارة أبي وأمي ورؤية إخوتي وأخواتي أشعرتني بشيء من الارتياح.

ذات يوم، فُتح الباب ودخل صمد. بقيت أنظر إليه بدهشة، لم أكن أُصدّق بأنّه قد عاد. في البداية ساورني شعور مقلق، حيث توقّعت أنّه سيوبّخني أو سيعاتبني على مغادرة بيتي والمجيء إلى منزل والدي، لكنّه ما إن رآني حتى علت الضحكة وجهه وبدأ يسألني عن حالي ويتحدّث عن أشواقه وكم أنّه كان قلقًا عليّ. قال: «**كان لديّ إحساس خاص بأنّ أمرًا سيئًا قد حصل، فصرت أرى أحلامًا مزعجة كلّ ليلة**».

بعد قليل جاء والداي، وأخذ صمد يتحدّث إليهما ببشاشة، ثم نظر إليّ وقال: «**قدم خير! هيا لنذهب**». قلت: «**دعنا نمضي هذه الليلة هنا**». عضّ على شفتيه وقال: «**لا، لنذهب!**».

ارتديت عباءتي، ودّعت أهلي وخرجنا من المنزل. أخذ صمد في الطريق يتكلّم معي ويضحك. وبما أنّ الخبر ينتشر بسرعة في قريتنا الصغيرة كقريتنا، كان الجميع يعلم بأنّني تركت بيتي من دون أن أودّع أحدًا وأتيت إلى منزل والدي، لذلك بدأ الناس ينظرون إلينا بتعجّب عندما رأوني مع صمد نمشي جنبًا إلى جنب نتحدّث ونضحك، وكأنّ شيئًا لم يكن. لم يتوقّع أحد أن يتصرّف هكذا، حتى إنّني ظننت أنّه لا يعلم بما جرى. حين وصلنا إلى الباب، توقّف صمد وقال بهدوء: «**حبيبتي قدم خير، أريد منك أن تتصرّفي بشكل عادي وكأنّ شيئًا لم يكن! سلّمي عليهم كما كنت تفعلين واسألي عن أحوالهم، لقد تحدّثت مع الجميع وقلت لهم بأنّني سأُعيدك وليس لأحد أن يسأل عمّا حدث، حسنًا؟**».

تنفّست الصعداء ودخلنا المنزل. قمت بما طلب منّي، وكذلك تصرّفت أم صمد وأبوه، كأنّ شيئًا لم يحدث قطّ. بعدها ذهبنا إلى غرفتنا حيث كان صمد قد وضع حقيبة الهدايا في زاويتها، فأحضرها على الفور وفتحها أمامي بسرور وقال: «**تعالي وانظري ماذا أحضرت لك!**» قلت: «**أتعبت نفسك مجدّدًا**». ضحك وقال: «**دعي المجاملات! ليس من قيمتك يا سيدتي**».

كانت الأيام الثلاثة التي بقي فيها صمد بجانبي، أجمل أيام حياتي. لم يكن يسمح أن أتحرّك من مكاني وكان يقول: «**أنت فقط اجلسي وتحدّثي إليّ، لقد اشتقت إليك**».

حللنا ضيوفًا عند الأقارب من الصباح حتى المساء، ولم نكن نعود إلى المنزل إلا من أجل النوم فقط. بدأ الأهل والأقارب والأصدقاء يتحدّثون عنّا ويقولون: «**يا لسعادتك يا قدم خير! كم يحبّك زوجك**».

أشعرني حديثهم بسعادة وفرح عميقين، لكنّ الأيام الثلاثة انقضت بسرعة البرق. في عصر ذلك اليوم حين كان من المقرّر أن يعود إلى طهران، أخذني جانبًا وقال: «**حبيبتي قدم خير، أنا ذاهب، لكن أريد أوّلًا أن أطمئن عليك. إن كنت تشعرين بالارتياح هنا ابقي، لكن إذا كنت ترغبين في الذهاب إلى منزل والدك فلا بأس بذلك، تعرفين أنّ وضعي غير مستقرّ الآن، ربما أذهب للعمل في طهران لسنة أو سنتين ولا يمكنني أخذك معي، لكن اعلمي بأنّني أبذل كلّ جهدي كي أجمع النقود وأبني منزلًا. لا مانع لديّ إن رغبت في الذهاب إلى منزل والدك، لقد تحدّثت مع والديّ وهما أيضًا لا يريان في ذلك مانعًا، الأمر يعود لك**».

تريّثت قليلًا وقلت: «**أرغب في الذهاب إلى منزل أبي الحاج، أشعر بضيق هنا**». قال من دون أي انزعاج: «**إذاً، اذهبي وهيّئي حقيبتك وأغراضك، فمن الأفضل أن أوصلك بنفسي**».

أحضرت حقيبتي. ودّعت الجميع وسط أجواء ودّيّة، وذهبنا إلى منزل والدي. سلّمني صمد إلى أهلي ثم ودّعنا وذهب.

شعرت بشيء يتحطّم بداخلي بعد مغادرة صمد، لم أعد أتحمّل غيابه، لقد أحسن التصرّف وتعامل معي بكلّ حبّ وحنان.

كنت كلّما أتذكّر حنانه وطيبته يزداد اشتياقي له. ليس من المتعارف أن يعامل الزوج زوجته هكذا في قريتنا. أصبح الناس يتحدّثون عن حسناته أينما ذهبت، فيزداد تعلّقي به

وحبّي له يومًا بعد يوم. بدا هذا الشعور وكأنّه موجود لدى صمد أيضًا، فقد عاد حينها بعد أسبوع وقال: «**قدم خير! ماذا فعلت بي؟! عندما يأتي صباح الخميس لا يهدأ قلبي وأظنّ أنّني سأموت إن لم أرك**».

في ذلك اليوم، ذهب صمد مع أخي وأحضروا أغراضنا من منزل والديه إلى إحدى غرف منزل والدي. كانت تلك الليلة الأولى التي ينام فيها صمد في منزل والدي. لم تكن من عادات أهل القرية أن ينام الصهر في منزل عمه. لذلك عندما استيقظنا في الصباح لم يخرج صمد من الغرفة خجلًا، فأخذت له الفطور والغداء إلى الغرفة. عند المساء ارتدى ثيابه وقال: «**سأذهب إلى بيتنا. اجمعي الأغراض واذهبي إلى منزل عمّي، فأنا لا أستطيع العيش هنا، أخجل من والدك**».

غداة ذلك اليوم، قصدت منزل عمّ صمد الذي توفّيت زوجته قبل عدّة سنوات وصار يعيش بمفرده. قلت له: «**عمّي العزيز، أنا وصمد بحاجة إليك، نريد أن نبقى معك لفترة. ثم أخبرته بما جرى**». استقبلنا العمّ بكلّ ودّ ورحابة صدر، أخبرت والديّ بذلك وجمعنا الأغراض بمساعدتهما وأخذناها إلى منزل العمّ. في تلك الليلة سلّمني العمّ المنزل وأعطاني المفتاح وغادر المنزل متّجهًا إلى منزل عمي والد صمد ولم يعد إلا بعد مغادرتنا.

عرفت في اليوم ذاته أنّي حامل، لكن لم أقل شيئًا لصمد بعد عدّة أيام أخبرت زوجة أخي بأمر الحمل، وهي بدورها أخبرت والدتي، ومنذ ذلك الحين لم يتركوني بمفردي لحظة.

عاد صمد بعد شهر. حينما أخبرته بحملي فرح كثيرًا، ولم يدعني أتحرّك من مكاني طوال مدّة بقائه في القرية. خلال هذه الفترة، كان صمد قد اشترى قطعة أرض من أختي بأربعمئة وخمسين تومانًا، ففرحنا لذلك كثيرًا. كان صمد يقول: «**بعد فترة سنعمل على إنجاز المبنى في طهران ولن أستلم عملًا جديدًا، بل سأعود إلى هنا لنبني منزلنا معاً**».

عاد صمد أول الصيف، وفعلًا شرعنا في بناء البيت. كان هو رئيس العمّال وأصبحت أنا عاملة عنده. انضمّ إلينا بعد فترة أخوه تيمور لمساعدتنا في البناء.

كان صيفًا حارًّا جدًّا، اقترن بشهر رمضان أيضًا. كنت أساعد صمد في البناء وأنا صائمة. ذات يوم ذهبت مع خديجة إلى الحمام العمومي[1]. ساءت حالتي بعد عودتنا،

(1) فيما مضى كان هذا المكان مشهورًا ومنتشرًا في إيران؛ وما زال في القرى والأرياف ولكن على نحوٍ قليل؛ وهو مكان مخصّص للاستحمام.

كنت قد أصبت بضربة شمس ومن شدّة العطش شارفت على الهلاك. أخذت خديجة ترشّ المـاء البارد على رأسي ووجهي لكنّـه لم يجدِ نفعًا، فبدأت تصرّ عليّ لأقطع صومي وأفطر لكنّي لم أقبل.

استلقيـت جانبًا وأنا بحالة سيئـة جدًا وخديجة ما تزال تصرّ علـيّ لأقطع صومي وأنا أمتنع، فقالت: «**سأذهب الآن وأخبر صمد ليأتي ويأخذك إلى المستشفى**».

كان صمـد مشغولًا في البناء، قلـت: «**لا، فالمسكين صائـم أيضًا، اتركيـه، سأتحسّن الآن**».

مضى بعض الوقت ولم أتحسّن، بل تدهورت حالتي أكثر. فألّحت خديجة مجدّدًا: «**هيّا اقطعي صيامك قبل أن يُصاب طفلك بمكروه**».

لم أقبل وقلت: «**سأتحسّن إذا نمت قليلا**».

قلقـت خديجة عليّ وقالت: «**كمـا تشائين! لكن غدًا ستنجبين طفـلًا مشوّهًا، عندها ستندميـن وتقولـين يا ليتني أخذت بنصيحة خديجة**». أثّر كلامها هذا في نفسي وخفت كثيرًا، لكنّي لم أقبل وقلت في نفسي: «**إذا قطعت صومي سيصبح طفلي ضعيف الإيمان**».

ازدادت حالتـي سـوءًا وأصابتني رجفة، ارتدت خديجة عباءتهـا لتذهب وتخبر صمد، فقلت لها: «**لا تُخبريه سيرتبك، حسنًا! سأفطر لكن بشرط**».

ارتاح بالها قليلًا، فسألت: «**وما الشرط؟**» قلت: «**أن تقطعي صيامك أنت أيضًا**».

حملقت خديجة فيّ وقالت بدهشة: «**ماذا أصابك؟ لمَ أفطر أنا؟!**» قلت: «**لا أعرف، إمّا أن نفطر معاً وإمّا أن نصوم معاً**».

تريّثـت خديجة قليلًا، كنت علـى وشك أن أفقد الوعي، شعـرت وكأنّ المنزل يدور من حولي، وبدأت رعشة باردة تسري في بدني. أسرعت خديجة وأحضرت بيضًا مقليًّا بالزيت البلـدي مع الخبز والخضار. ما إن شممت رائحـة البيض حتى شعرت بجوع شديد، أخذت خديجة لقمة وأعطتنيها.

كانـت يداي وقدماي ترتجفان. أخذت قطعة من الخبز ووضعت عليها شيئًا من البيض وأكلت أول لقمة ثم الثانية والثالثة..

عندمـا شبعت واسترجعت عافيتي نظـرتُ إلى خديجة ونظرت هي إلـيّ، والزيت يلمع على شفتيّ.

قلـت: «**إذا رآنـي أحد الآن سيفتضح أمري**». حاولتُ مسـح شفتيّ بطرف عباءتي، لكن كلّمـا كنـت أمسح شفتـيّ كانتا تلمعان أكثر! لـم أجد إلّا أن آخذ قطعة مـن جصّ الحائط، مررتها على شفتيّ ثم مسحتها بالعباءة. كانت فكرة جيّدة، فلم يعرف أحد أنّني أفطرت.

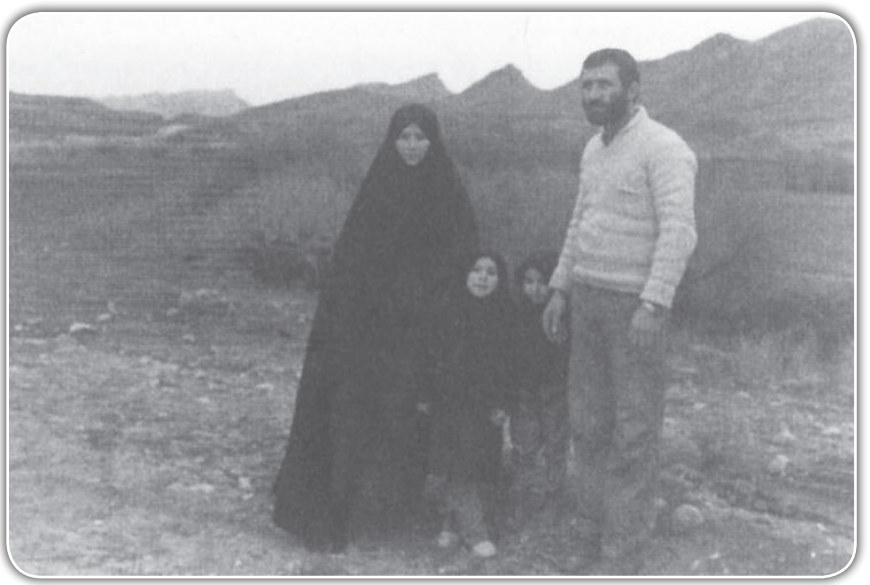

صمد، معصومة، خديجة وأنا؛ «سر پل ذهاب»؛ سنة 1363هـ.ش (1984م).

«سر پل ذهاب»؛ سنة 1363هـ.ش (1984م)؛ خديجة واقفة بجانبي وسمية في يومها الأربعين.

الفصل التاسع

صمد والإمام الخميني

اكتمل بناء المنزل مع نهاية الصيف؛ بيت صغير مكوّن من مطبخ وغرفة فقط، وحمام يقع في زاوية الفناء. بنى صمد غرفة صغيرة للمونة بجانب الحمام لنضع فيها بعض الأغراض المنزلية كالحطب والفحم وغير ذلك من الحاجيات. نقلنا أغراضنا المتواضعة إلى بيتنا بمساعدة إخوتي. كانت أمي أكثرهم همّة ونشاطًا. فقد سُرّت بالمنزل الجديد كثيرًا.

كم سررنا بذلك البيت وكأنّنا قد بنينا قصرًا!! بدا لي أجمل وأروع بيت وقعت عليه عيناي، بل وأكثرها صفاءً. عندما رتّبنا الأغراض فيه، أصبح في غاية الجمال والروعة.

غداة ذلك اليوم بدأ صمد يبحث عن عمل، تارةً يذهب إلى رزن وأخرى إلى همدان، وأخيرًا اضطرّ للذهاب إلى طهران مجدّدًا. لم يمضِ أسبوع حتى عاد مسرورًا، فقد وجد عملًا. لكن هذا الخبر يعني أنّني سأعود مرة أخرى إلى وحدتي.

بدأ صمد يتأخّر في العودة وأيام غيابه بدأت تطول أكثر فأكثر، حتى إنّه بعد عودته كان يجلس في زاوية الغرفة، يضع الراديو الصغير قرب أُذُنه مقلّبًا موجاته. كنت أسأله: «**ما الذي يجري؟ ماذا تفعل؟ ارفع الصوت كي أسمع أنا أيضًا**».

في البداية لم ينطق بشيء، لكنّه ذات ليلة أخرج صورة صغيرة من جيب قميصه وقال: «**هذه صورة للسيد الخميني الذي أبعده الشاه عن الوطن. يشارك الناس اليوم في المظاهرات مطالبين بعودته إلى إيران، وأن يصبح بلدنا بلدًا إسلاميًا. لقد عمّت المظاهرات أكثر المدن**». ثم نهض ووقف وسط الغرفة قائلًا: «**هكذا يُردّد الناس الهتافات في طهران..**» رفع قبضته في الهواء وصاح: «**الموت للشاه!... الموت للشاه!**»، ثم جلس بجانبي واضعًا صورة الإمام في يدي قائلًا: «**جئتك بهذه الصورة، انظري إليها ما استطعت ليصبح ولدنا مؤمنًا ونورانيًا مثل الإمام**». أخذت الصورة وأمعنت النظر فيها، وشعرت أنّ الجنين يتحرّك بداخلي.

توالـت الأيام. وصل خبر مظاهرات همدان وطهران وباقي المدن إلى قايش. كلّما عاد إخوة صمد الصغار من طهران حيث كانوا يعملون، كانوا يخبروننا أنّ صمد بدأ يشارك في المظاهرات يوميًا، وقد تحوّل مؤخّرًا إلى مشارك دائم في جميع المظاهرات.

أخبرنـا أحد أبناء القرية ذات مرة أنّ صمد ذهب مـع مجموعة من الشبّان إلى إحدى الثكنـات العسكرية في طهران، واستولوا على سلاح جاؤوا بـه إلى رزن ليلًا وسلّموه للشيخ محمد شريفي[1].

كان قلبـي يغلي من شدّة القلق لسماع هـذه الأخبار. كنت قلقة عليه جرّاء مشاركته في هذه الأمور الخطرة وتأخّره في العودة إلى القرية. وكان لدى عودته يُقدّم مختلف الأعذار: أنّ الوقـت شتـاء، وهناك خطر الانـزلاق على الطـرق، أو أنّه يريد إنهاء بنـاء المبنى قبل الوقـت المحدّد. لم أعد أُصدّق كلامه، كنـت أعرف أنّه يشارك في المظاهرات وفي توزيع المنشورات بدلًا من أن يهتمّ بالعمل وأمور المعيشة.

اقترب موعد حفل زفاف أحد الأقارب، وكنّا قد أكدنا على صمد وإخوته حضور الحفل. أتـى صمد يـوم العرس. في المساء، وصل نبأ شهادة أحد أبناء القرية - «**حجّت قنبري**» - في مظاهرات همدان، وأنّ جثمانه سيصل إلى القرية في ليلة العرس نفسها.

مـا إن علـم النـاس بذلك حتـى تركوا العرس واحتشدوا فـي الأزقـة، وكان صمد في مقدّمتهـم رافعًا قبضتـه هاتفًا: «**المـوت للشـاه.. الموت للشـاه!**» والرجال يُـردّدون معه الهتافات لتأتي بعدهم النساء يُردّدن ويهتفن: «**الموت للشاه**».

فـي ذلك اليوم خلت كلّ بيوت القرية واحتشد النـاس يبكون مردّدين الهتافات، وكانت أسرة «**حجت قنبري**» أيضًا بين الحشود.

كان تشييعًـا مهيبًـا. ودّعنا «**حجت**» إلى مثواه الأخير. كان صمـد حزينًا، وعندما رآني بين الحضور جاء إليّ ليوصلني إلى البيت، ثم قال إنّه ذاهب إلى منزل الشهيد «**قنبري**».

بقيت تلك الليلة وحيدة؛ لم يعُد صمد إلى البيت. خفت كثيرًا، فذهبت إلى منزل والدي، وجـدت «**شيرين جان**» هنـاك حزينة مثلي. كانت تقول: «**لم يرجع أبـوك الحاج أيضًا إلى المنزل**». سألتهم وألححت في السؤال: «**أين هو؟**» لم يُجبني أحد، فارتديت العباءة وقلت: «**حسنًا! سأذهب إلى بيتنا إذاً!**» لكنّ أختي وقفت في دربي.

---

(1) الذي أصبح بعد انتصار الثورة إمامًا لصلاة الجمعة والجماعة في مدينة رزن.

أحسست أنّ ثمة شيئاً قد حصل لصمد ولوالدي، يريدون إخفاءه عنّي. رغم ذلك أصررت على العودة وقلت: «**عليّ العودة، سيعود صمد إلى المنزل ويقلق عليّ إن لم يجدني**».

عندما رأت خديجة إصراري على الذهاب، حاولت أن تُخبرني بما جرى بطريقة لبقة، فقالت: «**لقد اعتُقل «سلطان حسين»**؛ وهو من أبناء قريتنا. سألت: «**لماذا؟!**» قالت خديجة بهدوء: «**لأنّه هو من أتى بخبر وصول نعش الشهيد «حجت» إلى القرية، وسبّب انطلاق المظاهرة. لقد اعتقلوه بهذه التهمة وأخذوه إلى ثكنة دمق، فأراد صمد أن يذهب إلى الثكنة بغية المطالبة بإطلاق سراحه، لكن الحاج وبعض الأهالي لم يدعوه يذهب بمفرده ورافقوه إلى الثكنة**».

عندما سمعت اسم الحاج أخذتني العبرة وقلت لأمي وأخواتي معترضة: «**هذا تقصيركنّ! لِم لم تحلن دون ذهاب الحاج؟! إنّه رجل مسنّ ومريض أيضًا، ماذا لو حدث له مكروه!**».

تلك الليلة لم ننم حتى الصباح. عاد الحاج وصمد وبعض الأهالي صباحًا، وكانوا سعداء جميعًا، قالوا: «**لقد أطلقوا سراح «سلطان حسين»** لأنّنا توحّدنا جميعًا ووقفنا وقفة رجل واحد، وإلّا، فإنّ أحدًا لم يكن يعلم ما كان في انتظاره».

قبيل الظهر ارتدى صمد ملابسه ليذهب إلى طهران. حزنت لذلك وقلت: «**لا تذهب الآن، سأضع الطفل اليوم أو غدًا، كيف سنعثر عليك حينها؟**».

أجابني ضاحكًا كعادته وقال: «**لا تقلقي، سأعود في الوقت المحدّد**».

قطّبت حاجبيّ، فنزع صمد سترته وقال: «**لن أذهب ما لم ترضي، أُقسم عليك أن ترضي لأنّ جيبي خال من النقود ولا أملك حتى تومانًا واحدًا، ثم أليس هذا الطفل بحاجة إلى الملابس وباقي الأغراض ويجب أن نُهيّئها كلّها؟!**».

نهضت وقدّمت له الطعام. عندما انتهى من تناول الطعام أوصيته ببعض الأشياء وودّعته، ثم قلت له: «**لا تنسَ البطانية، اشترِ بطانية صوف زهرية اللون من تلك الموديلات الجديدة**».

حين انعطف في الزقاق ناديته: «**لا تذهب إلى المظاهرات، إنّها خطرة! نحن بانتظارك**».

عندمـا دخلت إلى المنـزل، شعرت وكأنّ الجـدران تكاد تنهار على رأسـي. كم أصبح المنزل ضيّقًا ومظلمًا. لم أستطع التحمّل، ارتديت العباءة وذهبت إلى منزل والدي.

مضى يومان على ذهاب صمد. استيقظت لصلاة الصبح ووجدت نفسي بحالة مختلفة عن الأيام السابقة. أحسست بألم في ظهري وبطني، فقلت في نفسي: «**يجب أن أتحمّل. لا أظنّ أنّي سأضع مولودي في هذا الوقت المبكّر**».

رغـم أوجاعـي، قمت ببعض أعمال المنـزل كالطهو، ورغم الثلوج وبـرودة الطقس في قايش خاصة في شهر كانون الثاني، ذهبت إلى الفناء لأغسل الملابس.

كان الوقـت ظهـرًا، عندما شعرت أنّه قد عيل صبري. ذهبت إلى خديجة بحالة صعبة، فأرسلت أحد أولادها لإحضار القابلة ثم اصطحبتني إلى بيتنا.

بـدأت أصرخ من شدّة الألم في حين كانت خديجـة تصنع لي شرابًا من الماء والسكر والزعفـران. بعـد قليل أتت «**شيرين جان**» مع أخواتي. في ذلـك اليوم وقبيل أذان المغرب أنجبـت أوّل أولادي. لـن أنسى تلك الليلة، كنت أنهض من فراشـي بمجرّد أن أسمع صوتًا. كم تمنّيت أن يفتح الباب ويدخل صمد. لم أنَم تلك الليلة بسبب بكاء الطفلة حتى الصباح، لكن ما إن أطبقت جفنيّ وغفوت، حتى حلمت بصمد فصحوت مضطّربة.

مضـى على الولادة أسبوع كامـل. كنت قد وضعت الطفلة في المهـد كي تنام، عندها، سمعت صوت الباب يُفتح. كانت «**شيرين جان**» معي في الغرفة تهتمّ بالطفلة، لكنّها غادرت الغرفـة قبل أن يدخل صمد. أتى صمد وجلس بجانب فراشي، كان مطرقًا رأسه، سلّم عليّ بصـوت خافت، ورددت بجفاء. أخذ بيدي يسأل عن حالي. أجبته هذه المرّة أيضًا ببرودة. قال: «**أنت منزعجة؟!**» لم أُجب. قال: «**معك حق!**».

أجبتـه: «**أتيت الآن وقد مضـى أسبوع على ولادة طفلنا الأوّل؟! ألم أطلب منك أن لا تذهب؟ لقد وعدتني بأنّك ستعود بسرعة. ألا ينبغي عليك البقاء بجانبي؟**».

لـم ينبس ببنت شفة، قام وذهب نحو حقيبتـه ليفتحها ثم قال: «**أنت محقّة تمامًا وأنا أقبل كلامك، لكن انظري ماذا اشتريت! لقد وجدتها بصعوبة؛ انظري، هذه هي!**».

ثـم رفع بطانية الصوف في الهواء وحرّكها أمامـي. لم يكن لونها زهريًّا، لكنّها وافقت ذوقي. كانت زرقاء مذيلة بخيوط بيضاء، كانت بطانية مربّعة الشكل مطرّزة بخيوط بيضاء وزرقاء على إحدى زواياها.

أخـذت البطانية ووضعتها بجانب المهد. قـال صمد بحماسة: «**لا يُمكنك أن تتصوّري كـم عانيـت لأجدهـا، ذهبت مع اثنين مـن رفاقي على الدرّاجـة نفتّش يمينًـا ويسارًا في الأسواق إلى أن وجدتها خلف واجهة أحد المحلّات**».

قلت بهدوء: «**شكرًا لك**».

أخـذ بيدي وضغط عليها وقال: «**كلّ الشكر لك، أعرف أنّك تحمّلت الكثير من العناء، ليتنـي كنـت بجانبـك، سامحيني قدم خيـر! أعترف أنّي مذنب، لا أدري مـاذا أفعل إن لم تُسامحيني**».

ثم انحنى وقبّل يدي ووضعها على عينه، أحسست بدموعه تبلّلها.

قال: «**أعطني ابنتي كي أراها!**».

قلـت: «**لست فـي حالة جيدة، خذها بنفسـك**». قال: «**لا! أرجـوك إن كنت تستطيعين ضعيها أنت في حضني، فإنّ أخذها من يديك يُعطيني شعورًا وبهجة مختلفين**».

رغم الآلام في ظهري وبطني، انحنيت بصعوبة وأخذت الطفلة من المهد ووضعتها في حضـن صمد. قبّل صمـد الطفلة وقال: «**أشكرك اللهم ألف مرة. يـا لها من طفلة جميلة ومحبّبة!**».

تلك الليلة أقام صمد مأدبة على شرف المولودة التي أطلق والدي عليها اسم خديجة.

بعـد انتهاء الضيافة وتهدئة الأمور، سألت صمد: «**كم يومًا ستبقى عندنا؟**» قال: «**كما ترغبين! عشرة أو خمسة عشر يومًا**». قلت: «**وماذا عن عملك إذاً؟**» قال: «**أنجزنا المبنى وبعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع سأبحث عن عمل جديد**».

لـم يتجاوز هذا الوعد الكلام، لأنّ صمد لم يكن موجود في البيت أصلًا، حيث كان إمّا في همدان أو في رزن أو في دمق، في حين كنتُ منشغلة بالطفلة وأعمال المنزل.

ذات ليلـة مـددت السفرة، وقمت بوضـع الصحون عليها. كان صمـد منشغلًا بالراديو وكعادته ألصقه بأذُنه. أخذت القِدر إلى السفرة وقلت لصمد: «**ضعه جانبًا، وتعالَ نتعشَّ، أنا جائعة جدًا**».

لم يتحرّك صمد من مكانه، جلست أمامه أنظر إليه، فإذا به يضع الراديو على الأرض وينهض يصفّق ويدور في الغرفة فرحًا، ثم اتّجه نحو خديجة، أخذها من المهد وبدأ يقبّلها ويرفعهـا على يديه إلى الأعلى. كنت أنظر إليـه بدهشة، قمت مذعورة وأخذت الطفلة منه

معترضة: «**ما خطبك؟ ماذا تفعل بهذه الطفلة؟ هي لم تكمل أربعين يومًا بعد، ما زالت في شهرها الأول، ستصبح مجنونة بسبب أفعالك!**».

كان يضحك ويدور ويردّد: «**أشكرك يا ربّ، أشكرك يا إلهي!**».

وضعتُ خديجة في المهد ثانية. تقدم صمد إليّ، وقال: «**قدم خير! سيأتي الإمام، سيعود الإمام إلى إيران! فديتك يا قدم خير وفديت ابنتك، وجودكما بركة! ثم أخذ السترة من الخزانة**».

سألته بدهشة: «**إلى أين؟**».

قال: «**سأذهب لأُخبر الأصدقاء أنّ الإمام سيأتي!**».

كان يتكلّم بشغف وبهجة ولم يقرّ له قرار، فاستيقظت خديجة على صوته.

قلت: «**وماذا عن العشاء؟ أنا جائعة!**».

التفت نحوي ورمقني بنظرة حادّة ثم قال: «**أقول لك إنّ الإمام سيأتي وأنت تتحدّثين عن الجوع؟! أُقسم لك إنّني فقدت شهيّتي، أشعر بالشبع**».

بقيت أنظر إليه بدهشة واستغراب، قلت: «**لن آكل حتى تعود لنتعشّى معًا**».

مضى وقت طويل ولم يرجع صمد. كانت معدتي خاوية، تعشّيت وجمعت السفرة، عند ذلك استيقظت خديجة. كانت جائعة، فأرضعتها وغيّرت ملابسها وأرقدتها في المهد. جلست في الظلام أنظر من وراء النافذة وغفوت على هذه الحال.

مضى ردحٌ من الليل، حين استيقظت على صوت الباب. كان صمد. قال بصوت خافت: «**لمَ نمت هنا؟!**».

مدّ فراشي وساعدني لأستلقي عليه. طار النوم من عيني، سألته: «**هل تعشّيت؟!**» جلس بجانب المائدة وقال: «**سأتعشّى الآن**».

كانت خديجة قد استيقظت، نحّيت اللحاف عنّي لأقوم، قال: «**نامي أنت متعبة**». ثم انحنى ليحرّك المهد وهو يأكل في نفس الوقت. نامت خديجة بعد قليل، ثم قام صمد ليطفئ النور. قلت: «**وماذا عن العشاء؟**» قال: «**لقد أكلت**».

عندما استيقظت لصلاة الصبح رأيته يُجهّز حقيبته، غصصت بالبكاء وسألت: «**إلى أين؟!**».

قال: «**قرّرنا مع الأصدقاء في المسجد أن ننطلق لاستقبال الإمام بعد الأذان مباشرة، قلت لك إنّ الإمام سيأتي**».

انهمرت دموعي بلا إرادة منّي وقلت: «**منذ أن اقترن اسمي باسمك، كنتَ إمّا في الخدمة العسكرية، وإمّا تبحث عن عمل، وكذا اليوم أيضًا. ما هو ذنبي؟ لم تبق بجانبي منذ يوم العرس وإلى الآن ما يزيد عن سبعة أيام متتالية. لقد ذهبت إلى طهران ووعدتني وقتها أنّك ستأتي لنبني بيتنا وأنّك سوف تجد عملًا في قايش، لكنّك لم تأت! أعرف أنّ ذهابك إلى طهران ليس إلا ذريعة كي تقوم بأمور أخرى هناك. وأعرف أيضًا أنّك متورّط في المظاهرات وتوزيع المنشورات وأمور كهذه. لماذا تزوّجت إذاً؟ لماذا فرّقت بيني وبين أبي الحاج؟ هل تزوّجتني لتعذّبني؟ أيّ ذنب ارتكبته؟ لقد تزوّجت لأكون سعيدة، لم أكن أعرف أنّني سأتحمّل الأحزان ليل نهار، كلّ يوم أعد نفسي بأنّ زوجي سيأتي الليلة وغدًا**».

استيقظت خديجة على صوت بكائي وبدأتْ تبكي. ذهب صمد ليهزّ المهد وقال: «**نعم، أنت محقّة، لا أملك أي إجابة، لكن أعدك قدم خير، هذه المرة ستكون آخر مرّة. اسمحي لي أن أذهب وأرى إمامي. سأعود إليك وبعد ذلك سأبقى بقربك**».

كانت خديجة تبكي بلا انقطاع، أخذتها من المهد لأرضعها. كانت جائعة وأخذت تأكل بشراهة. جاء صمد وجلس أمامي، انحنى ليقبّل خديجة. عند ذلك غيّر صوته مخاطبًا إيّاها بلحن طفولي: «**أنا خجل منك ومن ماما، أعدكما أن أكون بقربكما بعد الآن. السيد الخميني سيأتي، ادعوا أن تهبط طائرته بسلام**».

قلت وأنا أبكي: «**سأشتاق إليك، متى يصل دوري في أن أشبع من رؤيتك؟**».

احمرّت عيناه وقال: «**تظنّين أنّني لا أشتاق إليك؟ أنت تشتاقين إلى شخص واحد فقط بينما أشتاق أنا إلى شخصين: أنت وهذه الطفلة**».

بعد عدّة أيام، أصبحت القرية وكأنّ زلزالًا قد ضربها، احتشد الناس في الأزقة والساحة وعلى سطوح المنازل، كانوا يوزّعون الحلويات في حين انشغلت النساء بإعداد الخبز والكُماج[1]، والكل يُردّد: «**لقد أتى الإمام!**».

كنت في تلك اللحظات أُفكّر في صمد. أعرف أنّه الأقرب بيننا إلى الإمام. كنت أرغب في أن أكون طائرًا لأُحلّق ونذهب معًا لرؤية الإمام.

لم يكن في قايش سوى شخصين يمتلكان جهاز التلفاز، فاحتشد الناس أمام منزلهما وعجّت الباحة والزقاق بالحضور. كانوا يقولون: «**من المقرّر أن يبثّ التلفاز مشاهد**

(1) نوع من الحلويات البيتيّة التقليديّة.

عـودة الإمـام وخطابه. كما استأجر الكثير من الشبّـان والرجال سيارات وغادروا القرية متّجهين إلى طهران».

عاد صمد بعد أيام، وكان في غاية السرور. من لحظة دخوله المنزل، بدأ يروي ما حدث معـه: «**بالتأكيـد كان ذلك بدعائك يا قدم خير، أن أصـل إلى الإمام وسط ذلك الازدحام. وجهـه يشـعّ نـورًا، لو تدرين كم هو حنون! صدّقيني يا قدم خيـر، لقد مسح الإمام بيده علـى رأسـي! فقطعـت حينها عهـدًا على نفسي أمـام الله أن أكـون جنديًّا لـه وللإسلام! عاهدتـه أن أتبعـه حتـى آخر نفس وحتـى آخر قطرة دم. لا يُمكنـك أن تتصوّري الحشود التـي توجّهـت إلى «بهشت زهراء». لقد جاؤوا مشيًا على الأقدام من مسافات بعيدة. كان النـاس قد قاموا بتنظيف الشوارع وشطفهـا ووضعوا المزهريات والورود وسط الطرق، لا تتخيّلـي كـم كانـت عظيمةً تلـك اللحظة التي وصل فيهـا الإمام. لقد نـزل كلّ الناس رجـالًا ونسـاءً، شبابًا وكهولًا إلى الطرقـات. كنت قد تركت درّاجتي في طرف الشارع من دون أن أقفلها وذهبت حيث كان من المقرّر أن يُلقي الإمام كلمته، بعد أن انتهى الخطاب وعنـد عودتـي تذكّرت درّاجتي فجأة. عندما وصلـت إليها وجدت بجانبها شخصًا يُحاول أن يركبها، لقد وصلت في الوقت المناسب. خطر على بالي، في تلك اللحظة أنّ تلبيتي للإمام لم تكن من دون أجر، ورغم أنّني تأخّرت لم تُسرق درّاجتي».**

ثم فتح صمد حقيبته وأخرج منها صورة كبيرة مثنية وقام بإلصاقها على جدار الغرفة وقال: «**هذه الصورة ستجلب لنا البركة**».

فـي صباح اليـوم التّالي، بدأت مهمّة صمـد الجديدة؛ كان يذهب يوميًّـا إلى رزن لإحضار بعض الأفلام وبثّها للناس في المسجد. ذات مرّة، أحضر فيلمًا عن مجيء الإمام وفرار الشاه، كان يضحك كيف أنّ الناس تحمّسوا وكادوا يُحطّمون شاشة التلفاز عندما شاهدوا الشاه.

الفصل العاشر

صمد في خدمة الثورة

توجّـه صمد بعد العيد إلى همدان. أتى ذات يوم وقال: «**أعطني البشارة، لقد قلت لك سابقًا إنّني سأصبح جنديًا للإمام**».

أصبـح عملـه كما أخبرني فـي محكمة الثورة؛ عليـه أن يذهب إلى همـدان صباح يوم السبـت حتى نهايـة الأسبوع ليعود مساء الخميس. وكي لا أعترض عليه، كان يقول قبل أن أتفـوّه بكلمة: «**لو تعلميـن حجم العمل في المحكمة! يعلم الله لولاك ولولا خديجة، لما كنت سآتي في هذين اليومين أيضًا**».

كنت قد عرفت للتوّ أنّي حامل للمرّة الثانية. لم أكن على ما يرام، ولا أعرف كيف أُخبر الآخرين. قلت بعصبيّة: «**لا داعي أن تذهب إلى همدان، لست بحالة جيدة، عليك أن تهتم بي أكثر، على ما يبدو أنّني حامل مجدّدًا**».

رفـع صمـد يديه نحو السماء وقال مـن دون أيّ انزعاج: «**الحمد لله، أسألـك يا ربّ أن تسامح قدم خير، إنّها جاحدة النعم، اللهم ارزقنا ولدًا صالحًا**».

لـم يرق لي كلامه فقلت: «**ماذا تقـول؟ ألا ترى كم أتعب، أنا في هذا البرد وبمفردي، علـيّ الاهتمـام بالطفلـة، كما إنّ مسؤولية أعمـال المنزل كلّها على عاتقـي أيضًا، أحيانًا أفقد توازني من شدّة التعب**».

ضحـك وقـال: «**أوّلًا، لقد بـدأ الطقـس يتحسّن، ثـم إنّ الجنة ليست بهـذه البساطة تحت أقدام الأمهات، من دون تحمّل معاناة كهذه**».

قلت: «**لا أعلم، عليك أن تفعل شيئًا، ما زال الوقت مبكّرًا حتى يأتينا طفل آخر**».

قـال: «**لا تتفوّهـي بهذا الكلام الذي لا يرضاه الله، تريـد خديجة أُختًا أو أخًا عاجلًا أم آجـلًا، عليـك أن تُنجبـي طفلًا آخـر، إن لم يكن هذه السنة ففـي السنة المقبلة. ومن الأفضل أن يكبرا معًا**».

أدخل كلامه الراحة إلى نفسي. تحدّث قليلًا عن عمله، ثم أخذ يداعب خديجة ويمازحها، وبعد ذلك أبدى فرحه بالطفل الثاني لدرجة أنّه أنساني انزعاجي منذ دقائق.

لم يكن صمد معنا كالعادة، لكن ما كان يواسيني أنّ المسافة من قايش إلى همدان أقل منها إلى طهران.

كنت يومًا بعد يوم أشعر بثقل الحمل. كانت خديجة على وشك أن تتم سنتها الأولى، تحبو على يديها وقدميها وكلّما وجدت شيئًا تضعه في فمها. كان من الصعب عليّ وأنا حامل أن أجري خلفها وأقوم برعايتها، ومن ناحية أخرى منذ أن انتقلت إلى منزلي ابتعدت عن أمي وكنت أشتاق لوالدي، لكن من حسن حظّي أنّ منزل أختي حوري كان قريبًا منّا، إذ لم يكن بيننا سوى بيتين أو ثلاثة، فكانت تتفقّدني كثيرًا، خصوصًا في الأيام الأخيرة من حملي كانت تأتي لزيارتي يوميًا قبل أن تباشر أعمالها اليومية، وبعد أن تطمئنّ إلى حالي تعود إلى منزلها. يحصل أحيانًا أن أحمل خديجة وأذهب إلى منزل والدي لأمضي عندهم عدّة أيّام، لكن أينما كنت، أعود صباح الخميس كي أهتمّ بالمنزل، وبما أنّ صمد كان يُحبّ مرق اللحم كثيرًا كنت أحضّره للعشاء رغم أنّ هذا الطعام لا يؤكل على العشاء عادةً.

أحيانًا، كان صمد يصل إلى المنزل عند منتصف الليل ويطرق الباب. وعندما أقول له: المفتاح معك فلماذا تطرق الباب، يردّ عليّ: «**أنا أقطع كلّ هذه المسافة لأجل أن تستقبليني عند الباب**». وعندما أقول: ألا ترى وضعي؟ يتذكّر أنّي على وشك الولادة وعليه أن ينتبه لي أكثر، لكنّه في الأسبوع التالي ينسى كلّ شيء».

كانت آخر أسابيع حملي، وما إن يحين يوم السبت الذي يُغادر فيه صمد عادة إلى العمل يسألني: «**عزيزتي قدم خير، هل من خبر؟**» فأقول له: «**ليس بعد**».

وبذلك يطمئنّ عليّ ويذهب ليعود نهاية الأسبوع.

في ذلك الأسبوع استعدّ صمد للذهاب عصر يوم الجمعة. كنّا في شهر بهمن ويومها تساقط الثلج بغزارة.

قال: «**سنذهب صباح السبت في مهمّة، من الأفضل أن أنطلق الآن كي لا أتأخّر، أخشى أن تُقطع الطريق بسبب تساقط الثلوج**».

وعند ذهابه سألني كالعادة: «**حبيبتي قدم خير، هل من خبر؟!**».

كان ظهري يؤلمني قليلًا وشعرت بشيء كوخز الإبر، قلت في نفسي ربما هو ألم

بسيط، فحساباتي تقول إنّه ما زال أمامي أسبوعان للولادة. لذا قلت له: «**لا، اذهب رافقتك السلامة، الوقت ما زال مبكرًا**».

لكنّـي عندمـا استيقظـت لصلاة الصبـح، اشتدّ ألم ظهـري، وبعد قليل بـدأت بطني تؤلمنـي. لـم أكتـرث، وباشرت أعمالـي اليومية، لكنّني لـم أتحسّن بـل ازداد ألمي. كانت خديجـة لا تـزال نائمة، فذهبت إلى منزل أختي وأنا على هـذه الحال وسط الثلوج والبرد؛ كنت أرتجف من شدّة البرد. أرسلت حوري أحد أولادها لاستدعاء القابلة والآخر إلى زوجة أخـي خديجة، ثم أمسكت بيـدي لنعود إلى المنزل. كان البرد في تلك السنة قارسًا لدرجة أنّنـا اضطررنـا لوضـع «**منضدة التدفئـة**»[1] في البيـت. ساعدتني حـوري لأستلقي تحت لحاف طاولة التدفئة، ثم انشغلتْ بتحضير الطشت والماء الساخن.

رغبت أن يُخبر أحدهم صمد. كنت قد اشتقت له بهذه السرعة ورغبت أن يكون بجانبي في تلك اللحظات.

كنت كلّما سمعت صوتًا أقول: «**بالتأكيد هذا صمد.. لقد أتى صمد..**» وكلّما اشتدّ الألم أرغـب أن أنادي باسمه لكنّني أخجل. لم تكن صورة صمد تُفارق عينيّ حتى ولد الطفل. ما إن سمعت صوت بكاء المولود الجديد، أجهشت بالبكاء.

صمد! ماذا سيحدث لو أنّك أخّرت ذهابك قليلًا؟ ماذا يحصل لو أنّك بجانبي؟

جـاء يوم الخميس وأنا مرتبكة جدًا، وكعادتي كنـت أنتظر عودته. طُرق الباب عصرًا، عرفت أنّه صمد. فتحت خديجة زوجة أخي باب الفناء.

حينما رأى خديجة في بيتنا، أدرك الأمر، فسألها: «**ما الخبر؟ هل ارتاحت قدم خير؟**» أخبرتـه خديجة أنّ الطفل قد ولد لكنّها لم تُخبـره بجنس المولود. كانت حوري في الغرفة ورأت صمد من خلف النافذة. نظرت إليّ وقالت مبتسمة: «**قدم خير، قُرّي عينًا! ها قد أتى زوجك**». ثم تركت الغرفة قبل أن يدخل صمد.

كنـت نائمة تحت لحاف منضدة التدفئة، دخل صمـد ضاحكًا وقال: «**السلام عليك يا سيدة قدم خير! مبروك ولادة المولود الجديد، أين هي ابنتي الجميلة؟**».

كنت منزعجة منه، وهو يعلم بذلك، رغم ذلك سألته: «**من أخبرك؟ خديجة؟**».

جلس بقربي حيث كانت الطفلة نائمة بجانبي، انحنى وقبّل جبين الطفلة وقال: «**أنا قد**

(1) من وسائل التدفئة خلال الشتاء القارس. (وقد سبق الحديث عنها)

علمت! وتابع: ما أروعها من فتاة. أقسم يا قدم خير إنّها جميلة مثلك تمامًا، انظري إلى عينيها وحاجبيها السوداوين! أظنّ أنّ عينيها سوداوان لأنّها ولدت في شهر محرّم».

ثم نظر إليّ وقال: «**كنت أُريد أن أُعطي زوجة أخيك البشارة، لكنّها للأسف لم تُبشّرني بأنّ المولود فتاة ظنًّا منها أنّني سأنزعج**».

نهض وذهب نحو خديجة التي كانت نائمة بجانب طاولة التدفئة وقال: «**خديجتي كيف حالها؟**».

قلت: «**مصابة بالزكام، أعطيتها الدواء ونامت للتوّ**».

جلس عند خديجة ربع ساعة كاملة، يلاعب شعرها ويهدهد لها.

صباح اليوم التالي، استيقظ صمد باكرًا وقال: «**اليوم أريد أن أقيم مأدبة لابنتي**».

ذهب ودعا أبوينا والإخوة والأخوات والأقرباء المقرّبين وبعد ذلك جاء وشمّر عن ساعديه وأشعل الموقد وسط الفناء. ذهبت أمّي وأخواتي ونساء إخوتي لمساعدته.

كان يأتي بين الحين والآخر إلى غرفتي ويقول: «**ليتك يا قدم خير بصحّة جيّدة واستطعت أن تأتي وتقفي بجانبي، فلا متعة في الطهي من دونك**».

كان الجوّ باردًا وتجمّعت الثلوج في فنائنا الصغير. أخذ صمد المجرفة وجرف الثلوج، وجمعها في الزاوية عند المرحاض. بعد إنهاء عمله دخل الغرفة متذرّعًا بالبرد ليجلس قرب طاولة التدفئة، ولتدفئة يديه تحت اللحاف. أخذ يتحدّث عن عمله وعن أصدقائه وعن الأحداث التي حصلت معه الأسبوع المنصرم.

كنت قد وضعت خديجة إلى جانبي الأيمن والمولودة الجديدة إلى الجانب الآخر، تارة أرضع طفلتي وتارة أضع المنديل المبلّل على جبين خديجة. فجأة سكت وغاص في أفكاره وقال: «**لقد عذّبتك كثيرًا، سامحيني يا قدم خير، منذ أن تزوّجنا لم تذوقي طعم الهناء، إذا لم تُسامحيني فبماذا أُجيب ربّي يوم القيامة؟!**».

حبست الدمع في عينيّ وقلت: «**ما هذا الكلام الذي تتفوّه به؟**».

قال: «**إن لم تُسامحيني سأكون أسود الوجه يوم القيامة**».

قلت: «**ولِمَ لا أُسامحك؟**».

أمسك بيدي من تحت اللحاف، كانت يداه ما تزالان باردتين، قال: «**أنت الآن في أمسّ الحاجة لمساعدتي لكنّك ترين وضعي فأنا لا أقدر أن أبقى بجانبك، لقد انتصرت**

الثورة للتوّ وأوضاع البلد لم تستقرّ تمامًا بعد. هناك الكثير من الأعمال التي يجب إنجازها، إذا بقيت بجانبك لا يوجد من يُنهيها، وإذا ذهبت سيبقى قلبي بجانبك».

قلت: «**لا تحزن من أجلي، يوجد بجانبي الكثير من الأصدقاء والأقارب، ولديّ أخواتي وإخوتي يُساعدونني. لا حرمنا الله من شيرين جان، لولاها لهلكت منذ زمن. أنت تابع عملك وخدمتك كما تُحبّ».**

ضغط على يدي ورفع رأسه، فرأيت عينيه حمراوين، كان كلّما ينزعج تحمرّ عيناه بهذا الشكل. كان يروق لي وهو على هذه الحال، رغم أنّي لم أكن أرغب في رؤيته منزعجًا.

وأنا أيضاً ضغطت على يده وقلت له: «**هذا غير جيّد، قم واذهب، سيتصوّر الجميع أنّنا تشاجرنا».**

كانت أختي تقف خلف النافذة حين طرقت بيدها على الزجاج. ارتبك صمد كثيراً، كان ممسكًا بيدي فتركها بسرعة. احمرّ وجهه خجلاً، وأختي خجلت كذلك وأطرقت رأسها وقالت: «**سيد صمد، شيرين جان**» تريد أن تسكب الأرز، هلّا أتيت لنمسك لها القدر؟

نهض ليذهب وعندما وصل إلى الباب التفت إليّ وقال: «**هل كان ما قلتيه من صميم قلبك؟».**

ضحكت وقلت: «**نعم، اطمئن!».**

جاء وقت الظهر، كانت غرفتنا الصغيرة قد امتلأت بالضيوف، أحدهم يمدّ المائدة والآخر يأتي بالخبز واللبن والمخلّلات، وكان صمد يجمع أقداح الشاي من أمام الضيوف. كان قد علق قدحان ببعضهما، وعند محاولته فك أحدهما عن الآخر، كُسِر وجرحت يده. ركضت «**شيرين جان**» وأحضرت قطعة قماش وضمّدت يده. في هذه الضوضاء، قدِم زوج أختي إلى الغرفة مضطّربًا، قال إنّ أنف أختي «**كرجي**[1]» ينزف بشدّة منذ نصف ساعة ولم يتوقّف حتى الآن.

وكان صمد قد اشترى سيارة «جيان»[2] منذ فترة، فأخذ مفتاحها من على الرفّ وقال: «**هيّا لنأخذها إلى الطبيب**». ثم التفت إلينا وقال: «**أنتم تناولوا الغداء**».

---

(1) شقيقة قدم خير.

(2) سيارة جيان الفرنسية، من الطراز القديم جدًّا.

مـا أن مدّوا السفـرة وأحضروا الغـداء، حتى خنقتنـي العبرة، فدسسـت رأسي تحت اللحـاف وبكيـت بعيدًا عن عيون الجميـع. كنت أرغب أن يكون صمـد حاضرًا، كان هو من أقام المأدبة، تساءلت: لماذا جرت الأمور هكذا لتمنع صمد من حضور وليمة ابنته؟!

أحضـروا الغـداء وانشغـل الجميـع بتناول الطعـام، وعلـت أصوات ارتطـام الملاعق بالصحـون، دخلت ابنة أختي في تلك الأثناء، جلسـت بجانبي وهمست في أُذُني قائلة: «**يا خالتي، ذهب السيد صمد مع أمي وأبي إلى رزن وطلب منّي أن أقول لك بأن لا تقلقي**».

تنـاول الضيوف غداءهم وشربـوا الشاي من بعده. قامت أخواتـي ونساء إخوتي لغسل الصحون والأطباق، لكنّ صمد لم يعد.

صـار العصر، تناول الضيوف الفواكه والحلويات وصمد لم يعد بعد! أخذ والدي الحاج الطفلة، أذّن وأقام في أُذُنيها وأسماها معصومة، وهمس باسمها فيهما.

حلّ المساء وانصرف الضيوف، باستثناء «**شيرين جان**» وخديجة اللتين بقيتا بجانبي.

أعـدّت «**شيرين جـان**» العشاء ومدّت خديجة السفرة. فُتح الباب ودخلت أختي وزوجها ولم يكن صمد برفقتهما. سألتهما بقلق: «**أين صمد؟**».

جلسـت أختـي بجانبي وكانت حالها قد تحسّنت، قـال زوج أختي: «**ذهبنا إلى رزن لكنّ الدكتور لم يكن موجودًا، تفضّل السيد صمد وأخذنا إلى مستشفى في همدان، استطاع الدكتور ببعض الحقن والحبوب أن يقطع الرّعاف عن أنف «كرجي». تأخّر الوقت وأردنا أن نعـود، فقـال السيد صمد: اذهبوا أنتم، فأنا يجـب أن أكون هنا صباح الغد، فلمَ أذهب كلّ هذا الطريق إلى قايش لأعود غدًا، أخبروا قدم خير أنّني سأعود الخميس المقبل**».

لـم أتفوّه بشيء أمام أختي وزوجها، مع أنّني كدت أنفجر من الحزن. غادر الجميع بعد العشـاء؛ أرادت «**شيريـن جان**» أن تبقى معي لكنّني أرغمتها على الذهاب وقلت: «**لا أرضى أن يبقى أبي الحاج وحيدًا ولم يتناول عشاءه بعد**».

عندما غادر الجميع نهضت وأطفأت النور، وجلست أبكي في الظلام.

الفصل الحادي عشر

الانتقال إلى همدان

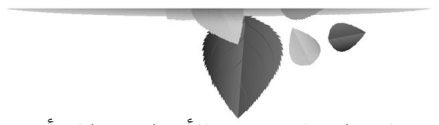

الآن وقد أصبحتُ أمًّا لابنتين، وفي انتظاري الكثير من الأعمال، ما إن أستيقظ في الصباح، أشرع في أعمال المنزل كالغسيل والتنظيف والطبخ، أو أهتمّ بالطفلتين. كان وجود زوجة أخي إلى جانبي من أكبر النعم عليّ، حيث لم تدعني بمفردي؛ فإمّا أن تكون هي في منزلنا، وإمّا أذهب أنا إلى بيتها. وكثيرًا ما يحدث أن أذهب إلى منزل والدي. لكن أيام الخميس كانت تختلف عن باقي الأيام، حيث كنت أصحو باكرًا، وأشعر أنّي سأطير من شدّة الفرح؛ كنت أنام باكرًا ليلة الخميس كي أصحو باكرًا لأبدأ الغسيل والتنظيف والتلميع، أُرتّب الأطفال وأُلمّع كلّ شيء، فكل من كان يراني يدرك أنّ لديّ ضيفاً عزيزاً؛ كان صمد هو ضيفي العزيز. كنت أطهو له الطعام الذي يُحبّ بكل سرور وشغف، يحصل أحيانًا أن تأتي زوجة أخي عصرًا وتأخذ الأطفال وتقول: «**اهتمّي بنفسك قليلًا!**» هكذا كانت تمضي الأيام والأسابيع إلى أن حلّ العيد.

أنهينا معظم الزيارات والمعايدات خامس أيام عيد النوروز. عندما استيقظنا في الصباح قال صمد: «**سأذهب اليوم**». قلت متذرّعة: «**ما خطبك؟! لِمَ الاستعجال؟ يجب أن تبقى، ابق هنا حتى اليوم الثالث عشر**».

قال: «**لا يا قدم خير، لا تُحرجيني، عليّ الذهاب، لديّ أعمال كثيرة**».

قلت: «**وأنا هنا بمفردي، إذا فاجأنا بعض الضيوف، ماذا أفعل مع هذين الطفلين؟**».

قال: «**أنت أيضًا تعالي معي**».

تفاجأت وقلت: «**إلى منزل من سنذهب الليلة؟ هل لديك مكان؟**».

قال: «**لقد استأجرت منزلًا صغيرًا، ليس سيّئًا، تعالي وشاهديه، سيُعجبك**».

قلت: «**تقصد أن ننتقل كلّياً؟!**» ضحك وقال بهدوء: «**نعم، هكذا أفضل لي، فعملي يزداد صعوبة يومًا بعد يوم، ويصعب عليّ التردّد أيضًا، تعالي نجمع أغراضنا ونذهب إلى همدان**».

لـم أتخيّل أن أترك والدي الحاج و«**شيرين جان**» وزوجات إخوتي ومنزلي ودياري بهذه السهولة وأذهب. قلت: «**أنا لا أستطيع تحمّل البعاد، سأشتاق إليهم**».

انزعـج قليـلًا وقال: «**أنـت ذكيّـةٌ جـدّاً، كيـف تريديـن منّـي أن أتحمّـل اشتياقي لك وللأطفـال وأنـت لا تستطيعيـن تحمّـل الفـراق؟ أخشى يومًـا أن يُصبح عددنـا أربعة أو خمسة أشخاص، فكيف لي أن أتحمّل فراقكم حينها؟**».

أجبت بنبرة معترضة: «**لا تتفوّه بهذا! لا سمح الله بذلك!**».

بقي صمد يُلحّ في اقتراحه حتى وافقت، وأخذنا المزاح حتى وجدت نفسي ذاهبة إلى همدان.

وافقت ولكن بشرط: «**حتى آخر أيام العيد فقط! سأعود إن لم أستطع التحمّل**».

بمجـرّد أن سمع هذا الكلام نهض بسرعة وجمـع بعض الأغراض ووضعها في صندوق السيارة وقال: «**سنذهب حاليًا لفترة أسبوع فقط، وإن شاء الله سيُعجبك المكان**».

ذهبنـا إلـى منزل والدي. لـم تُصدّق «**شيرين جـان**» وانعقد لسانهـا، وضعنا الأطفال عندهـا حتى الظهـر، ودّعنا جميـع الأقارب. لـم يبدُ أنّ الأطفـال يريدون فـراق والدتي، فخديجة لم تنزل عن حضنها، كانت تبكي وتقول مكرّرة بلهجتها الحلوة: «**شينا، شينا!**»[1].

أخذتها منها بصعوبة، ثمّ ركبنا السيارة وانطلقنا. كان صمد قد ملأ السيارة بالأغراض إلى درجة يصعب أن نجد مكانًا للجلوس، ما جعلها تصدر قرقعةً أثناء حركتها.

تختلـف همـدان عـن قايش كثيـرًا، بدا كلّ شـيء فيها غريبًـا. في الأيـام الأولى، كان اشتياقـي إلـى والديّ يؤلمنـي، فأصبحت في بعض الأوقات أنزوي بعيدًا عـن أنظار صمد وأبكـي بحرقة. الشيء الوحيد الذي بدا جيدًا هـو أنّني أرى صمد كلّ يوم. كان في الأسبوع الأول يأتـي إلـى المنزل لنتغدّى معًا، يُلاعب الأطفال قليـلًا ويشرب الشاي ثم يغادر البيت مجـدّدًا حتـى المساء. كانـت مهمّته صعبة، حيث كنّـا في بداية الثورة وفـي ذروة الأعمال التخريبيـة التي يقـوم بها المنافقون والإرهابيون، وبما أنّ صمـد يعمل في تشكيلات لجان الثورة، فإنّ عمله محفوف بالمخاطر.

كان هنـاك فائـدة أخرى لمجيئنا إلى همـدان؛ فالأقارب والمعارف بـات لديهم مكانٌ يبيتون فيه حين يأتون إلى همدان، سواء للتسوّق أو لزيارة طبيب. فصار بيتنا نزلًا للضيوف في أغلب الأوقات.

---

(1) مخفّف شيرين بلهجة طفوليّة.

بعـد شهـر من إقامتنا في همـدان، أتى تيمور أخـو صمد ليسكن معنـا. كان طالبًا في الثانويـة، وبما أنّـه لم يكن في قايش ثانويّة كان أغلب الفتيان يذهبون إلى رزن للتعلّم، لكنّ الذهاب والعودة يوميًّا كانا صعبين جدًا، لذلك أتى تيمور للعيش معنا.

لقد ازدادت أعمالي؛ وأرهقني الاهتمام بالأطفال والضيوف والأعمال المنزلية كثيرًا.

ذات يـوم، لـم يكن صمد قد عاد إلى المنزل لتناول الغـداء، كان الوقت عصرًا وتيمور منشغـلاً في أداء تكاليفـه المدرسية، وإذا بالباب يُطرق. ذهـب تيمور ليفتحه. نظرت إلى الفنـاء من خلف النافذة، رأيت أخا زوجي ستّار يتكلّم مع تيمور الذي أتى بعد قليل وارتدى ملابسه وقال: سأذهب مع أخي ستّار لشراء الكتب والدفاتر.

أجبتـه متعجّبة: «**بالأمس اشتـرى لك صمد كتبًا ودفاتـر**». لكنّ تيمور كان مستعجلًا، فأردف قائلًا: «**سأعود فورًا**». خالجني الشك فسألت: «**لماذا لم يدخل السيد ستّار؟!**» قال تيمور وهو يُغادر الغرفة: «**سنعود وقت العشاء**».

قلقـت كثيـرًا؛ فكّرت أنّ ثمـة شيئاً قد حدث لصمـد، لكنّني سرعان مـا واسيت نفسي وقلـت: «**لا، لـم يحـدث شيء، لـم يدخل ستّار إلـى البيـت لأنّ صمد لم يكن فـي المنزل، بالتأكيد خجل من الدخول. لا بدّ أنّهما سيذهبان إلى المحكمة لرؤية صمد وسيعودون معًا في المساء**».

بعـد عدّة ساعـات، عند الغروب، طُرق الباب مجدّدًا، لكن هـذه المرّة كان والد زوجي خلف الباب وقد بدا قلقًا. ما إن فتحتُ الباب حتى سألته: «**ما الخبر؟ هل حدث شيء؟!**».

دخـل والد صمد إلى الغرفة وجلس في الزاوية مكفهرّ الوجه. حاولت أن أجعله يتحدّث عمّـا جـرى لكنّه كان يردّ: «**هل مـن المفروض أن يحدث شيء؟ لقـد اشتقت إلى أولادي، أتيت لرؤية تيمور وصمد**».

هـل كان بإمكانـي أن أصدّق هذا الكلام؟ لا لم أُصدّقه! لكن لـم يكن أمامي إلا أن أسكت وأُفكّر في إعداد شيء للعشاء. انتابني خوف لا حدّ له. كنت غارقة في أفكار سيئة ومخيفة حتى طُرق الباب مجدّدًا. ركضت مرتبكة نحو الباب لأجد نفسي أمام حافلة صغيرة (ميني باص) واقفـة خلـف باب المنزل ينزل منهـا الأقرباء ووالدي الحـاج و«**شيرين جـان**» وإخوة زوجي. حينهـا خارت قواي بشكل كامـل، ومهما أصررت عليهم وأقسمت عليهـم أن يُطلعوني على ما حدث لم يردّ أحد بشيء. ردّد الجميع نفس العبارة: «**طلب صمد منّا أن نأتي لزيارتكم!**».

كان علـيّ أن أصـدّق كلّ هذا ولكن لم أستطع، أدركت أنّهم لا يريدون الحديث فتساءلت: إن

كانـوا يقولـون الحقيقة فلماذا لم يرجع صمد حتى هذه الساعـة المتأخّرة من الليل؟ أين ذهب تيمور وأخوه؟ لماذا لم يعودوا لغاية الآن؟ كيف لهؤلاء الضيوف أن يأتوا لزيارتنا في وقت واحد؟

أُسقط في يدي، ذهبت لإعداد العشاء. دخلت إلى المطبخ وبدأت أطهو الطعام وأذرف الدموع. أنهيت إعداد الطعام لكن لم يصل أيّ خبر عن صمد ولا عن إخوته. قدّمت العشاء لهـم، وبعدهـا أعددت لهم مـا تيسّر عندنا مـن الفرش لينامـوا. نام الجميـع، وبقيت أنا مستيقظة من شدّة الخوف والقلق، أنتظر عودة صمد. كنت كلّما سمعت صوتًا، نهضت من مكاني ونظرت في ظلام الفناء؛ لكن لم يصل أي خبر لا عن صمد ولا عن إخوته.

لا أعلم كيف ومتى غفوت. لكن أتذكّر بأنّني حلمت كوابيس سيئة ومخيفة حتى الصباح. في الصبـاح الباكر بعـد الصلاة، وقبل أن نتناول الفطور، تهيّأ والـد صمد للذهاب، وارتدت والدة صمد أيضًا عباءتها. ركضت خلفهما وقد نفد صبري، ارتديت عباءتي وقلت: «**سآتي أنا أيضًا**».

احتدّ والد صمد في وجهي وقال: «**لا! لا يمكن، إلى أين تريدين أن تأتي؟ نحن لدينا عمل، ابقي أنت هنا بجانب الأطفال**».

بدأت أبكي وأنوح قائلةً: «**أُقسم عليكما بالله أن تقولا لي الحقيقة، ماذا حدث لصمد؟ أنا أعلم أنّه أُصيب بمكروه، قولوا لي ذلك**».

قـال لي والد صمـد ثانية: «**اذهبـي أنت واهتمّـي بضيوفـك، سيستيقظون مـن النوم وينتظرون الفطور**».

كنـت أبكـي وأبكي والدمـوع تنحدر علـى وجنتي، قلـت: «**شيريـن جان**» هنـا وستهتمّ بالضيوف، إذا لم تأخذوني معكم سأضطرّ أن أذهب الآن إلى محكمة الثورة.

حيـن سمع والـد صمد هذا، وافق على الذهاب معهم. أشفقـت والدة صمد عليّ وقالت لي: «**ليس لدينا خبر دقيق عمّا جرى سوى أنّنا سمعنا أنّ صمد مصاب وهو الآن في المستشفى**».

لـم أفهم ما حدث لحظة سمعت الخبر، كيف ركبت السيارة ووصلنا إلى المستشفى. لا أتذكّـر شيئًا سـوى أنّني كنت أتفحّص بعيني وأبحث عن جثّة صمد، فوقع نظري على تيمور الـذي دنا منّا ليهمس في أذن والده، وذهبوا معًا باتجاه الجناح، وتبعتهما أنا ووالدة صمد. كان تيمـور يقصّ بهدوء على والده ما جرى ونحن نستمع إليـه. فهمنا من حديثه أنّ صمد وأحـد زملائه، قاموا بالأمس بإلقاء القبض على عدد من المنافقين وكان بينهم امرأة، لم يقـم صمد وزميله بتفتيشها مراعـاةً للحكم الشرعي، واكتفيا بتوجيـه السؤال إليها: قولي الحقيقـة، هل لديك سلاح؟! عندها أقسمت المرأة أن ليس بحوزتها أيّ سلاح. ثم أركبهم

صمـد وزميله في السيارة لإحضارهم إلى المحكمة. وإذا بالمرأة تسحب في الطريق قنبلة يدويـة ألقتها وسـط السيارة، ما أدّى إلـى استشهاد السيـد «**مسكريـان**» زميل صمد على الفور، لكنّ صمد أُصيب بجروح فقط.

وصلنـا أمام باب الجناح، ذهب تيمور إلى الحارس الذي كان جالسًا أمام الباب وقال: «**نريد رؤية السيد إبراهيمي**».

عارض الحارس وقال: «**زيارته ممنوعة حاليًا**».

وبشكل لا إرادي، بدأتُ أتوسّل إليه وأبكي. في تلك الأثناء، وصلت الممرّضة. حين علمت أنّنـي زوجة صمد، رقّت لحالي وقالت: «**تستطيعين أنت فقط الدخول، لكن لدقيقتين أو ثلاث، عودي بسرعة**».

أحسست بوهن في قدميّ، وقفت أمام الباب وأمسكت به كي لا أقع على الأرض، حدّقت بنظـري إلى الأسـرّة الموجودة هناك، لم أجـد صمد داخل الغرفـة. كاد قلبي يتوقّف عن النبض، لم تعد أنفاسي تتصاعد، أين صمدي؟! ماذا حدث له؟!

فجـأةً، وقعت عيني على السيد «**يادكاري**» أحد أصدقـاء صمد الذي كان مستلقيًا على السريـر عنـد النافذة، رآني هـو أيضًا وقال: «**السـلام عليك يا سيـدة إبراهيمـي، السيد إبراهيمي نائم هناك!**» وأشار إلى السرير المجاور.

لـم أكن أصدّق أنّ ذلك الرجل النائم علـى السرير هو صمد، كم أصبح نحيلًا وهزيلًا ومصفـرّ اللـون، كانت وجنتاه غائرتين وعظامه بارزة من تحـت عينيه. خطوت خطوة إلى الأمـام. خفت كثيرًا لحظة رأيت قدميه الهزيلتين خـارج الغطاء، خطر ببالي، هل لا سمح الله... اقتربـت منه ووقفت بجانبه، أحسّ صمد بوجودي، فتح عينيه بصعوبة وقال بهدوء: «**أين البنتان؟**».

كادت العبـرة تخنقني، تكلّمت بصعوبة بالغة، وقلت له: «**عنـد أختي، إنّهم بخير، كيف حالك؟ أأنت بخير؟!**».

لـم يستطع الإجابة، هزّ رأسه إشـارة لتأييد كلامي ثم أغلق عينيه، كان هذا كلّ ما دار بيني وبينه.

تسمّرت عيناي على المصل وعلى كيس الدم المعلّق، فأتت تلك الممرّضة وأشارت إليّ بالخروج.

خرجت من الغرفة إلى الممرّ وعندها لم أعد أُسيطر على نفسي، جلست خلف الجدار، أمسكت تلك الممرِّضة بيدي وساعدتني على النهوض ثم قالت: «**تعالي وتحدّثي إلى الطبيب المشرف عليه**».

أخذتني الممرِّضة إلى الدكتور الذي كان واقفًا في الممرّ، وقالت له: «**دكتور، هذه زوجة السيد إبراهيمي**».

كان الدكتور يقرأ الملف، أغلقه ونظر إليّ مبتسمًا بكلّ هدوء، ألقى التحية وقال: «**سيدة إبراهيمي، لقد رأف الله بك وبزوجك السيد إبراهيمي، لقد تضرّرت كلتا كليتيه بشدّة، لكن وضع إحديهما خطير جدًا ومن المحتمل أن تتوقّف عن العمل**».

تريّث قليلاً ثم واصل كلامه: «**أرادوا في الليلة الماضية نقله إلى طهران، وكنت قد وصلت للتوّ فأجريت له عملية مستعجلة. لو تمّ نقله لكان من المحتمل أن تحدث له مضاعفات أكبر في الطريق. كانت نتيجة العملية التي أجريتها له مُرضية وقد زال عنه الخطر حالياً، بالطبع كما قلت لك، لم نستطع أن نفعل شيئًا من أجل الكلية الثانية**».

في الأيام الأولى كان تحمّل ذلك الوضع صعبًا إلا أنّني اعتدت عليه شيئًا فشيئًا. رقد صمد في ذلك المشفى مدّة عشرة أيام، كنت أضع خديجة ومعصومة عند جارتنا وأذهب إلى المستشفى، أبقى بجانبه حتى الظهر، ثمّ أعود إلى المنزل وأهتمّ بالطفلتين قليلا وأتناول الطعام، ثم أضعهما بعد الظهر عند جارتنا الأخرى وأذهب إليه حتى الغروب.

في أحد الأيام، ضجّت الطفلتان كثيرًا ولم أستطع تركهما مهما حاولت. كانت عقارب الساعة تقترب من الحادية عشرة ظهرًا وأنا ما زلت في المنزل، سمعت طرقًا على الباب، فتحته وإذا بأحد أصدقاء صمد؛ سلّم عليّ مبتسمًا وقال: «**سيدة إبراهيمي، جهّزي فراش السيد صمد واطبخي له قيماق**[1]**، لقد أحضرناه إلى المنزل**».

ألقيت نظرة على الزقاق، ورأيت صمد مستلقيًا في السيارة وبجانبه اثنان من أصدقائه، كان يضع رأسه على قدمي أحدهما في حين كانت قدماه على قدمي صديقه الثاني، ما إن رآني حتى ابتسم ملوّحًا بيده. ضحكت وسلّمت عليه عن بعد بإيماءة من رأسي ثم أسرعت نحو المنزل لأجهّز له الفراش.

---

(1) أكلة شعبيّة إيرانية.

بقـي أصدقاء صمـد بجانبه يُمازحونه ويضحكون معه حتـى أذان الظهر، وحين قرّروا المغادرة، أعطوني كيسين من الأدوية وأوضحوا لي كيفية استعمالها وذهبوا.

بعـد مغادرتهم قـال صمـد: «**ائتينـي بالطفلتيـن، لقـد اشتقتُ لهمـا كثيـرًا**». جئت بالطفلتين وأجلستهما إلى جانبه. في البداية، أنكرت خديجة ومعصومة والديهما. وعندما بـدأ صمد يُلاعبهما ويُضحكهما بتصرّفاته وبحركات وجهـه ورأسه، عرفتا أنّ هذا الرجل النحيف الضعيف والأصفر اللون هو والدهما.

غداة ذلـك اليوم بدأ الأقـارب والأصدقاء والمعارف في القرية يتوافـدون إلى منزلنا لعيـادة صمد. كان صمد منزعجًا مـن الوضع ويقول: «**لا أُريد لهـؤلاء المساكين أن يأتوا من القرية إلى هنا من أجل الاطمئنان إليّ**». لذلك اقترح عليّ بعد أيام: «**هيّا بنا لنذهب إلى قايش، أخشى أن يُصاب أحدهم بمكروه في الطريق، عندها سألوم نفسي**».

حضّرت حقيبة الأطفال وتجهّزت للسفر. لم يكن صمد يقدر على حمل الحقيبة ولا حتى أن يقود السيارة، فحملت معصومة وطلبت من خديجة أن تمشي بجانبي خطوة خطوة، ثم وضعت الحقائـب على كتفي بصعوبة بالغة. وصلنا إلى محطـة الحافلات وصعدنا الحافلة. كان علينا عنـد وصولنا إلـى رزن، أن ننزل من الحافلة لنركب أخرى تأخذنا إلـى قايش. نقلت الحقائب مرات ومرات من كتف إلى آخر. كنت في كلّ مرة أضع معصومة على الأرض ثم أحملها مجدّدًا وأمسـك بيد خديجة راجية منها أن تتبعني في السير. في تلك اللحظات كانت أمنيتي الوحيدة أن نجد سيارة توصلنا إلى قايش. أخيرًا أخذت قسطًا من الراحة عندما جلسنا في الحافلة.

نامت معصومة فـي حضني، بينما ضجرت خديجة وتململت ولم نستطع تهدئتها مهما حاولنـا. عنـد ذلك، أخذهـا بعض ركاب الحافلة، الذيـن نعرفهم وألهوها قليـلًا، بعدها استيقظت معصومة وغلبني النوم من شدّة التعب.

ما إن علم الأقرباء والأصدقاء بوجودنا في القرية حتى بدأوا يتوافدون إلى منزل والدي لعيـادة صمـد، كانت هذه أول مرة نمضي وقتًا فـي قايش، من دون أن أكون قلقة من ذهاب صمد. كان طريح الفراش ولم يقدر على التجوال هنا وهناك، كنت أُغيّر له الضمادة يوميًا وأُعطيه الأدوية في مواعيدها. كان الأمر قد انقلب رأسًا على عقب، فأنا أصبحت من يرغب فـي زيارة الأقارب والذهاب من منـزل إلى منزل وزيارة الأصدقـاء، وصمد يتذّرع ويقول: «**أين أنت يا قدم خير؟ تعالي واجلسي بجانبي، تعالي وتحدّثي معي، لقد ضجرت**».

بعـد عدّة سنوات من زواجنا كانت هذه أوّل مـرة نجتمع معًا، من دون خوف أو قلق من فراق أو غياب، نجلس ونتناول أطراف الحديث.

استطاعت خديجة أن تتسلّل إلى قلوب الجميع بطريقة حديثها الحلو، كان والدي يُحبّ الطفلتين بجنون، فهو يمضي معظم وقته معهما، ويأخذهما من مكان إلى آخر.

لـم تكن خديجة لتتـرك حضن «**شيرين جـان**» وكثيرًا مـا تُخاطبها بـ «**شينـا.. شينا**»، كمـا إنّ «**شيرين جـان**» كانت تتفانى في الاهتمام بها. أصبحـت طريقة خديجة في تسمية «**شيرين جان**» تؤثّر في الآخرين فهم أيضًا بدأوا ينادونها «**شينا**».

صار والدي يهتمّ بالطفلتين، وأنا أُمضي معظم أوقاتي بجانب صمد. في إحدى المرات قـال صمد: «**كـم تمنّيـت أن أجلـس بجانبك هكـذا وأتحدّث إليـك، يا ليت هـذه الأيام لا تنتهي يا قدم خير**».

أمّـا أنا فكأنّـي أردت أن أسمع منه هذا الكلام، أسرعت فـي الردّ عليه وقلت: «**صمد، تعال واترك العمل لنعود إلى قايش مرة أخرى**».

فأجـاب صمد من دون تريـث: «**لا.. لا أبدًا، لا تقولي هذا، أنا جنـديّ الإمام وعاهدت نفسـي أن أبقـى جنديًا له، بلدنا بحاجة إلينا هذه الأيام، وأنت بدلًا من هذا الكلام ادعي لـي أن أشفـى بسرعة لأعود إلى عملي. لو تعلمين كم تعبت من الجلوس، لا يجدر بي أن أنام في الفراش، لا بدّ أن أذهب لأخدم هذا البلد**».

كان الدكتـور قـد طلب لـه استراحة لمدّة شهريـن، لكنّنا عدنا إلى همـدان بعد مضيّ عشرة أيام فقط. وعند وصولنا إلى المنزل قال صمد: «**أنا ذاهب**».

ألححت عليه قائلة: «**لا تذهب، حالتك لم تتحسّن بعد، لم تلتئم جروحك حتى الآن، وسوف تنزف إذا تحرّكت كثيرًا**».

لم يصغِ لكلامي وقال: لقد اشتقت للإخوة، سأذهب لأتفقّدهم ثم أعود فورًا.

لـم يكن صمد شخصًـا يمكن إجباره على البقـاء في المنزل بالإصـرار والكلام. كان عندما يقول إنّه ذاهب، فمعنى ذلك أنّه سيذهب حتمًا. وفعلًا ذهب وعاد في المساء. حمل معـه شيئًا من الفواكـه واللحم والمأكولات، ثم توجّـه إليّ وقال: «**قدم خيـر! عليّ الذهاب ومـن المحتمـل أن لا أعود ليومين أو لثلاثة أيام، لقد تراكمت الأعمال في فترة غيابي ولا بدّ أن أُنجزها**».

فـي بداية مجيئنا إلـى همدان لم يكن لدينا أقـارب أو أصدقاء للتـزاور، كانت سلوتي الوحيـدة أن أمسـك بيد خديجة وأحمل معصومـة وأخرج للتسوّق. وعندمـا ألتقي بإحدى الجارات في الزقاق أطير من الفرح، فنتوقّف بجانب الشارع نخوض في الأحاديث معًا.

ذات مسـاء، اشتريت الخبز، وعند عودتي إلى المنزل، التقيت بنساء الجيران يقفن على باب أحد المنازل يتبادلن أطراف الحديث. في ذلك اليوم شعرت بضيق شديد، فوقفت معهنّ قليلًا وبعد التحية والسلام دعوتهنّ إلى المنزل لاحتساء الشاي معًا فقبلن الدعوة.

تقـدّم نحونـا، في تلك الأثناء، رجـل مسرع من آخر الزقاق، يحمـل مكنسة وعددًا من الكتب، سألنا: «**هل أنتم من قرية حاجي آباد؟**».

نظرنا إلى بعضنا وأجبناه: لا! سأل الرجل: «**فمن أين أنتم إذاً؟**».

كان صمـد قد سبـق وأوصاني أن أنتبه جيدًا فلا أختلط مع غرباء ولا أُعطي أي معلومة شخصية أو عائلية لأحد، لذلك كنت متيقّظة جدًا ولم أقل شيئًا.

لكـنّ الرجل بدأ يُكثر مـن أسئلته: «**أين منزلكم؟ مـاذا يعمل أزواجكم؟ مـن أيّ قرية أنتم؟**» عندما وصل الأمر إلى هنا، فتحت الباب بالمفتاح لندخل المنزل، بينما قالت إحدى النسـاء: «**يـا سيد، لديك كلّ هـذه الأسئلة، ابق هنا قليلًا لأُخبر زوجـي كي يأتي ويُجيب عن أسئلتك، فبإمكانه مساعدتك أكثر منّا**».

ما إن سمع كلامها حتى انصرف مهرولًا من دون وداع.

قالـت الجارة حينما ابتعد الرجل عنّا: «**سيدة إبراهيمي، هـل رأيت كيف أخفته؟ قلت له إنّ زوجي في البيت رغم أنّه ليس هناك أحد في منزلنا**».

وقالـت إحدى النساء: «**أعتقد أنّ المنافقين هم من قاموا بإرسال الرجل للبحث عن زوجـك وأراد التعـرّف إليكـم لينتقمـوا منـه بسبب أولئـك الذين ألقى القبض عليهم**».

أخافني هذا الكلام وفزعت أن يُصاب صمد بمكروه مجدّدًا.

أخافتنـا هذه الحادثة، لذلك لم تدخل الجارات، وتفرّقنـا. أقفلت الباب جيدًا وكذلك أقفلت باب المنزل الداخلي ووضعت خلفه كرسيًّا.

تلك الليلة عاد صمد مبكرًا قليلًا وعندما رأى الوضع سأل: «**ما هذه التصرُّفات؟**».

أخبرته بما جرى اليوم، فضحك وقال: «**حقًّا أنتنّ النساء تخفن من كلّ شيء، لا داعي للخوف**».

ارتدى ملابسه بعد العشاء، سألته: «**إلى أين؟**» أجاب: «**ذاهب إلى مقرّ اللجان**[1]**، لديّ بعض الأعمال، ربما لن أعود لعدّة أيام**».

بكيت وتوسّلت إليه وقلت: «**ألا يُمكنك البقاء؟**» أجابني بهدوء تام: «**لا!**».

قلت: «**إنّني خائفة، إذا عاد الرجل مع جماعته في منتصف الليل فماذا أفعل؟**»

فـي البداية لم يأخذ صمد الموضوع على محمل الجـدّ، لكنّه عندما رآني خائفة أخرج سلاحـه وأعطانيه وقـال: «**إذا حـدث شـيء استعملي هذا**»، ثـم علّمني طريقـة استخدام المسدّس وذهب.

وضعـت المسدّس تحت وسادتي ونمت خائفة. في منتصف الليل استيقظت على صوت طـرق الباب، أخذت المسدّس وذهبت إلى الفناء. لكن كلّما سألت: من الطارق؟ لم يُجبني أحـد، مـا إن عدتُ إلى الغرفة حتى طُرِق الباب مجـدّدًا. كنت حائرة، لا أعرف ماذا أفعل. اقتربـت من الباب ثانية ووقفت خلفـه وسألت عدة مرات: «**من بالباب؟**» لم أسمع ردًّا هذه المرة أيضًا.

تكرّرت القصة تلك الليلة عدة مرات، كان صوت الجرس يرتفع عند عودتي إلى الغرفة ولكن لم يكن أحد يُجيب من خلف الباب، فتأكّدت بأنّ هناك من يريد إزعاجنا ومضايقتنا. ولشـدّة خوفي أضـأت كلّ أنوار البيت، وفـور سماعي جرس الباب هـذه المرة صعدت إلى السطح وجهّزت السلاح.

رأيـت رجليـن واقفين في وسط الزقـاق يتحدّثان معًا، تأكّدت أنّهمـا من طرقا الباب، فوجّهت السلاح صوبهما لكنّني انتبهت فجأة أنّ أحدهما جارنا السيد عسكري الذي كانت زوجته على وشك الولادة.

سـررت لرؤيته وناديته من علـى السطح وقلت: «**سيد عسكري، أهـذا أنت؟**» ثم ركضت نحو الباب لأفتحه.

كان السيـد عسكـري إنسانًـا محترمًا جدًا وملتزمًـا ونجيبًا، وكانت مـن عادته عندما يطـرق الباب أن يبتعـد قليلًا عنه، فلم يكن يسمـع صوتي من خلف الباب. لقـد أتى الليلة ليطلب مساعدتي، لأنّ زوجته كانت على وشك الولادة.

---

(1) يقصد بها لجان الثورة.

الفصل الثاني عشر

حادثة السرقة

انتقلنا بعد فترة من ذلك المنزل واستأجرنا منزلًا آخر في شارع هنرستان. أثناءها، مرضت معصومة وساءت حالتها إلى حدّ اضطررنا لنقلها إلى المستشفى وسط تلك الانشغالات. كان صمد قد باع سيارته. وبقينا من دون سيارة، ما زاد من صعوبة تنقّلنا إلى هنا وهناك. عند الظهر عدنا من المستشفى، أوصلنا صمد إلى أوّل الزقاق ثم ركب سيارة أجرة وعاد إلى عمله.

كنت أحمل معصومة وخديجة تمسك عباءتي متثاقلة في المشي، كانت تطلب أن أحملها هي أيضًا. أمسكت عباءتي بأسناني وأمسكت يد خديجة مع كيس الدواء بيدي الثانية.

وصلت إلى المنزل بعد طول عناء، وأخرجت المفتاح بصعوبة من حقيبتي لأفتح الباب، لكن الباب لم يفتح. حاولت مجدّدًا ولم أُفلح، رغم أنّ القفل كان يفتح لكن الباب لم يفتح، كأنّ أحدًا أقفله من الداخل، طرقت الباب عدة مرات، وبعد لحظات تملّكني الخوف. طرقت باب الجيران وأخبرتهم بما حدث. خافت الجارة إلى حدّ أنّها لم تقدر أن تخطو خطوة واحدة، استأذنت منها كي أترك الأطفال عندها لأذهب وأُخبر صمد، فقبلت الجارة وأخذت منّي الأطفال. أسرعت نحو الشارع العام. طال انتظاري من دون أن تمرّ حتى سيارة واحدة.

قليلًا ما كانت السيارات تتردّد إلى شارع هنرستان. لم يكن باليد حيلة، كانت المسافة طويلة حتى أصل إلى مرقد «**بو علي**» وكان عليّ أن أطويها سيرًا على الأقدام، فحثثتُ الخطى وركضت حتى وصلت إلى المرقد. لم يكن قد بقي أمامي مسافة طويلة حتى أصل إلى شارع «**خواجه رشيد**» حيث يقع مقرّ اللجنة، لكنّني تعبت كثيرًا ولم أقو على المسير حتى خطوة واحدة، فقد كان تعب أيام الانتقال من المنزل قد أخذ منّي كلّ مأخذ، إضافة إلى أنّ قلّة النوم في الليالي الماضية ومرض معصومة والمكوث في المستشفى قد أنهك

قـواي. لكن رغم ذلـك كان لا بدّ من متابعة السير، فاستأنفت الركض وعندما وصلت أمام مركز اللجنة كاد ينقطع نفسي.

رأيـت أمام الباب جنديّ حراسة فقلت له: «**أريد السيـد إبراهيمي، أخبروه أنّ زوجته علـى البـاب**». اتّجه الجنديّ نحو غرفة الحراسة ورفـع سماعة الهاتف، اتّصل وقال: «**سيد إبراهيمي، إنّ زوجتكم أمام الباب بانتظاركم**».

كان صمد يتكلّم بصوت عال بحيث كنت أسمع صوته، فسأل باستغراب: «**زوجتي؟! هل أنت متأكّد؟ لقد أوصلت زوجتي والأطفال إلى المنزل منذ قليل**».

دخلـت الغرفة وقلت بصوت مرتفع: «**سيـد إبراهيمي، هل لك أن تأتي عند الباب، لقد طرأ شيء مهمّ**».

بعد قليل أتى صمد، ما إن رآني حتى سارع في السؤال من دون تحية: «**ماذا حدث؟ هل الطفلتان بخير؟ أنت بخير؟!**».

قلت: «**جميعنا بخير، ليس هناك من شيء غير أنّني أظنّ أنّ المنزل تعرّض للسرقة، تعال معي، لم أستطع فتح الباب**».

تريّث قليلًا وقال: «**سأعود فورًا**».

ذهـب وعاد بعـد قليل بصحبة أحد الجنـود، أدار الجنديّ محـرّك السيارة التي كانت مركونـة جانـب الجدار، جلس صمـد في المقعد الأمامـي وجلست أنا فـي الخلف، بعد أن انطلقـت السيارة التفت إليّ صمد وسألني: «**ماذا فعلـت بالطفلتين؟**» قلت: «**تركتهما في منزل الجيران**».

أقلّتنا السيارة بسرعة إلى شارع هنرستان ودخلنا في الزقاق ووقفنا أمام باب المنزل.

نـزل صمد من السيارة وأخرج المفتاح وحاول أن يفتح البـاب فلم يُفلح. تسلّق الجدار بعدما تأكّد هو أيضًا أنّ الباب قد تمّ إغلاقه من الداخل.

قلـت للجنـديّ: «**يا سيد، بالله عليك إلا مـا تبعته، من المحتمـل أن يكون أحد ما في الداخل**».

وضـع الجنـديّ قدمه على مقبض البـاب وتسلّق الجدار، ثم قام بفتحـه وقال: «**لا يوجد أحد، لقد دخل السارقون عبر السطح وغادروا عبره**».

كان المنـزل مبعثـرًا. صحيح أنّنا لم نكن قد رتّبنا الأثاث بعـد، لكنّ الأغراض لم تكن

علـى تلك الحال! كانـت الملابس مرمية وسط الغرفة والفراش إلى جانب، والأواني القليلة التي نمتلكها كانت مرمية في المطبخ وقد كُسرت بعض الصحون وعدد من الأكواب.

كان صمد مرتبكًا كأنّه يبحث عن شيء، ناداني وقال: «**قدم خير! المسدّس! مسدّسي غير موجود، يا لها من مصيبة!**».

كنـت واثقة من أنّ مـكان المسدّس أكثر أمنًا من أيّ شيء آخـر، كنت قد خبّأته بحيث لا يقـدر أحد على إيجاده، فذهبت نحـوه. وكان ظنّي في مكانه؛ أخذت السلاح ووضعته في يـد صمد الذي تنفّـس الصعداء كأنّ أمرًا لم يحدث، وقال ببـرودة أعصاب: «**لقد سرقت النقود فقط، لا بأس، فداك وفداء البنتين**».

صعقنـي الخبر، وخارت قواي فجلست على الأرض؛ لقد سُرق ثمن السيارة التي بعناها منذ أسابيع قليلة! كنت قد وضعته في علبة حليب الأطفال داخل الخزانة.

بعد قليل فتّشت عن الحليّ الذهبيّة القليلة التي أملكها فلم أجدها، لقد سرقوها أيضًا.

راح صمـد يواسيني ويقول: «**لا تحزنـي، سأعوّضها لك بأفضل منها، قليل من النقود وبعض الذهب لا يستحقّان كلّ هذا الحزن، المهم أنّ السلاح لم يُسرق وبقي لله الحمد في مكانه**».

بعد ساعة انصرف صمد مع الجنديّ وبقيت أنا بمفردي.

أحضـرت البنتين من منـزل الجارة، لكنّني لم أستطع فعل شـيء مهما حاولت. أصبحت أخـاف مـن الدخول إلى الغرفة أو المطبخ. كنت أتخيّل دائمًا أنّ هناك أحداً ما خلف الباب أو مختبـئ وراء البـراد أو تحت الدرج. لذلك فرشت السجادة في إحدى زوايا الفناء وجلست أنا والبنتان هناك. كانت حالة معصومة سيئة لكنّني لم أجرؤ على دخول المنزل.

عـاد صمد في المسـاء وكنّا ما نزال جالسـات في الفناء. استغـرب الوضع، فقلت له: الأمر ليس بيدي، أنا خائفة فعلًا.

صدمة الحادثة جعلتني أفقد علاقتي بالمنزل. حمل الأطفال وأخذهم إلى الغرفة، وأنا أيضًـا دخلت بمساعدته وحضّرت العشاء. ظلّ صمـد يرتّب الأغراض حتى منتصف الليل، فقلت له: «**لا تُتعب نفسك في ترتيب الأغراض، لن أسكن هذا المنزل، إما أن تجد منزلًا آخر أو نرجع إلى قايش**».

ضحك وقال: «**قدم خير، أصبحتِ طفلة؟**».

قلت: «**أنت لست معي من الصباح إلى المساء، وبعد أيام سوف تتركني وتذهب في مهمة، فماذا سأفعل بمفردي إن عاد اللصوص ثانية؟**».

قال: «**لا أستطيع أن أذهب إلى صاحب البيت لأعيد له المنزل**». قلت: «**سأذهب شخصيًا إذا وافقت أنت**».

لزم الصمت ولم يقل شيئًا، فعرفت أنّه يفكّر.

في اليوم التالي، عاد صمد عند الظهر مسرورًا، وقال: «**لقد تحدّثت مع صاحب المنزل، ووجدت لكم مكانًا آخر لكنّه لم يرقني، لو تصبرين قليلًا فأجد مكانًا أفضل**».

قلت: «**كيف ما كان أنا موافقة، دعنا نذهب من هنا في أسرع وقت ممكن**».

انتقلنا في اليوم التالي إلى البيت الجديد الذي كان يشتمل على غرفة كبيرة قد طُليت حديثًا.

لم يكن لدينا كثير من الأثاث، فرتّبته داخل الغرفة. لن أنسى تلك الليلة التي نمت فيها براحة كاملة، لكن الأوضاع قد تغيّرت عندما استيقظت في الصباح.

ألقيت نظرة من جديد إلى كلّ شيء وبعينين مفتوحتين، كان في الطرف المقابل من الفناء عدد من الغرف يضع فيها صاحب البيت بعض الأغنام والأبقار.

كانت رائحة الصوف والعلف والروث تفوح في الغرفة، ولم نكن نقوى على العيش من كثرة الذباب أيضًا، لكن لا بدّ من تحمّل هذا الوضع من دون تذمّر.

عاد صمد في المساء واكتشف الأمر بنفسه، وقال: «**قدم خير، هذا المكان ليس مناسبًا للسكن، يجب أن نبحث عن مكان أفضل، سيمرض الأطفال هنا، ربما سأضطرّ للذهاب إلى مهمة، فوضع البلد ليس على ما يرام، لكن يجب أن أطمئنّ عليكم أوّلاً**».

الفصل الثالث عشر

صمد على الحدود العراقيّة

أوصى صمد أصدقاءه بالبحث عن منزل مناسب لنا وهو أيضًا كان مهتمّاً بالأمر وقال: «**لا بدّ من منزل جيد ومريح يقع على مقربة من الفرن والسوق، وأن يكون صاحبه طيبًا حتى يُعينكم أثناء غيابي**».

قمت مرةً أخرى بجمع الأغراض ووضعتها جانبًا. جاء صمد بعد عدة أيام مسرورًا وقال: «**وأخيرًا وجدته! منزل جيد ومريح وصاحبه مؤمن وعطوف، مبروك عليكم!**».

سألت باستغراب: «**مبروك علينا؟!**».

فكّر مليًا كأنّه تذكّر شيئًا، ثم قال: «**خلال الأيام المقبلة سأتّجه إلى الحدود، لقد بدأت الحرب، وهجم النظام العراقي البعثي على إيران**».

لم أكترث كثيرًا لكلامه. ذهبنا إلى المنزل الجديد لنُعاينه عن قرب، كان المنزل يقع خلف خزانات النفط في ضاحية المدينة. لم تكن المنطقة جيدة للغاية، لكنّ المنزل كان جيدًا وجدرانه مطلية حديثًا باللون الأخضر الفستقي، وفيه نوافذ كثيرة أيضًا. كان مريحًا على عكس المنزل السابق. وكما قال صمد، كان صاحب المنزل رجلًا مؤمنًا وعطوفًا، يسكن في الطابق السفلي. في ذلك اليوم، وضعنا المرآة والقرآن في المنزل ونقلنا بقية الأغراض في اليوم التالي.

قمت بمسح الزجاج أوّلًا ثم فرشت الموكيت بمفردي، لم يكن لدينا سوى سجادة من ستة أمتار هدية أبي الحاج، ففرشتها في وسط الغرفة، ووضعت المساند في الأطراف، بعد ذلك بدأ المنزل يبتسم في وجهي.

في الأيام الأولى، كانت مهمّتي تنظيف الأغراض وترتيبها في أماكنها الخاصة، حتى شعرة واحدة لا تكاد ترى على الأرض. كان المنزل جميلًا يضم غرفتين حيث قمت منذ البداية بإغلاق إحديهما وخصّصتها لاستقبال الضيوف. لم يكن في المنزل شيء آخر

سوى مطبخ ومرحاض وحمام، لكنّه كان أجمل منزل استأجرناه في همدان.

أحضر صمد عند عودته عصرًا شريطًا لاصقًا أسود اللون، ألصقه على النوافذ على شكل علامة الضرب (×)، بحيث بقيت آثار أصابعه على النوافذ. اعترضت عليه وقلت: «**لماذا فعلت ذلك بالنوافذ؟! لقد تعبت كثيرًا بتنظيفها**».

قال: «**لقد بدأت الحرب؛ قصف النظام العراقي المناطق الحدودية، وهذا اللاصق يمنع تشظّي الزجاج جرّاء القصف**».

لم يكن عندي خيار آخر سوى أن أقبل بهذا الأمر رغم أنّي شعرت أنّ هذا اللاصق الأسود قد أطبق على قلبي!.

كان صمد يذهب ويعود بأخبار سيّئة. في إحدى الليالي ذهب إلى الجيران وأوصاهم بنا حسب قوله، وفي اليوم التالي اشترى مقادير من الحبوب والأرز واللحوم. قلت: «**ما خطبك؟!**» قال: «**سأذهب غدًا إلى خرمشهر، ربما لا أعود لعدة أيام، أو ربما لن أعود أبدًا**».

خنقتني العبرة، أعطاني مقدارًا من النقود، تناول الغداء وقبّل البنتين، حضّر حقيبته ثم ودّعنا وذهب.

أصبح المنزل الذي كان بنظري شرحًا وجميلًا، وكأنّه خاوٍ بلا روح. لم أكن أعلم ماذا أفعل. نامت البنتان بعد الغداء، وذهبت إلى الحمام بحجّة غسل الملابس المتّسخة وأخذت أغسل الثياب وأذرف الدموع.

بعد قليل، سمعت صوت الباب، غسلت يديّ وذهبت لأفتح الباب؛ كانت زوجة صاحب المنزل التي شعرت بحزني لذهاب زوجي فجاءت تواسيني.

قالت لي: «**تبيع تعاونية الحيّ أكوابًا بالبطاقة التموينية، تعالي لنذهب ونشتري منها**».

لم أرغب بالذهاب، فتذرّعت بنوم البنتين. أنا التي كنت قبل عدة أيام أعشق التسوّق وشراء أغراض المنزل، فجأة أصبحت أكره كلّ شيء، فقلت في نفسي: «**إنّها الحرب، وزوجي قد ذهب إلى الجبهة، لا أحد يعرف ماذا سيكون مصيري ومصير حياتي، فبماذا ستنفعني تلك الأكواب؟!**».

واصلت الجارة حديثها: «**هل ترغبين أن آتي مرة أخرى عندما تستيقظ الصغيرتان لنذهب معًا؟**».

قلت: «**لا، اذهبي وحدك، لن أُزعجك**».

لـم أُرافقها في ذلك اليوم، ذهبتُ بعد أسبوع إلى التعاونية واشتريت الأكواب ووضعتها في الخزانة وفرحت لشرائها.

تغيّـر حال المدينة. أصبحت الليالـي مظلمة، وبين الحين والآخر تعلو صفّارات الإنذار عبـر المذياع. كانـوا يُعلّمون الناس ما هـو معنى الوضعية الصفراء والحمـراء والبيضاء، وماذا عليهم أن يفعلوا عند سماع أيٍّ منها. وقد حدث بالفعل مرات عدّة أن أُعلنت الوضعية الحمراء، فينقطع التيار الكهربائي، لكن ما تلبث الأمور أن تعود إلى الوضعية البيضاء من دون أن يحصل شيء.

كانـت هذه الحالة تُخيـف الناس وتُرعبهم أوّل الحـرب، وشيئًا فشيئًـا، اعتادوا عليها وتأقلموا معها.

مـرّ على غياب صمـد خمسة وأربعون يومًا، مرّت ثقيلة صعبة. قـرّرت أكثر من مرّة أن آخـذ الطفلتيـن وأعود إلى قايش، لكن عندمـا أُفكّر بصمد وأنّه ربما يعـود في هذا الوقت وينزعـج لغيابنـا، أتراجع عن قراري. كنت كلّ يوم أنتظر رنين الجرس لأفتح الباب ويدخل صمـد، لكنّ الانتظار طال كثيرًا وأصبـح صعبًا ومزعجًا إلى حدّ أنّي أخذت االطفلتين ذات يوم وذهبت إلى المعسكر لأسأل عن صمد. استطعت أخيرًا وبصعوبة أن أحصل على بعض الأخبار، قالوا: «**نحن مطّلعون على أخباره، هو بخير لله الحمد**».

عـدت إلى المنزل وكأنّ الحياة دبّت فيّ من جديد لمجرّد سماعي هذا الخبر البسيط. كان الوقـت ظهـرًا وجميعنا متعبيـن وجياعـاً، كانت قدما خديجـة الصغيرتـان تؤلمانها ومعصومـة أيضًا تبكـي جوعًا. انشغلت بمعصومـة أوّلًا، أرضعتها فنامـت، وعالجت وضع خديجـة؛ وضعـت قدميها في الماء الساخن وغسلتهما، ثـم أطعمتها وخلدت إلى النوم هي الأخرى، ولأنّهما كانتا متعبتين للغاية، نامتا حتى العصر.

فـي تلك الليلـة، رأيت صمد فـي المنام، يحمـل معصومة وخديجة، يركضـ بهما في الصحـراء، ويطاردهم عـدّة أشخاص مسلّحين، كأنّهـم أرادوا أن يأخـذوا الطفلتين منه بقـوة. فجأة! استيقظت من النـوم، كان قلبي ينبض بسرعة وقـد تصبّب العرق البارد من جبينـي. نهضـت وشربت كوبًا من الماء وعدت إلى النوم، والعجيـب أنّي رأيت الحلم نفسه مجـدّدًا فاستيقظت من شـدّة الخوف مرة أخرى. ثم عدت إلى النـوم للمرة الثالثة ورأيت

الحلم ذاته! في المرة الأخيرة استيقظت مرعوبة وقرّرت أن لا أنام مجدّدًا وقلت في نفسي: عدم النوم أفضل من رؤية هذه الأحلام!.

هـذه المرة بدأت الأصوات التي تصدر من الخـارج تُخيفني، فكنت أسمع أصواتًا تأتي مـن ناحيـة الدرج وكأنّ شخصًا ما يصعد من الأسفل إلى الأعلى لكنّه لم يصل إلى الطابق الثانـي. كنت قد أقفلت البـاب؛ رأيت خلف النافذة ظلال أشخاص غرباء ذوي وجوه كبيرة وأيادٍ سوداء.

نظـرت إلـى معصومة وخديجـة النائمتين بجانبي بهـدوء، وضعت أصابعـي في أذنيّ واختبـأت تحت البطانية لكن مهما حاولت، لم أستطـع النوم. لا أعلم كم مضى من الوقت عندمـا سُحـب الغطاء عنّـي ورأيت ظـلًا واقفًا فوق رأسـي بلحية وشـاربٍ أسودين. ما إن أُضيئت الغرفة حتى تأكّدت أنّه صمد. وضعت يدي على قلبي وقلت: «**لقد أخفتني، لماذا لم تطـرق البـاب؟**» ضحك وقال: «**قرّة عيني، أصبحـت تخافين منّي؟**» قلت له: «**لو تنحنحت قليلًا! لقد أخفتني كثيرًا**».

قال: «**سيدتي، طرقت الباب ولم تسمعي، فتحت قفل الباب ولم تسمعي، دخلت البيت ونادیتـك ولـم تُجيبـي، ماذا أفعل أكثر؟ يـا لك من مرتاحة البال، كنـت غارقة في سبات عميق!**».

اتّجه نحو الطفلتين، انحنى وقبّلهما قدر استطاعته.

لـم أقـل له إنّي رأيـت أحلامًا مرعبة، لم أقـل إنّ الخوف كان قد سيطـر عليّ وإنيّ قد وضعت أصابعي في أذني فلم أسمع صوته.

سألني: «**هل عندنا ماء ساخن؟**» نهضت وأجبت: «**في هذا الوقت من الليل؟**».

قال: «**جسمي ملطّخ بالتراب، لم أستحم منذ شهر تقريبًا**».

ذهبـت إلى المطبخ وأشعلت سخّان الماء. وقف خلفي وبدأ بالحديث عن أنّ العراقيين دخلـوا «**خرمشهـر**»؛ وأنّ المدينة قد سقطت وقدّمنا عددًا كبيرًا من الشهداء، كما يحاصر العراقيـون «**آبادان**» التي تتعرّض لقصف يومي ومحاولات الاقتحام. تحدّث عن عدم كفاءة «**بني صدر**»[1] وعن عدم توافر السلاح والعتاد.

---

(1) الرئيـس الإيرانـي الأسبق (بداية الثمانينيات من القـرن الماضي) الذي خان الأمانـة وتعامل مع العدو سرًّا وهرب متخفّيًا إلى فرنسا بعد انكشاف أمره وما زال هناك إلى الآن.

سألته: «**هل تعشّيت؟**».

قال: «**لا، لكن لا شهيّة لي للطعام**».

أعـددت له ما تبقّـى من طعام الغداء. مـددت السفرة ووضعت عليهـا كأسًا من اللبن والمخلّـلات وصحنًا مـن الخضار التي أرسلتها لي صاحبة المنـزل، ثم سكبت له الطعام، كان قليلًا من «**الإشكنة**»[1] فبدأ يتناوله. بعدما تناول ملعقتين أو ثلاثاً، إذا بعينيه احمرّتا. سألته: «**هل الطعام حارٌ؟**» هزّ رأسه بالنفي، ثم توقّف عن الأكل. وضع الملعقة في الصحن وأخذ يبكي. سألته بقلق: «**ما خطبك؟ هل حصل شيء؟**».

لـم أكـن أُصدّق أنّ صمد يبكي بهـذا الشكل، كان يضع يديه علـى وجهه ويبكي بصوت مرتفع.

قلت: «**لقد فطّرت فؤادي، قل لي ماذا حدث؟**»

قـال: «**كيـف آكل هذا الطعام والشبـاب على الحدود جيـاع، ومحاصرون تحت قصف دبّابـات البعثييـن، ليس بحوزتهم سلاح ليُحاربوا به، ولا طعـام ليأكلوه، ولا يوجد مكانٌ للنوم، يا لحال هؤلاء المساكين**».

أمسكتُ بيده وشددتها نحوي، قلت: «**أنت تقول إنّها حرب، لا مفرّ منها إذًا، هل ببكائك وبعدم تناولك للأكل سيشبع هؤلاء أم ستتحسّن الأمور؟ تقدّم وأكمل طعامك**».

بعـد إصراري، أكمل طعامه. حاولـت أن أُغير الحديث، لأُبعده عن أجواء الحرب، كنت أتحدّث عن تصرّفات خديجة المسلّية، عن أسنان معصومة التي بدأت تظهر، وعن الأمور التـي حصلت لنا خلال فترة غيابـه، حينها استرجع شهيّته رويدًا رويـدًا وأكل كلّ ما حوته المائدة من اللبن والمخلَّلات والخضار والإشكنة.

قلت له وأنا أضحك: «**حقًّا إنّك عدت من الحرب**»!

ضحـك مـن كلّ قلبه وقال: «**هـل تُصدّقين لو قلـت لك إنّنـي لم أتناول خـلال الأيام الأخيرة غير كسرات الخبز وبعض البسكويت**»؟!

عندما انحنيت لأرفع السفرة، قبّل جبيني فأطرقت رأسي.

قال: «**سلمت يداك، كان الطعام لذيذًا جدًا**».

ضحكت وقلت: «**بالهناء والعافية، لم يكن بالطعام الجيّد، لكنّك كنت جائعًا للغاية**».

---

(1) مرق اللحم، أكلة شعبيّة.

وقـف ليذهب إلى الحمـام فتأمّلته جيدًا، كان قد نحف كثيـرًا، فتمتمت: «**يا إلهي، هل هذا هو زوجي؟ أهذا صمد؟ ماذا فعلت به الحرب**»؟!

ثم دعوت الله أن يُبعد شبح الحرب عن الجميع.

ولـم أعـد أسمع سـوى صوت الماء الـذي يجري فـي الأنابيب، أطفأت ضـوء المطبخ، وعادت الحياة إلى جدران البيت وضحكت لي مجدّدًا مع أنّ الوقت تجاوز منتصف الليل.

الفصل الرابع عشر

تحمّل المتاعب

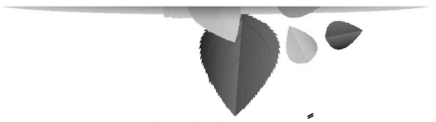

فــي صباح اليوم التالي، ذهب صمد ليجول قليلًا. عندما عاد كان قد اشترى كيلوين أو ثلاثــة من اللحم، ودجاجتين وخضارًا وتشكيلة من الفواكه. قلت: «**لِمَ كلّ هذا؟! هل لدينا ضيوف؟ ما خطبك؟**».

فأجاب: «**إن كُتبت لي الحياة هذه المرّة، فلن أعود قبل عدّة أشهر أو ربما حتى نهاية السنة، وقد أبقى إلى نهاية الحرب**».

قلت: «**حقًّا! وماذا لو طالت الحرب عدّة سنوات؟**».

قــال: «**لا.. لا سمـح الله. بـكلّ الأحـوال إنّهم يحتاجـون إليّ هناك كثيـرًا، لولاك أنت والفتاتان لما عدت حتى هذه الأيام القليلة**».

وضعــت اللحم فــي حوض الجلي وفتحت الماء عليها، قلت لــه ثانية: «**بالله عليك، لقد اشتريت لحمًا كثيرًا، الأطفال لا يأكلون منه وليس هنا سواي، وهذا كثير جدًا**».

ذهــب إلــى غرفــة الضيوف، وضــع الطفلتين علــى قدميه وبـدأ باللعب معهمــا. قلت: «**صمد!**» قال: «**نعم يا عمري!**».

ضحكـت وقلت: «**هل نستطيع أن نذهب اليوم في نزهة؟ لقد ملّ قلبي من البقاء في المنزل**».

ردّ عليّ سريعًا وقال: «**هل ترغبين أن نستعدّ الآن ونذهب إلى قايش؟**».

وضعت اللحوم في المصفاة وقلت: «**لا، لم أقصد قايش، ستغيب عنّي بمجرّد وصولنا إلى هناك، أريد أن نذهب إلى مكان نكون فيه أنا وأنت والطفلتان فقط**».

أتى إلى المطبخ وكان يحمل الطفلتين معه، قال: «**كما ترغبين، إذًا أين نذهب؟**».

قلت: «**فلنذهب إلى الحديقة العامة**».

رفـع ستـارة المطبخ وألقى نظرة إلـى الخارج وقال: «**الجـوّ بارد، نحن يـا سيدتي في منتصف فصل الخريف، ستمرض الطفلتان**».

قلـت: «**صحيح أنّنـا في فصل الخريف لكنّ الجوّ جيد، فالطقـس لم يبرد كثيرًا هذا العام**».

قـال: «**أنـا موافق، سنذهب عصرًا، لكن لو تسمحين لي بأن أذهب إلى الحرس وأعود بسرعة، لديّ عمل مهم**».

ضحكت وقلت: «**منذ متى وأنت تحتاج إلى إذني للذهاب إلى مقرّ الحرس؟**».

قـال ضاحكًا: «**لأنّي أخذت هذه الإجازة من أجلك فحسـب، وهذا حقّك، إن لم تأذني لي لن أذهب**».

قلت: «**اذهب، ولكن ارجع بسرعة، وإن تأخّرت فلن أبرئ ذمّتك**».

سرعـان ما وضع خديجة ومعصومة على الأرض ولبس الزيّ العسكري، كانت الطفلتان تهرولان خلفه وتبكيان. أخذتُ الطفلتين منه، وانحنى لينتعل حذاءه العسكري.

سألته: «**ماذا أعدّ للغداء؟**».

أنهى انتعال الحذاء وأجابني أثناء نزوله على الدرج: «**مرق اللحم**».

شرعـت بتنظيـف البنتين وإطعامهمـا، ووضعت أمامهمـا الألعاب، ثـم انصرفت إلى عملي. قطّعت اللحم ووضعته على النار ليُطهى ثم انشغلت بتنظيف الخضار.

عنـد الساعة الثانية عشرة والنصف كنت قد أنهيت كلّ أعمالي وأصبح الطعام جاهزًا وقد ملأت رائحته المنزل.

مددت السفـرة ووضعت عليها اللبـن والمخلّلات والخضار، كانـت الطفلتان جائعتين فأطعمتهما حتى شبعتا وانشغلتا باللعب في زاوية الغرفة.

استلقيـت بجانـب السفرة وعينـاي مسمّرتان على الباب. اقتربت عقـارب الساعة من الثانيـة ولـم يكن صمد قد عاد بعد. غفـوت حيث كنت مستلقية إلى جانـب السفرة. أفقت فجأة على صوت معصومة، كانت الساعة تشير إلى الثالثة عصرًا، لقد تشاجرت الطفلتان مـع بعضهما وعلا بكاؤهمـا بعد أن رمتا كاسات اللبن والمخلّـلات والخضار على السفرة، غضبت منهما لكنّهما مجرّد طفلتين لا تعلمان سوء فعلتهما.

رفعـت السفرة وأخذتها إلى المطبخ، ثم أخذتهما وغسلـت أيديهما ووجهيهما، وبدّلت

ملابسهما التي فاحت منها رائحة المخلّل واللبن، أرضعت معصومة فنامت، ثم أطعمت خديجة أيضًا ونامت هي الأخرى. فرشت فراشهما وغطّيتهما ثم ذهبت إلى عملي. غسلت السفرة وأعددت «**العجّة**» للعشاء. كان الظلام يخيم شيئًا فشيئًا على الأجواء.

بدأت أتمرّن ماذا عليّ أن أقول لصمد عندما يعود، كنت غاضبة منه ولا بدّ أن أقول له كلّ ما كان يجول بداخلي.

استيقظت الطفلتان على صوت الباب وركضتا نحو صمد، حملهما وأتى إلى المطبخ وكان بيده كيس صغير، سلّم عليّ فأجبته ببرودة. دفع بالكيس وقال: «**خذي هذا، لقد تعبت يدي**». ثم راح يُلاطف الطفلتين ويناغيهما. كنت غاضبة منه فقلت: «**ضعه على الطاولة**».

قال: «**لا، يجب أن تأخذيه من يدي**». أخذت منه الكيس بانزعاج، كان فيه منديل بنفسجيّ من الصوف من أحدث موضة. لم أردّ عليه في البداية لكنّي تذكّرت «**شينا**» حين أوصتنا أن نقول لأزواجنا عندما يحضرون لنا الهدايا: «**سلمت يداك لماذا أتعبت نفسك**»، حتى وإن لم تُعجبنا الهدية، فقلت له لا إرادياً: «**لمَ أتعبت نفسك، هذا باهظ الثمن**».

وضعت المنديل على رأسي، ضحك وقال: «**كم يليق بك!**».

نسيت تمامًا كم كنت غاضبة منه مع أنّي كنت قبل قليل أُخطّط للشجار معه.

قال: «**هل أنت جاهزة للخروج؟**».

«**إلى أين؟**».

«**إلى المتنزّه**».

«**الآن؟ لا تُتعب نفسك، لقد حلّ المساء**».

«**بالله عليك قدم خير لا تؤذيني، لا تُعكّري الجو فقد تتحسّرين غدًا عندما أذهب**».

لم أُجبه، غير أنّني وضعت «**العجة**» في وعاء محكم بغطاء وأخذت أيضًا الخضار والمخلّل والخبز وإناءً حافظًا لحرارة الشاي، ووضعت كلّ شيء في سلّة كبيرة. ارتديت ملابسي ووضعت المنديل على رأسي، وقفت أمام المرآة لألقي نظرة، كان صمد محقًّا، فعلًا كان المنديل يليق بي.

قلت: «**سلمت يداك، لقد اشتريت شيئًا جيدًا، إنّه كبير وبإمكانه تدفئتي**».

كان صمد يُلبس الطفلتين ملابسهما، قال: «**اخترته كبيرًا عن قصد، بعد فترة سيبرد الجو، عند ذلك سيُغطّي المنديل رأسك وأُذنيك ويدفئها**».

كان صمد قد اتّفق مع صديقه الصيدلي على أن يأتي مع عائلته ليُقلّنا بسيارته، فحضر بعد وقت قصير. سرنا طويلًا خارج المدينة حتى وصلنا إلى ثكنة «**قهرمان**»، نزل صمد من السيارة وذهب إلى غرفة الحراسة.

كانت زوجة الدكتور تحمل معصومة في حضنها تُلاطفها وتُلاعبها كثيرًا، فقد تزوّجا منذ سنوات ولم يُنجبا أطفالًا.

حلّ الظلام تمامًا عندما سمحوا لنا بالدخول إلى المعسكر. بحثنا قليلًا حتى استطعنا أن نعثر على مكان مناسب للجلوس عند أشجار الصنوبر المعمّرة، فرشنا البساط تحتها وجلسنا حيث كان عدد من أعمدة الإنارة يضيء المكان.

كنّا في فصل الخريف وأوراق الأشجار الصفراء قد ملأت المكان بفعل الهواء الذي كان يداعب أغصان الأشجار، فوضعت زوجة الدكتور البنتين تحت عباءتها لتقيهما البرد. أتيت بإبريق الشاي وسكبته في الأقداح. فجأة، انقطعت الكهرباء وعمّ الظلام.

قال صمد: «**بسم الله، لقد أصبحت الوضعية حمراء!**».

لم نكن نستطيع في تلك الظلمة أن نرى شيئًا. انتظرنا قليلًا، لكن لم نسمع صوت مضادّات الطائرات ولا صوت صفّارات إنذار الوضعية الحمراء.

أحضر صمد المصباح اليدوي ووضعه في الوسط، أخذنا الأقداح لنشرب الشاي، وإذا به قد برد بسرعة.

كان الهواء يهبّ أحيانًا ويُحرّك الأوراق المتناثرة حولنا فتصدر صوتًا مخيفًا.

همست في أُذُن صمد: «**انهض لنذهب، أخشى هنا أن نتعرّض في هذا الظلام لهجوم الحيوانات والحشرات**».

قال صمد: «**لا تتفوّهي بهذا الكلام فأخجل أمام الدكتور، انظري إلى زوجته كيف تجلس بهدوء وتلاعب البنتين، تتكلّمين وكأنّك لست ابنة قرية!**».

كان المكان خاليًا من كلّ شيء، حتى الطيور اختفت من حولنا، ولم نسمع سوى أصوات الكلاب وبنات آوى من بعيد. استمرّ هبوب الهواء واستمرّ انقطاع الكهرباء، ولم نقدر على رؤية بعضنا بوضوح.

وضعنا الطعام في حين كنّا لا نرى شيئًا، تعاون الجميع في مدّ السفرة، جلست خديجة بجانبي ومعصومة نائمة في حضن زوجة الدكتور، كانت خديجة ترتجف من البرد، لم

أُصـدّق كيف تناولنا الطعام، كنت طوال الوقت أدعو مـن كلّ قلبي أن ننتهي بسرعة ونعود، لكـنّ الرجليـن كانا مستغرقين في الحديث وزوجة الدكتور أيضًـا لا تبالي بالأمر، بل كانت تُحادثنـي بهدوء أعصـاب. كلّما حاولت التركيز في شيء لم أستطع. كنت أتخيّل أنّ كلبًا أو ذئبًا سيظهر الآن من خلف الأشجار ويهجم علينا. من جهة أخرى كنّا جالسين في منطقة عسكرية، ما يجعلها معرّضة للخطر أكثر من أيّ منطقة أخرى.

كانـت أسنانـي تصطكّ من شـدّة البرد. وافق الرجـلان على الذهاب أخيـرًا، جمعنا الأغراض وركبنا السيارة. حينها شعرت بالارتياح وشرعت بالحديث مع زوجة الدكتور.

عندمـا وصلنا إلى المنـزل، كانت الطفلتان قـد نامتا، جهّزت لهمـا فراشهما وغيّرت ملابسهما، وذهب صمد إلى المطبخ ليغسل الصحون.

لحقتـه إلـى المطبـخ، فالتفـتَ إلـيّ وقـال: «**سيّدتـي هـل كان مشوارنـا جيّـدًا؟ هـل استمتعت؟**».

أردت أن أقـول له باستهزاء: «**أجل، لقد استمتعـت كثيرًا!!**» لكنّي عضضت على شفتي ولـم أتفـوّه بكلمة، ثم توجّهت لأكل بقايا مرق اللحم، حيـث لم أكن قد تناولت طعام الغداء عند الظهر ولم آكل شيئًا يذكر على العشاء.

غداة ذلك اليوم أوصلنا صمد إلى قايش وعاد إلى الجبهة. بقيت أنا والبنات شهرًا كاملًا في قايش. كان فصل الشتاء وتساقطت الثلوج بغزارة. اشتدّ الصقيع أكثر فأكثر عندما عدنا إلـى منزلنا في همدان، حيث كانت الثلوج قد تساقطت من جديد. كنت مسرورة إذ إنّ صمد عندما وقّع عقد إيجار المنزل اتّفق مع صاحبه أن يكون جرف الثلج عن السطح بعهدته.

بعـد فترة، جاءنا ضيـوف من قايش، في ذلـك الطقس البارد المثلـج والماطر، حيث كانـوا يريدون الذهاب إلى «**كرمانشاه**»[1]. انتبهتُ بعد العشاء إلى عدم وجود خبز للفطور في المنزل، فصرت مضطّرة للذهاب إلى الفرن في الصباح الباكر. ذهبت صباحًا ورأيت مـا رأيـت! كان أوّل صفّ المنتظرين عند الفرن وآخره فـي الطرف الآخر من الزقاق. كان الجـوّ بـاردًا ولم يكن لديّ حلّ آخـر. وقفت في الصف الذي يبيعون فيـه رغيفين فقط لأنّ عدد المنتظرين فيه أقل. انتظرت عشر دقائق حتى وصل دوري. أخذت الخبز وقلت للسيدة الواقفة آخر الصف: «**سيدتي احجزي لي مكانًا هنا، سأرجع بعد قليل**».

---

(1) إحدى المحافظات الإيرانية القريبة من محافظة همدان.

فـي الطريق إلى المنزل انزلقت قدمي وسقطت على الجليـد عدّة مرّات. لكنّي وصلت أخيرًا، وضعت الخبز على السفرة. كان الضيوف قد استيقظوا، فبدأت أعدّ الشاي وأخرجت الجبـن من البراد ووضعته على السفرة، ثم عدت أركضـ نحو الفرن للمرّة الثانية. عندما وصلت، لم أر تلك السيدة، فانزعجت كثيرًا. قلت للذين كانوا واقفين في الصف: «**حجزت مكانًـا هنـا منذ عشر دقائـق**». لكنّهم ظنّوا أنّي أريد أخذ الخبز من دون دور، فعَلَت أصوات بعض النساء بالاعتراض وتوجيه الشتائم. فجأة دفعتني إحداهنّ بقوة، وكدت أهوي أرضًا لكنّنـي أمسكت بالجدار. في هذه الأثناء، رأيـت تلك السيدة التي كانت تحمل سلّة حمراء، قلت لها ببشاشة: «**سيدتي، سيدتي، ألم أحجز مكانًا خلفك؟**».

ابتسمـت في وجهي وأشارت بيدهـا لأتقدّم، عندها شعـرت كأنّ الدنيا قد وُضعت بين يديّ. عندما رأت النساء هذا، أفسحن الطريق مُكرهات كي أتقدّم. ما زلت حتى الآن أذكر تلك الحادثة كلّما رأيت سلّة حمراء.

بدأ الجو يزداد برودة يومًا بعد يوم، والمياه والثلوج على الأرض تتحوّل إلى جليد. أصبحت الطـرق صعبة المـرور وقليلًا ما تتردّد عليها السيارات، لذا لم يعـد يأتينا ضيوف من قايش. كان صاحـب المنـزل يهتمّ بنا كثيرًا. يحصل أحيانًا عندما يشتري شيئًا لمنزله أن يشتري لنا مثلـه أيضًا، وكنت انقده ثمنه ولو على مضضـ. لم أكن أرغب أن يكون لأحد دين في ذمّتنا أو أن يفكّر الآخرون أنّني في غياب زوجي محتاجة لأحد. لذلك كنت أبذل جهدًا أكبر من طاقتي.

كانت درجة الحرارة قد وصلت إلى الأربعين تحت الصفر ولا نفط كافٍ لتدفئة المنازل، ومن أجل أن لا تمرض الطفلتان كنت ألبس كليهما قبّعةً ومعطفًا شتويًّا في البيت.

صبـاح أحد الأيـام تفقّدت وعـاء النفط فوجدته شبـه فارغ. كانت الطفلتـان نائمتين فأخـذت صفيحتي النفط اللتين تتسعان لعشرين ليترًا إلى محطة المحروقات التي تقع في أقصى الشارع، وتبعد عنّا كثيرًا. وجدت الناس يقفون في صف طويل وقد ربطوا الصفائح ببعضهـا في حبل كي لا تتغيّـر مواقعهم في الصف. وضعت الصفيحتيـن في آخر الطابور ووقفت أنتظر. لم تصل المحروقات إلى المحطة، وبعد نصف ساعة تسلّل البرد عبر قدميّ وصـارت أسناني تصطـكّ ببعضها. لم أتحمّـل الوقوف وعُدت إلى المنـزل لأرتدي جوربًا إضافيًّـا ومعطفًا آخـر، وأعود إلى الصف مجدّدًا. كنت أتردّد إلـى البيت لأتفقّد الطفلتين حيث تركتهما في المنزل لوحدهما، كرّرت ذلك عدّة مرّات حتى الظهر.

لم يصل المازوت إلى المحطّة قبل العصر، وبعد ساعة وصل دوري. ملأت الصفيحتين ولـم أجد عربة لتوصلهمـا إلى منزلي كما العادة[1]، فتركـت إحديهما في المحطّة وحملت الأخرى بيدي إلى المنزل بمشقّة وعناء.

كنت ألهث طوال الطريق، وكلّما خطوت عشرة أمتار أو عشرين مترًا كنت أضعها أرضًا لأستريـح. اضطررت للتوقّف عدّة مرّات لأُدلّك أصابعي التـي فقدتُ الإحساس بها، فأنفخ فيهـا لأبثّ فيهـا الدفء، ثم أنطلق من جديـد. وأخيرًا أوصلت الصفيحـة الأولى بصعوبة بالغـة ووضعتهـا تحت الـدرج، لكنّي عندمـا تهيّأت للعودة إلـى المحطة من أجـل إحضار الصفيحة الثانية، اغتمّ قلبي.

أخـذت الصفيحة من المحطة وأنـا خائرة القوى لا أقوى على التقـاط أنفاسي. بدأت أتجمّـد من شدّة البرد، لكن كان عليّ أن أُنهي عملي وأنقل الصفيحة إلى المنزل بأيّ شكل من الأشكال.

كنـت قلقـة على الطفلتين من جهـة، ومن جهة أخرى، لم أكن أقـوى على السير، لكنّي وصلت إلى المنزل في النهاية.

كانـت عقوبتـي التالية رفـع الصفيحتين إلى الأعلـى. لم أرغب أن أُثيـر انتباه صاحب المنـزل ليأتي ويساعدنـي، لذلك حملت الصفيحـة الأولى بهدوء ومـن دون إصدار صوت وصعدت إلى الأعلى، وبعد نصف ساعة عدت وحملت الثانية.

كـدت أفقـد وعيي من شدّة التعـب. هويت على الأرض وسط الردهـة. وراحت خديجة ومعصومـة تمرحـان على ظهري، لكنّي لـم أستطع التبسّم لهما من شـدّة الألم في ظهري وقدمـيّ، ورجـوت الله أن تنامـا لأستريح قليلًا، لكنّهمـا كانتا جائعتين ويجـب عليّ إعداد العشاء لهما.

كانـت حالة الخطر تُعلَن يوميًا تقريبًا، وخرقـت الطائرات العراقية جدار الصوت فوق المدينة عدّة مرّات، فأرعب الناس وكسر زجاج نوافذ العديد من المنازل والمحلّات.

كلّمـا كانـت تُعلَن حالة الخطر، كانـت خديجة ومعصومة تركضان نحـوي، تختبئان في حضنـي. وبما أنّ الهضبة التي كانت تستقرّ عليهـا مضادّات الطائرات تقع على مقربة منّا، كان منزلنا يهتزّ كلّما بدأت المضادات بإطلاق الرصاص الذي كان يُضيء المنزل بوميضه.

---

(1) في ذلك الوقت كانت عربات خاصة بمحطات الوقود تنقل الصفائح التي يشتريها الناس إلى منازلهم.

ألـحّ صاحـب المنزل عليّ كي أنـزل بالطفلتين إلـى الطابق السفلي عنـد إعلان حالة الخطر، لكنّ الوضع لم يكن لينتهي بيوم أو يومين.

فـي تلك الليلـة، ما إن استلقيت حتـى أُعلنت الوضعية الحمراء، وبلمـح البصر، بدأت مضـادّات الطائرات تطلـق رصاصاتها بشدّة، فارتعبت معصومـة وخديجة وعلا بكاؤهما وصراخهما.

تحيّرت ماذا أفعل، ومهما حاولت لم أُفلح في تهدئتهما. بعد قليل أشفقت عليّ زوجة صاحب المنـزل وصعدت إلينا، حضنت خديجة ومسحت علـى رأسها بينما أخذت أنا معصومة. عندما رأت السيدة اهتزاز المنزل ووميض نيران المضادّات قالت: «**سيدة قدم خير، ألا تخافين؟**»،

قلـت: «**وما الحـلّ؟ ماذا أفعل؟**»، بـدا واضحًا أنّها خائفة، فقالـت: «**والله أنتِ صبورة وتتحمّلين الكثير، تعيشين بمفـردك من دون رجل مـع هاتين الطفلتيـن، والله لديك قدرة تحمّل كبيرة، تعالي ننزل إلى الأسفل على الأقل من أجلهما**».

قلـت: «**لا أريـد إزعاجكـم**»، لكنّهـا أصرّت وأنزلتنـا معها. كانت الأصـوات في الطابق السفلي أخفّ بكثير، فهدأتا.

فـي تلك الفترة، كانـوا يأتون بقوافل الشهـداء أسبوعيًّا يومي الاثنيـن والأربعاء، كنت أشـارك في تشييـع الشهداء مرّة فـي الأسبوع. حينهـا، كان عُمَرُ خديجـة سنتين ونصف السنـة، وبينما كنت أحمل معصومة بين يديّ، كانـت خديجة تُمسك عباءتي وتمشي خلفي ببطء. وعندما أندمج في أجواء التشييع والمشيّعين، أبكي من دون إرادة منّي، وكأنّي كنت آخـذ معي كلّ الأحزان التـي اعتملت في صدري وكلّ متاعب الأسبـوع لأفرغها قرب نعوش الشهـداء وأتقاسمهـا معهم، فأذرف الدموع من شـارع الشهداء إلى «**بـاغ بهشت**»[1]، وبعد عودتي إلى المنزل كنت أشعر بالارتياح وكأنّني قد شُحنت بطاقة جديدة.

شـارف شهر شباط على النهاية، ورغم ذلك كان البـرد يلفحنا والثلوج تُغطّي الأرض. انشغلت النسوة بتنظيف البيوت وترتيبها، أمّا أنا فلم أكن أقوى على فعل شيء.

فـي ذلـك اليوم، كنت قد عدت للتوّ من تشييع عدد مـن الشهداء، وضعت الطفلتين في المنزل وذهبت إلى الفرن، وكعادتي كنت أتفقّدهما من حين لآخر. في المرة الأخيرة التي عـدت فيها إلى المنزل وما إن وصلت إلى الدرج، حتى تسمّرت في مكاني لما سمعت صوت

(1) أي روضة الشهداء .

ضحكات الطفلتين وكأنّ أحدًا يُلاعبهما، أسرعت نحو الدرج فرأيت خلف الباب حذاءً عسكريًّا باليًا، قلت في نفسي: بالتأكيد أتى السيد «**شمس الله**» أو السيد تيمور لزيارتنا، أو ربما السيد ستّار.

فتحت الباب ووجدتُ صمد واقفًا أمامي يدور بالطفلتين وسط الغرفة وينشد لهما وهما تضحكان من الفرح.

تشابكت نظراتنا دون كلام لثوانٍ عدّة، فقد كان هذا لقائي به بعد غياب أربعة أشهر. تجمّعت الدموع في عينيّ. بادر بالسلام هذه المرة أيضًا، ثم قال بنفس النغم الطفولي الذي كان ينشد به لخديجة ومعصومة: «**أين كنت يا سيدتي؟ أين كنت يا حبيبتي؟ أين كنت يا سيدة قدم خير؟**».

وجرت الدموع من عيني من شدّة الفرح، ورحت أكفكفها بطرف عباءتي. وقف أمامي والطفلتان بين يديه وقال: «**أنت تبكين؟**».

حينها أجهشت بالبكاء، فضحك وقال بذاك اللحن الطفولي ذاته: «**ها! لقد فهمت! اشتقت لي، جدًا جدًا، وهذا يعني إنّك تُحبّينني جدًا جدًا!**».

كان كلّما تكلّم أكثر ازداد بكائي. وضع الطفلتين أمامي وقال لهما: «**قبّلا ماما، امسحا على رأسها!**» أخذت خديجة ومعصومة تلامسان وجهي بيديهما الصغيرتين الناعمتين.

ثم سألني: «**أين كنت؟**» قلت له وأنا أبكي: «**كنت في الفرن**».

سألني: «**وهل اشتريت الخبز؟**» قلت: «**لم يصل دوري بعد، قلقت على الصغيرتين فأتيت لأتفقّدهما وأذهب**». قال: «**حسنًا، الآن ابقي أنت مع الطفلتين وسأذهب أنا**».

مسحت دموعي وقلت: «**لا، لا داعي لأن تُتعب نفسك، لم يبق سوى شخصين حتى يصل دوري، سأذهب بنفسي**».

وضع الطفلتين على الأرض ونزع عباءتي من على رأسي وعلّقها على مشجب الملابس وقال: «**حينما أكون في المنزل تكون مهمّة التسوّق على عاتقي**».

قلت: «**لكنّك سوف تضطرّ للوقوف في آخر الصف**». قال: «**سأقف، إذا أردت أن آكل الخبز لا بدّ أن أقف في آخر الصف**». قال ذلك ثم ضحك. قلت له أثناء انتعاله الحذاء العسكري: «**على الأقل تعال وغيّر ملابسك، دعني أُنظّف حذاءك، واستحم أنت**».

ضحك ثانية وقال: «**سأعود قبل أن تعدّي إلى العشرين**».

ضحكت وعدت إلى الغرفة. غسلت وجه الطفلتين وغيّرت ملابسهما، أعددت الطعام ورتّبت المنزل، ثم رتّبت نفسي أيضًا.

عندما عاد صمد حاملًا الخبز بيده، كان كلّ شيء قد اختلف، فرائحة الطعام فاحت في أرجاء المنزل، وافترش ضوء الشمس صدر الغرفة، وكأنّ الجدران تبتسم لنا مجدّدًا.

في صباح اليوم التالي، خرج من المنزل وعندما عاد كان معه عدد من الأكياس. كان قد تسوّق مجدّدًا واشترى الكثير من الحبوب، الحمّص والفاصوليا إلى جانب السكّر والشاي والأرز.

قلت: «**هل تنوي أن تعود بهذه السرعة؟**».

قال: «**ليس بهذه السرعة، لكنّي سأذهب بكلّ الأحوال ولن أبقى هنا، فمن الأفضل أن أنجز أعمالي في وقت مبكّر، لا أُحبّ أن تذهبي إلى الدكان من أجل شراء كيلو من العدس**».

ثم تابع كلامه وهو يدخل الأكياس إلى المطبخ: «**عندما أتيت بالأمس وكنتِ أنت في الفرن، انزعجت من نفسي كثيرًا**».

أخذت الأكياس من يديه وقلت: «**ألا تثق بي؟**».

ارتبك، ووقف يُحدّق في وجهي ثم قال: «**لا، لا، لم أقصد ذلك، بل أردت أن أقول إنّي سبّبت لك العذاب والمعاناة. لو لم تكوني زوجتي، لكنتِ الآن في منزل والدك مرتاحة البال تأكلين وتنامين**».

ضحكت وقلت: «**وحتى متى آكل وأنام في منزل والدي؟**».

سكب الأرز في صينية كبيرة وقال: «**سأنظّفها أنا، اذهبي أنت وتابعي عملك**».

قلت: «**لا أعرف عملًا أفضل من الجلوس هنا**».

ضحك وقال: «**لا أصدّق، بدأت تتحسّنين كثيرًا. ممتاز، ممتاز.. حسنًا، إذًا تقدّمي واجلسي هنا بجانبي لننظّفه معًا**».

جلسنا في المطبخ أمام الصينية، وقمنا بتنظيف الحبوب والأرز حتى الظهر، كما تحدّثنا في شتّى المواضيع وضحكنا.

بعد الغداء، لبس صمد ملابسه وقال: «**أريد أن أذهب إلى مقرّ الحرس، وسأعود بسرعة**».

قلت: «**لنخرج العصر؟**» سألني بتعجّب: «**إلى أين؟**».

قلت: «**العيد على الأبواب، أريد شراء ملابس جديدة للطفلتين**».

فجأة، تغيّرت ملامح وجهه وقال: «**ماذا؟ ملابس للعيد؟**».

قلت باستغراب: «**هل أسأت الكلام؟!**».

قال: «**تقصدين أن أمسك بيدَيْ طفلتيّ، وأذهب إلى السوق لأشتري لهما ملابس جديدة؟ كيف وبماذا سأُجيب أطفال الشهداء؟ كيف لي أن لا أخجل من وجوه أطفال الشهداء؟**».

قلت: «**وهل أطفال الشهداء واقفون الآن في الشارع يراقبوننا؟ افرض أنّهم رأونا كيف سيعرفون إلى أين سنذهب؟!**».

جلس وسط الغرفة وقال: «**يا للهول، يا للهول، أنتِ لستِ معنا لتشاهدي كيف تتناثر تلك الورود أمام أعيننا كلّ يوم، معظمهم متزوّجون ولهم أطفال، من الذي سيشتري لأطفالهم ملابس جديدة ليلة العيد؟**».

جلست أمامه وقلت له بعناد: «**أنا مخطئة! طفلتاي لا تريدان ملابس للعيد**».

قال: «**هل انزعجت؟**» قلت: «**أجل، انزعجت كثيرًا، لستَ هنا لترى حياتنا، متى كنت ترعاني وطفلتيك؟ والله نحن لا نقلّ معاناةً عن أطفال الشهداء**».

احتدّ وقال: «**لا تتفوّهي بهذا الكلام، كلّ ما أدّيناه كان واجبنا وليس علينا أن نمنّ على أحد بذلك، لن يكون لدينا عيد من اليوم إلى أن تنتهي الحرب، مواساةً لأُسر الشهداء**».

نهضت وذهبت إلى الغرفة المجاورة وقلت غاضبة: «**أُوافقك الرأي! وأعتذر منك، كنت مخطئة**».

قام وجال في الغرفة قليلًا، ثم أغلق الباب وذهب.

جلست في الزاوية منقبضة القلب، وبقيت على هذه الحالة حتى المساء. لم يكن مزاجي جيدًا لأهتم بالطفلتين ولم أعمل أي شيء، حتى إنّني لم أستطع البكاء لأشعر بالارتياح.

حلّ الظلام وصمد لم يعد بعد، حدّثتني نفسي: أرأيتِ؟ لقد غادر صمد من دون أن يودّعك؟

من جهة، كنت غاضبة منه، ومن جهة أخرى اشتقت إليه، وكنت أيضًا منزعجة من نفسي وخشيت أن يكون قد استاء منّي وغادر.

عندمـا يئست من عودته، نهضـت وأنرت الأضواء وتوضّأت للصـلاة. في تلك اللحظة شعـرت بانكسـار قلبي وقلت: «**إلهـي لقد أخطأت، سامحنـي. ماذا فعلت؟! إلهـي أعِد إليّ صمدي**».

كان قلبـي يغلي وعمّ الضجيـج كياني. فجأة سمعت صوت البـاب، وعندما علا صخب الطفلتين وضحكهما أدركت أنّ صمد قد عاد.

كنـت جالسة على سجادة الصلاة حين ناداني صمد: «**قدم خير، يا عمري، سيدة قدم خير أين أنت؟!**».

كتمـت الفرحة في قلبي، دخلت الغرفة ورأيت كيسين كبيرين قرب المسند، وهو يحمل الطفلتيـن. سلّمـت عليه بهدوء، ضحك وقـال: «**وعليكم السلام يا زوجتـي، كيف حالك يا سيدة قدم خير؟**».

لم أُظهر أي ردّ فعل، أجبته ببرودة أعصاب مع أنّ قلبي كاد يطير فرحًا.

قـال: «**انظري ماذا اشتريت لكم، أتمنّى أن يُعجبـك**»، وأشار إلى الكيسين اللذين كانا بجانب المسند.

ذهبـت إلـى المطبـخ وشغلت نفسـي بالطهو، مـع أنّ لبّي بقـي عنده. كان قـد اشترى للطفلتين ثيابًا وأخذ يلبسهما إيّاها.

بعـد دقائق، دخلـت الصغيرتان إلى المطبـخ، بملابسهما الجديدة. خشيـت أن تتّسخ ملابسهما فحملتهما إلى الغرفة.

عندمـا رآني قال: «**ألـن تقدّمي لي قدحًا من الشاي؟ علـى الأقل تعالي وانظري هل تُعجبك الملابس التي اشتريتها لك!**».

وعندمـا فشلت محاولاته فـي إضحاكي قال: «**أقسم عليك بحيـاة صمد أن تضحكي**». عنـد ذلك ضحكت، فقال: «**الآن وقـد ضحكت خذي هذا الكيس لـك. بحياة قدم خير إن بقيتِ متجهّمة سأغادر الآن مع بعض الإخوة الذاهبين الليلة إلى الجبهة**».

أدركـت أنّـه جادّ في كلامه وليس مـن مصلحتي أن أُعانده في ظـروف كهذه، فأخذت الكيـس وذهبت إلى الغرفة الأخرى وارتديت الثيـاب. كان ذوقه رائعًا كالعادة، لقد اشترى لـي قميصًا وتنّورة مطرّزة مـن الموضة الجديدة. كنت أنظر إلـى نفسي في المرآة فدخل فجأة وقال: «**الله الله ما أجملك، أقسم يا قدم خير، تبدين كالبدر، كم تليق بك!**».

خجلت كثيرًا وقلت: «**شكرًا ولكن لا أريد البقاء بها!**».

أمسك بيدي وقال: «**ماذا؟ لا أسمح لك بذلك، عليك أن تلبسيها في المنزل، لقد سبق وقلت لك إنّنا لن نحتفل بالعيد، لكن طالما أنّنا بجانب بعضنا وأنت تضحكين فهذا هو عيدنا**».

قلت: «**لكن هذه الملابس للضيوف**». ضحك وقال: «**وأنا ضيفك الآن، ألا يجب أن تلبسي هذه الثياب أمامي؟**».

رضختُ لطلبه، فأمسك بيدي وقال: «**اجلسي!**» عند ذلك دخلت الطفلتان إلى الغرفة ونظرتا باستغراب لارتدائي تلك الملابس. قال صمد وهو يمسك بيدي: «**أعتذر ممّا بدر منّي ظهر اليوم. أنا مخطئ سامحيني، لم أتمالك نفسي عندما غضبت، أعلم أنّي تجاوزت الحدود لكنّك ستسامحينني لأنّك تعرفين جيدًا أنّك بالنسبة لي أعزّ مَن في الدنيا، وما أحببت أحدًا حتى الآن بقدر ما أحببتك. أتساءل أحيانًا هل يمكن لهذا الحب أن يُبعدني عن الله؟ لكن عندما أُمعن في التفكير أكثر أُدرك أنّي بهذا الحب أتقرّب منه أكثر، فأحمد الله كلّ يوم مئة ألف مرة أن جعلك من نصيبي. لقد نشبت الحرب نعم، ماذا أستطيع أن أفعل؟ كنت أرغب بالقيام بأمور كثيرة. ليتك تعلمين ماذا يحصل على الجبهة، إنّها تشبه القيامة! لو تعلمين ماذا فعل صدّام بنسائنا وأطفالنا، لو كنت حاضرة ورأيت التعذيب والمجازر لوافقتني الرأي. حبيبتي قدم خير، لا تستائي منّي! أتمنّى أن تتفهّمي وضعي، والله إنّه صعب عليّ، اقبلي أن لا نحتفل بالعيد، اذهبي إلى شارع كاشاني[1] لتري اللاجئين المتضرّرين من الحرب كيف يعيشون هناك! ألم يكن لهؤلاء بيوت؟ أليس من حقّهم أن يعيشوا كما يعيش الآخرون؟**».

أقنعني كلامه، وقلت: «**كلامك صحيح، أنت محقّ، أنا أعتذر**».

تنفّس الصعداء وقال: «**الحمد لله، لقد اتّضحت المسألة لكلينا، لكن بقي موضوع آخر أردت التحدّث عنه منذ وقت طويل، وهو يخصّني أنا. في الحقيقة، أصبحت الحرب الآن جزءًا من حياتنا، كلّما آتي إلى هنا لرؤيتك أنت والطفلتين أقول إنّها ستكون آخر**

(1) يوجد في همدان شارع اسمه كاشاني حيث بنيت على طرفي الشارع شقق سكنيّة برعاية بنك الإسكان، كانت هذه الشقق قد أُعطيت لأولئك الذين تضرّروا إبّان الحرب من أبناء المدن الجنوبية، وإلى الآن ما زال جزء كبير منهم يعيشون في تلك الشقق.

مرة أراكم فيها، الله وحده يعلم، ربّما لن أراكم ثانية. أوصيت الشباب أن يعطوك راتبي، وأوصيت شمس الله وتيمور وستّار أيضًا بوصايا أخرى حتى لا تتكبّدي العناء من بعدي».

بكيت وقلت: «**كفى صمد، ما هذا الكلام الذي تقوله؟ لا أريد سماع شيء!**».

مسح دموعي بأصابعه وقال: «**لا تبكي، ستتأذّى الطفلتان، هذه حقيقة ويجب أن تتدرّبي عليها من الآن**».

تريّث قليلًا وتابع كلامه: «**هذه المرّة أيضًا لا تُمنّي نفسك بقرب عودتي، ربما يطول غيابي لثلاثة أو أربعة أشهر، انتبهي للطفلتين وتحمّلي**».

وتحمّلت كما طلب منّي. ذهب صمد بعد أيام وعاد بعد أربعة أشهر، بقي أسبوعًا وذهب مجدّدًا. كان يتّصل أحيانًا، وأحيانًا يُرسل أصدقاءه لطمأنتنا عندما يأتون في إجازة. كما كان إخوته شمس الله وتيمور وستّار يأتون أحيانًا للاطمئنان عن أحوالنا.

كان والدي الحاج دائم القلق عليّ، كان يأتي أحيانًا بمفرده، وحينًا آخر كانت تُرافقه شينا، فيمضيان معنا عدّة أيام ثم يعودان. أحيانًا كنت أذهب إلى قايش، لكنّ شوقي إلى منزلي كان يُرافقني باستمرار. وعندما كنت أُفكّر في عودة صمد إلى همدان، أُرفرف كالطير الواله الذي لا يقرّ له قرار حتى أعود إلى بيتي. كانت رائحة صمد تفوح في أرجاء المنزل دائمًا: من ملابسه، حذائه، وسجّادة صلاته التي كانت تبثّ الدفء في قلبي دائمًا.

اعتدت على هذا النمط من الحياة شيئًا فشيئًا. كان يكفيني بقاؤه على قيد الحياة.

وصلت الحرب إلى المدن، أحيانًا كانت حالة الخطر تُعلن عدّة مرّات في اليوم والليلة، فتُغير الطائرات العراقية على المدن وتقصف المناطق السكنية. ورغم ذلك، استمرّت الحياة، ومضى عامان على الحرب.

في عام 1982م حملتُ بطفلي الثالث. شعرت بالقلق، تُرى كيف سأُنجب طفلًا وأربّيه في ظروف كهذه؟ وانتابني حزن عميق بينما شعر صمد بسرور شديد. كان ينتهز أقلّ فرصة للمجيء إلى همدان والاطمئنان إلينا. وكذلك أوصى جميع الأقرباء وطلب منهم الاهتمام بنا في غيابه.

كان يقول لي عند عودته: «**قدم خير، ماذا فعلت بي؟ طيفك لا يغادرني، أصبحت ترافقينني في كلّ لحظاتي**».

رغم ذلك، كنت أعلم – وهو كذلك – أنّه يفضّل الجهاد ومواجهة الحرب علينا. وعندما

كانت تتعرّض همدان للقصف، كان إخوته يأتون ليأخذوني إلى قايش فترة قد تستغرق شهرًا، وأحيانًا كانوا يأتون مع نسائهم وأطفالهم يمضون عدة أيام معنا، وعندما تهدأ الأوضاع يغادرون.

زاد الطفل الثالث من حبّ صمد للحياة، ففكّر في شراء منزل لنا، أغرق نفسه بالقروض حتى تمكّن من تسجيل اسمه لشراء بيت. ذات يوم دخل علينا مسرورًا وقال: «**الآن ارتاح بالي من ناحيتكم، لقد اشتريت منزلًا لكم. وعمّا قريب ستتخلّصون من الإيجار، سوف ننتقل إلى منزلنا في الصيف القادم إن شاء الله تعالى**».

عندما أصبحت في الشهر التاسع، أتى صمد وبقي بجانبي عشرة أيام، لكنّ الطفل لم يرغب بالخروج إلى الدنيا. ذهبنا إلى الطبيب وقال: «**لن يولد الطفل قبل أسبوع**»، عندها أخذنا صمد إلى قايش وقال: «**سأذهب لأتفقّد الشباب عدة أيام وأعود مجدّدًا**».

ما إن ودّعنا صمد وانطلق بالسيارة، حتى بدأت أشعر بألم المخاض. لم أُصدّق ذلك، كان صمد قد وعدني أن يكون بجانبي أثناء الولادة هذه المرّة، عليّ أن أتحمّل حتى يعود. لكن الطفل لم يُدرك ذلك وكان على عجلةٍ من أمره.

كنت أتلوّى من الألم بصمت. أدركت شينا خطورة الأمر بسرعة وقالت: «**سأستدعي القابلة فورًا**»، قلت: «**لا، لدينا متّسعٌ من الوقت**»، فامتعضت وقالت: «**إن لم أعرف متى يكون الوقت مناسبًا فما نفعي إذًا؟!**».

ثم ذهبت وهيّأت الفراش، وملأت القدر بالماء ووضعته على النار في طرف الفناء. أتت وجلست وسط الغرفة، وبدأت بقصّ قطع القماش الأبيض، كانت تتحدّث وتنظر إليّ بطرف عينها، بينما تلعب خديجة ومعصومة في زاوية الغرفة. كانت تهتمّ شينا بي وبطفلتيّ وتدنو منّي بين الحين والآخر، تضع يدها على جبيني تقبّل رأسي وتسقيني عصارة الأعشاب المختلفة.

ازدادت حالتي سوءًا، ولم أعد أحتمل، فصرخت من الألم. وضعت شينا قطع القماش على الأرض وأسرعت لإخبار أخواتي ونساء إخوتي؛ بعد قليل عجّ المنزل بأشخاص أتوا لمساعدتي. تأخّرت القابلة، كانت شينا تدور حولي وتسقيني الأعشاب وتقول: لا تخافي، إن لم تأتِ القابلة فأنا سأتولّى المهمة. أخيرًا وصلت القابلة بعد الظهر وولد الطفل بعد ذلك بنصف ساعة.

حملت شينا الطفل بسرور وقالت: «**عزيزتي قدم خير، إنّه صبيّ، مبارك لك، انظري**

إليه ما أجمله من صبيّ أبيض البشرة». وبعد ذلك أرسلت أحدهم لينادي والدة صمد كي تبشّرها بالمولود. عندما ارتفع صوت الطفل بالبكاء تنفّست الصعداء وغلبني النعاس كمخدّر ممتع، بحيث لم أكن أسمع أصوات الضوضاء في المنزل.

غداة ذلك اليوم، ذهب والدي الحاج للبحث عن صمد بأي طريقة ممكنة، لكنّه عاد عند المساء من دون أن يعثر عليه، وأوصى أحد رفاقه بأن يُخبره بالمولود والوليمة.

وبدأت رحلة الانتظار بفارغ الصبر. ظننت أنّه سيأتي في الغد.

ولكن أتى الغد وبعد الغد وصمد لم يأتِ بعد. بدأ الناس يلوكونه بألسنتهم: «**مسكينة قدم خير، كأنّها لم تُنجب صبيًّا!**».

«**عجبًا لهذا الزوج اللامبالي!**».

«**مسكينة قدم خير، كيف ستعود الآن بثلاثة أطفال إلى منزلها وتمضي حياتها؟!**».

«**أيّ صنف من الرجال هذا الزوج؟!**».

كانت شينا كلّما سمعت بهذه الأحاديث، تشفق عليّ أكثر. ربما من أجل ذلك قالت: «**إذا أتى السيد صمد فهذا جيّد، وإن لم يأتِ فسأُقيم أنا مأدبة لحفيدي في اليوم السابع لولادته**».

مللت الانتظار ومراقبتي للباب. وأصبحت أتأثّر بكلام الآخرين وسرعان ما أبدأ البكاء. أتى اليوم السابع أيضًا وانقضى ولم يأتِ صمد. في اليوم التاسع قالت أمّي: «**لن أصبر أكثر من هذا، سأدعو الجميع، وإن أتى زوجك فأهلًا وسهلًا به**».

في اليوم العاشر شرعت شينا مع أخواتي ونساء إخوتي بتجهيز وتحضير الوليمة، عند الظهر، صرخ أحد الأطفال في الزقاق: «**أتى السيد صمد!**».

كنت أُرضع الطفل، وضعته أرضًا، ألقيت قطعة القماش على رأسي وشددت ظهري بالعباءة ونزلت الدرج العالي بصعوبة. كانت الباحة مزدحمة، تقدّمت أختي نحوي وقالت: «**لماذا خرجت هكذا؟ كأنّك لست نفساء!**» ثم نزعت عباءتها وألقتها على رأسي.

لم أقوَ على المشي بشكل جيّد. سرت إلى الزقاق ببطء؛ رأيت رجلًا بلحية كثّة يأتي من أول الزقاق يرتدي بزّة عسكرية ويضع حقيبة على كتفه، لكنّه ليس صمد. رغم ذلك اقتربت منه على استحياء وسط الزقاق، كان أحد أصدقاء صمد سلّمت عليه وسألته عنه؛ قال: صمد بخير، لا أظنّ أنّه سيعود قريبًا، فهو مشغول جدًّا، أتيت لأتفقّد والدتي، فقد أبلغوني أنّها مريضة جدًّا، وسأعود غدًا إلى الجبهة.

بعد سماعي هذا الكلام، شعرت كأنّ ماءً باردًا قد صُبّ على رأسي. بدأ جسمي يرتجف وفقدت الإحساس بقدميّ. أسندت ظهري إلى الجدار وبقيت على تلك الحال إلى أن غادر الرجل.

خرجت شينا وأخواتي إلى الزقاق لطلب البشارة من صمد. عندما رأيننني على هذه الحال ساعدنني على الرجوع إلى الغرفة.

استلقيت على الفراش وجسمي يرتجف. أحضرت لي شينا الماء والسكّر وغطّتني بالبطّانية. وغطّيت رأسي تحت بالبطّانية، وخنقتني العبرة. تظاهرت بالنوم. كنت أعلم أنّ شينا لا تزال جالسة عند رأسي تذرف الدموع بهدوء قربي. لم أرغب بالبكاء حتى لا أفسد وليمة طفلي اليوم.

وصل الضيوف عند الظهر تباعًا. اجتمعت النساء في غرفة الضيافة والرجال في غرفة أخرى. أتت أُختي بعد الغداء وأخذت الطفل منّي ليختار له الحاج إبراهيم جدّ صمد اسمًا، كما أذّن وأقام في أُذُنيه؛ وقد أسماه «**مهدي**».

غادر الرجال بعد الظهر، إذ كنّا في شهر آب فصل الحصاد والعمل. في حين بقيت النساء حتى العصر، وذهبت أخواتي ونساء إخوتي إلى الفناء لغسل الصحون وتحضير الفاكهة في أوانٍ كبيرة.

كان مهدي نائمًا بجواري، والنساء من حولي يتجاذبن أطراف الحديث، لكنّ عينيّ بقيتا شاخصتين نحو الباب. تمنّيتُ أن يفتح الباب ويأتي صمد في آخر لحظات مراسم وليمة ابنه.

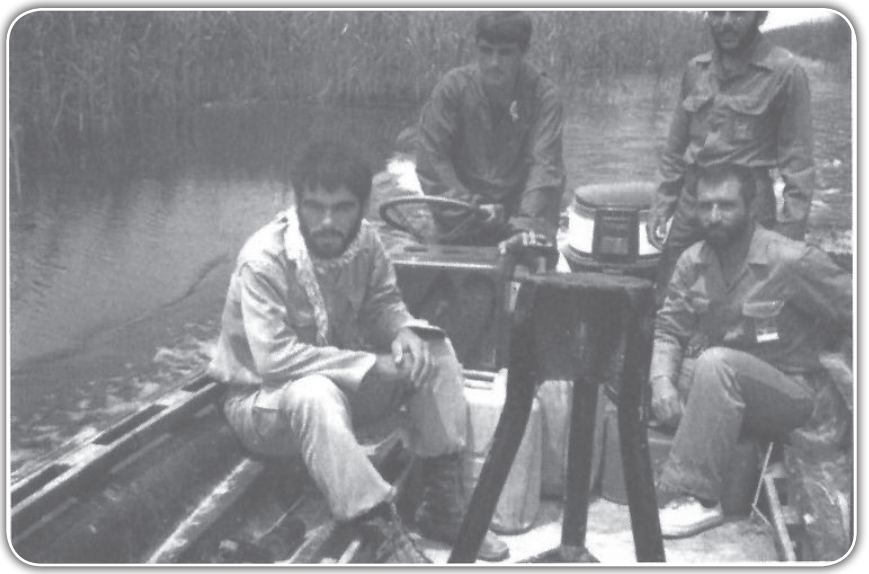

صمد مع الشهيد محمد حاتمي الذي يجلس أمامه؛ جزيرة مجنون؛ سنة 1363هـ.ش (1984م).

صمد بين مقاتلي كتيبة 155 علي الأصغر؛ منطقة الرقابية قبل بدء عمليات «والفجر الثانية»؛ شتاء 1364هـ.ش (1985م).

الفصل الخامس عشر

صمد جريحًا

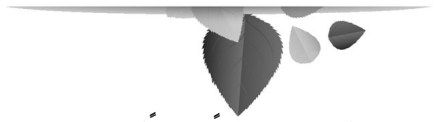

بعـد مضـي أربعين يومًا علـى ولادته، صـار مهدي طفـلًا ممتلئًا، وقـد اكتسب مهارة الضحـك حديثًـا. كانت خديجـة ومعصومة تجلسان قربـه لساعات تلاعبانـه وتستمتعان بمحاولاتـه التي لا تعـدو استجابةً للّعب معهمـا. في المقابل كنّا جميعًـا قلقين على صمد، ولكـي نطمئـنّ عنه أرسلنا رسالة إلى كلّ شخص توقّعنا أنّه على صلة معه. لكن كلّ ما كانوا يقولونـه لنا إنّ صمـد مشغول بالعمليّات. كانت شينا ترثي لحالـي وتقول: «**لا تُرضعي هذا الطفل البريء حليب الهموم والأحزان، قد يمرض جرّاء ذلك**».

لم يكن الأمر بإرادتي، كنت مضطّربة الفؤاد، أترقّب وصول خبر سيّئ في كلّ لحظة.

ذات يـوم، كنت جالسـة في الغرفة أطعم مهـدي والأفكار السيئة تراودنـي، فجأة فُتح البـاب ودخـل صمـد. تسمّرتُ في مكانـي وبقيت أنظر إليـه للحظات بدهشـة واستغراب، ظننتني في حلم، لكنّه كان هو، أسرعت الطفلتان نحوه بسرور وارتمتا في حضنه.

وبينمـا كان صمد يُقبّل وجنتـي خديجة ومعصومة، راح ينظر إلـيّ ويسألني بلهفة عن أحوالـي. لم أعلم فـي تلك اللحظة، بمـاذا أُجيبه وماذا أفعل. طالمـا فكّرت وخطّطتُ في نفسـي ماذا سأقول وماذا سأفعل عندما يعود صمـد، لكن في تلك اللحظة أذهلني السرور بحيـث لـم أكن أعلم ما هو التصرّف المناسب الذي يجـب أن أقوم به. بعد قليل أفقت من دهشتي، وأجبته ببرودة أعصاب.

ضحك وقال: «**ها قد استأت منّي مجدّدًا وخاصمتني؟**».

ضحكـت أنـا أيضًـا، كان دائمًـا يُفاجئني بكلامه، قلـت: «**لا، ولمَ الخصـام؟! لقد ولد طفلك، زوجتك وضعت حملها وقامت بالسلامة وعادت إلى منزلها، وزوجها أقام لولده وليمـة اليـوم السابع بشكل رائع، أطفالنا يترعرعون على مائـدة منزلنا، أصلًا لمَ يجب أن أنزعج، هل أنا بلهاء لأتأفّف على كلّ هذه السعادة؟**».

وضع الطفلتين على الأرض وقال: «**أتتهكّمين عليّ؟**»

كنت غاضبةً، فقلت له: «**منذ ذهابك وأنا أتساءل هل هذه الحرب هي فقط من نَصيبي ونصيبك وأطفالك الأبرياء؟ وأين كلّ هؤلاء الرجال الموجودين في هذه القرية؟ لمَ سلبت الحرب حياتي وحدي دون الآخرين؟**».

تكدّر وجهه وقال: «**كنتِ مخطئة كلّ هذه المدّة، الحرب ليست لك فقط، الحرب أيضًا لنساء أخريات، أخذت الحرب منهنّ أزواجهنّ وأبناءهنّ وبيوتهنّ وحياتهنّ في ليلة واحدة، هي للأم التي استشهد وحيدها، وهي الآن في الخطوط الخلفية تخدم أبناء الوطن وتُسعف الجرحى. الحرب أيضًا للرجال الذين خلّفوا وراءهم سبعة أو ثمانية أطفال دون معين وتوجّهوا إلى الجبهة، لشيوخٍ في السبعين أو الثمانين من عمرهم، للعريس الذي ترك زوجته في الليلة الأولى لزواجه وليافعٍ في الرابعة عشرة من عمره.**

حينما أرى كلّ هؤلاء أتحامل على نفسي وأتساءل، ماذا فعلت أنا لهذه الثورة ولهذا الشعب؟ لا شيء! هؤلاء يُقاتلون ويُقتلون من أجل أن تجلسي أنتِ هنا وتنامي بجانب أولادك في راحة كاملة، فلولا هؤلاء الأبطال لقضى صدّام على هذا البلد منذ زمن طويل، ولما تمكّنت من حضن أطفالك بأمان».

استيقظ مهدي على صوت صمد وبدأ يبكي. أخذه من حضني وقبّله وقال: «**سامحني يا عمري إن تأخّرت عليك، كنت منشغلًا بالمواجهات**».

دخلت أختي إلى الغرفة وقالت: «**سيد صمد، أعطني البشارة، المولود هذه المرة صبيّ**».

ضحك صمد وقال: «**سأُعطيك البشارة لكن ليس لأنّه صبيّ، إنّما لسلامته وسلامة أمّه**».

أعطاني الطفل وذهب نحو خديجة ومعصومة، احتضنهما وقال: «**أقسم بالله إنّ شعرة واحدة من هاتين الطفلتين لا تُعادل عندي مئة صبيّ، لكن يسعدني أن تُظلّل قدم خير وبنتيّ قامةُ رجل من بعدي**».

عضضت شفتي، وقالت أختي بانزعاج: «**لا سمح الله، يا سيد صمد، لمَ لا تتفاءل بالخير**»؟!

ضحك صمد وغيّر مجرى الحديث: «**ما اسم ابني؟**».

اقتربت معصومة وخديجة من مهدي، قبّلتاه وقالتا: «**أخي مهدي!**».

بقينا عدّة أيام في قايش، عشنا فيها أجمل اللحظات. كنّا نذهب لزيارة الأقارب والأصحاب؛ الغداء في منزل هذه الأخت والعشاء في منزل ذلك الأخ. بالرغم من أنّي التقيت بجميع الأقرباء قبل مجيء صمد، في مراسم وليمة مهدي، لكن الذهاب برفقة صمد كان له طعم آخر، وكان الأقارب يستقبلوننا باحترام أكثر، أمكنني إدراك ذلك من أواني الضيافة الجديدة.

في اليوم الخامس قال صمد: «**اجمعي الأغراض لنذهب إلى بيتنا**».

عدنا إلى همدان بعد عدّة أشهر، كان الغبار والتراب يُغطّيان كلّ شيء. انشغلتُ بالتنظيف وترتيب الأغراض حتى العصر. أتى صمد في المساء مسرورًا، وضع مفتاحًا بيدي وقال: هذا مفتاح منزلنا.

قبّلت المفتاح من شدّة الفرح، ضحك صمد وقال: المنزل جاهز، بإمكاننا أن ننتقل إليه غدًا.

في صباح اليوم التّالي، ذهبنا إلى منزلنا وأخذنا معنا بعض الأغراض. كان بيتًا جميلًا؛ غرفتان وصالة ومطبخ، يقع المرحاض خارجًا تحت الدرج أمام المدخل، أمّا الحمام فيقع بجانب الصالة.

لم تسع الدنيا فرحتي؛ مددت سجادة صغيرة في الفناء وأجلست الأطفال عليها، ثم أخذت المكنسة وبدأت بالتنظيف. كان بناء المنزل قد انتهى للتوّ. ساعدني صمد في تنظيف النوافذ، كنس الصالة والمطبخ والغرف.

أتى السيد شمس الله وزوجته في المساء أيضًا. ثم ذهب صمد مع عدد من أصدقائه لإحضار بقية الأثاث. بقينا حتى منتصف الليل نُرتّب كلّ شيء ونضعه في مكانه، وبما أنّه كان أكبر من أيّ منزل آخر أقمنا فيه حتى الآن، تحيّرت في اختيار مكان مناسب لسجادتنا الوحيدة. قال صمد: «**لا تقلقي، غدًا سأفرش كلّ المنزل بالموكيت**».

في صباح اليوم التّالي، أكملتُ أعمال التنظيف والترتيب، وساعدتني زوجة السيد شمس الله أيضًا. انتهينا من العمل قبل المساء وأصبح كلّ شيء في مكانه المناسب.

في المساء، أعددت الشاي وأحضرته على الصينية بينما كان صمد يُنظّف فناء

الـدار، كذلك فرشنا قطعة موكيت قرب حوض الأزهار الكائن في زاوية الفناء، حيث يلعب الأطفال. جلسنا على الموكيت وتجاذبنا أطراف الحديث، بعد قليل نهض صمد، ذهب إلى الغرفة، ارتدى ملابسه وأتى.

- حسنًا، عليّ الذهاب.

- إلى أين؟!.

- إلى الجبهة.

- ولمَ هذه العجلة؟.

ضحـك وقـال: «**سيّدتي، كان من المقـرّر أن أبقـى يومًا أو يومين فقـط، لكنّي بقيت أكثـر مـن أجل تأمين هذا المنزل فقط، الحمد لله، اطمأنّ بالي وأمّنت لكم بيتًا حتى لو لم أعد**».

أردت أن أُغيّر الحديث فقلت: «**ومتى ستعود؟**».

رفـع رأسه إلى السماء وقـال: «**لا أحد يعلم سوى الله. إن كتـب الله لي العودة فسوف أعود، وإن لم يشأ فالأطفال وديعتي عندك، انتبهي لهم**».

كان يربط شريط حذائه العسكري وأنا واقفة قربه، نادى زوجة أخيه وقال: «**سامحونا يا سيّدة لقد أتعبناكم معنا هذه الأيام**».

رافقتُـه حتـى آخر الزقـاق، كان الوقت مساءً والزقـاق مظلمًا خاليًا مـن المارّة، خطا خطوات واختفى أثره في الظلام الدامس.

بعـد مضي شهر على ذهاب صمد. انشغلت بالمنزل الجديد وبمهدي. كنت كلّما ينتهي بناء بيت جديد في الزقاق أتعرّف إلى جيران جدد.

ذهبـت ذات يـوم إلى منزل جارتنا لأُبارك لها بمنزلهم الجديـد، أتت خديجة من منزل جيراننـا المتاخم لمنزلنـا وقالت: «**أمّي، تعالـي، عمّي يُريدك على الهاتـف**». حملتُ مهدي وانصرفـتُ بسرعة إلى بيت جارنا الوحيد الذي يمتلك هاتفًا في الزقاق؛ كان أخو صمد على الخـط، قال: «**أردت إخبارك أنّنا سنأتي أنا وصمد إلى همـدان مساء اليوم**». تعجّبت كثيرًا، إذ لـم يسبـق لصمد أن أخبرنا بمجيئه من قبل، فشعرت بقلـق شديد. عدت إلى المنزل؛ لم أرغب بفعل أيّ شيء ورحت أضرب أخماسًا بأسداس: «**إن كان قد حدث مكروه لصمد لكان ستّار أخبرني بذلك**»، «**لا، قد أصابه مكروه حتمًا والسيد ستّار يجري مقدّمات لذلك**».

بقيت على هذه الحال حتى العصر، وكاد القلق يقضي عليّ. أجبرت نفسي على النهوض، أعددت الطعام ورتّبت المنزل. أوشك الظلام أن يرخي كل ظلاله، وأنا أرسل البنتين كلّ دقيقة إلى الزقاق لاستطلاع قدوم أبيهما. جلستُ خلف الباب، وصرت بين الحين والآخر أُلقي نظرة على الزقاق بنفسي، لكن بعد قليل جلسنا جميعنا أمام الباب.

عندما سمعت صوت الأذان العذب، انهمرت الدموع من عينيّ وتوسّلت إلى الله: «**إلهي، أُقسم عليك بهذا الوقت العزيز، لا تُيتّم أطفالي، ولدي مهدي لم يعرف أباه جيدًا بعد، وخديجة ومعصومة قد تعلّقتا به كثيرًا، ها هما الآن تنتظران قدومه، إلهي أعد لي زوجي سليمًا معافى**».

دعوت ذلك والدموع تسيل على خدّي. فجأة رأيت شخصين يتقدّمان في الظلام من آخر الزقاق؛ أحدهما يعرج متّكئًا على كتف الآخر. بعد قليل، عرفتهما، فقد كانا ستّار وصمد، قلت: «**يا أولاد، لقد أتى والدكم**»، ثم مسحت دموعي بسرعة.

عندها، ركضت خديجة ومعصومة نحو صمد وهما تناديان «**بابا بابا**»، ورمتا بنفسيهما عليه. أبكاني مشهد اللقاء هذا، وأسرعتُ نحوهم؛ قال السيّد ستّار إنّ شظيّة أصابت قدم صمد وقد أُدخل إلى مستشفى في مدينة قم حيث رقد هناك عدّة أيام للمعالجة، وغادره اليوم.

ركضت نحو المنزل ووضعت مهدي في سريره ومددت فراشًا لصمد، ثمّ عدت لأُساعده على دخول البيت والاستلقاء على الفراش.

لم تتركه خديجة ومعصومة لحظة واحدة. كانت معصومة تُقبّل يديه ورأسه، وخديجة تربّت على قدمه المجروحة. أعطاني السيد ستّار الأدوية وشرح لي مواعيد استعمالها وأكّد أنّ عليه أخذ حقنة كلّ يوم.

في تلك الليلة، اهتمّ السيد ستّار بصمد، وغادرَنا في الصباح. عند الظهر، كنت أُحضّر الطعام عندما ناداني صمد، وبدا أنّه ليس على ما يرام، فقال: «**قدم خير، كتفي يؤلمني كثيرًا، تعالي وانظري ما به**».

عندما نزعت قميصه تفطّر قلبي من أجله، رأيت في كتفه ازرقاقًا قاتمًا بحجم قطعة نقود معدنية، تذكّرت أنّها قد تكون شظية من القنبلة اليدوية التي انفجرت عند اشتباكه مع

المنافقين، قلت: «**إنّها شظيّة قنبلة**». قال: «**أحضري دبّوسًا وحمّيه على النار**».

قلت: «**ماذا تريد أن تفعل؟ لا تعبث بها دعنا نذهب إلى الطبيب**».

قال: «**أذهب إلى الطبيب من أجل شظيّة تافهة؟! لقد أخرجت عشرين واحدة مثلها حتى الآن. لا داعي للقلق، أحضري الدبّوس**».

قلت: «**لكنّ الجرح ملتهب «قال: «بالله عليك يا قدم خير لا تُضيّعي الوقت، فأنا أتألّم كثيرًا**».

أحضرت دبوسًا ووضعته على النار حتى احمرّ جيّدًا.

قال: «**اغرزيه تحت الجلد حيث الازرقاق، إلى أن يصل تحت الشظيّة، وادفعيها به**».

أدنيتُ الدبّوس من كتفه لكنّي لم أجرؤ على تنفيذ طلبه، فقلت: «**خذه، أنا لا أقدر على ذلك، أخرجها أنت**».

فطّب حاجبيه وقال: «**أنا أتألّم وأنت لا تقدرين على التحمّل؟ بالله عليك أسرعي، أكاد أموت من الألم**».

أدنيت الدبّوس من الجرح مجدّدًا لكنّي هذه المرّة أيضًا لم أجرؤ. فقلت: «**لا أستطيع، قلبي لا يحتمل ذلك، بالله عليك صمد، خذه أنت وأخرج الشظيّة كما أخرجت الشظايا العشرين تلك**».

ذهبت إلى الفناء حيث كانت الطفلتان تلعبان، جلست قرب حوض الأزهار ونظرت إلى شتلة الكرز الحامض التي كانت تكبر شيئًا فشيئًا، وعدت بعد قليل إلى الغرفة. رأيت صمد واقفًا في الصالة أمام المرآة ويمسك مرآة أخرى صغيرة بيده محاولًا ثقب جرح كتفه بواسطة الدبوس، وقد عقد حاجبيه وعضّ على شفتيه. كان يتألّم كثيرًا. فجأة صرخ وقال: «**أظنّ أنّها خرجت. قدم خير، تعالي وانظري**».

سال الدم من جرح كتفه وظهرت معه الالتهابات. وبعد قليل، برز شيء صغير أسود اللون، أخذت المنديل من يده ووضعت الشظية فيه وقلت: «**هذه هي!**» قال: «**أجل، هذه هي الملعونة**».

تفطّر قلبي مجدّدًا، أحضرت الماء المغلي وغسلت به جرحه، لكنّي لم أحتمل النظر إلى الجرح، أغمضت عينيّ وبقيت أختلس النظر إلى الجرح وأنا أُنظّفه؛ كان كبيرًا بحجم قطعة النقود المعدنية والدم يسيل منه. تذكّرت أنّه لا يتمّ تضميد الجرح إلا باستعمال

المعقّـم، فأحضرت المعقّم، وبيدين مرتجفتين غسلت الجرح. عند ذلك انتفض صمد من مكانه وصرخ من شدّة الألم.

نظر إلي وقال: «**لماذا أنت شاحبة اللون؟**».

طويت قميصه إلى الأسفل. ضحك وقال: «**انظروا إلى زوجتي، أنا من يتألّم وهي التي تتلوّى**».

ساعدتـه كـي يستلقـي إلى الجهـة اليمنى. دخلـت الطفلتـان وهما تلعبـان وتمرحان. واستيقظ مهدي من النوم جائعًا وصار يبكي. نظرت إلى صمد فوجدته سرعان ما غطّ في نوم عميق، كأنّه لم ينم منذ مدّة طويلة.

لـم يستطع صمد الخـروج من المنزل عشـرة أيام بسبب جراحه. بعدهـا صار يمشي متوكّئًـا على عـكّازه. كان أصدقاؤه يأتون في المساء ويذهبـون معًا لزيارة عوائل الشهداء، وفـي بعض الأحيان كان يذهب إلـى المساجد والمدارس ليُلقي المحاضرات ويشرح للناس عـن أوضاع الجبهات ويُشجّعهم على الالتحاق بها حيث كانت البداية معنا منذ أشهر. كان أخـوه ستّـار يُرافقه دائمًـا في هذه النشاطات، ورغـم أنّه قد تزوّج حديثًـا إلا أنّه لم يترك الجبهة قط.

ما إن مضى عشرون يومًا على إصابته، حتى رأيته ذات يوم مرتديًا بزّته حاملًا حقيبته بيده، فسألته: «**إلى أين؟!**» قال: «**إلى الجبهة**».

فغرتُ فاهي مستغربةً، ولم أُصدّق ما قاله. لقد طلب منه الطبيب استراحة لمدّة ثلاثة أشهر على الأقل. قلتُ: «**وأنت على هذه الحال؟**» ضحك وقال: «**ممّ أشكو؟ هل أنا معاق أو أعرج؟! أنا اليوم أفضل من أيّ يوم آخر**» قلتُ: «**لكنّك لم تتعاف بعد!**».

وبخطـوات عرجاء، تقـدّم نحو الصغار وهم نائمـون، انحنى وقبّـل رؤوسهم ثم نهض وأخذ عكّازه من على جانب الجدار وقال: «**حبيبتي قدم خير، هل تريدين شيئًا؟**».

أسرعـت نحو الباب قبـل أن يصل إليه، فتحت يديّ وسـددت الطريق، قلتُ: **لن أدعك تذهـب**. تقـدّم ووقف أمامي وجهًا لوجـه، قال: «**ما هذه التصرُّفات؟ ألا تخجلين؟**» قلتُ: «**لن أخجل بعد الآن، لن تذهب! مستحيل**».

قال ممتعضًا: «**لمَ تتصرّفين هكذا؟ لا تكوني عنيدة، أنت لم تكوني كذلك!**».

بكيـتُ وقلتُ: «**لقد تحمّلـتُ حتى اليوم كلّ شيء مـن أجلك. كلّ هذا العـذاب، العيش**

بهذه المدينة من دون معين، مع ثلاثة أطفال صغار، تحمّلتُ ذلك لأنّك تُريده، لأنّ هذا يُريحك، تذهب وتعود ولا أتفوّه بأيّ كلمة، لكن هذه المرّة سأقفُ في طريقك، لن أدعك تذهب، طالما تنازلتُ عن حقّي وحقّ أولادي، لكنّ الأمر هذه المرّة يتعلّق بصحّتك، لن أتنازل عن حقّك، ولا عن حقّ أولادي بعد الآن. هؤلاء الصغار يريدون أبًا، لن أدعك تُعرِّض حياتك وصحّتك للخطر، ماذا نفعل إذا التهبت قدمك؟».

أجابني بكل هدوء: «لا شيء، ماذا نستطيع أن نفعل؟ نقطعها ونرميها بعيدًا، فداءً للإمام!».

غضبتُ من برودته هذه وقلت: «صمد!».

قال: «نعم يا عزيزتي!» قلت: «اذهب واجلس في مكانك، عندما يسمح لك الدكتور سأسمح أنا أيضًا».

اتّكأ على عكّازه وقال: «حياتي قدم خير، لقد كنت السيدة المتفضّلة الكريمة كلّ هذه الأعوام، تعبتِ من أجلي ومن أجل أطفالي، شكرًا لك، لكن لا تخذليني وسط الطريق، ولا تدعي معاناتك دون ثواب. تذكرين أنّني من أول يوم رأيت فيه الإمام أقسمت على أن أكون جنديًا مطيعًا له، تذكرين ذلك بالتأكيد. وقد أمر الإمام بالجهاد وطلب منّا أن نُدافع عن الدين والوطن، وأنا قلت له سمعًا وطاعةً، لا تسوّدي وجهي».

قلتُ: «حسنًا، يُمكنك أن تقول سمعًا وطاعةً، لن أُعارض ذهابك لكن عندما تتعافى» قال: «قدم خير! والله أنا بخير، أنت لم تذهبي إلى الجبهة لتُشاهدي كيف يأتي الشباب إلى الجبهة بقدم مقطوعة وبيد واحدة، ولا يتأفّفون أبدًا. إصابتي لا شيء يُذكر بالمقارنة مع إصاباتهم».

قلتُ: «أنتَ أساسًا لا تُحبّ عائلتك».

أشاح بوجهه ولم ينبس ببنت شفة. ذهب متثاقلًا إلى زاوية الصالة وجلس هناك. قال: «معك حقّ، لم أبذل لكم ما كان يجب عليّ بذله، لكنّي والله كنت وما زلت أُحبّكم وسأبقى على الدوام».

قلتُ: «لا، أنتَ تُحبّ الجبهة والإمام أكثر منّا».

ضاق بي ذرعًا وقال: «قدم خير، لمَ أنت اليوم هكذا؟ لماذا تُجادلينني؟».

فجأة، خرجت من فمي عبارة: «لأنّني أُحبّك!».

كانت هذه أوّل مرّة أقولها له. وضع رأسه على ركبتيه وأجهش بالبكاء. وأنا أيضًا ساءت حالتي، ذهبتُ إلى المطبخ وجلستُ أبكي في الزاوية. بعد قليل، وقف قربي ووضع يده على كتفي، قال: «**لطالما انتظرت سماع هذه الكلمة منك، لكن حبيبتي قدم خير، لمَ الآن؟ ليتك لم تقوليها في هذه اللحظات الأخيرة، لقد جعلتِ قلبي يخفق وأنا ذاهب لمقارعة السيوف، أنا أيضًا أُحبّك لكن ماذا أفعل؟ إنّه التكليف!**».

توقّف قليلًا وكأنّه يُخيّر نفسه بين الرحيل والبقاء، لكنّه قال فجأة: «**وضعت لكم نقودًا لثلاثة أشهر، خفّفي من الحزن واهتمي بالبنتين، انتبهي لمهدي، هو الآن رجل هذا المنزل**».

ثم تابع: «**إذا كنت تُحبّينني حقًّا لا تدعيني أتراجع عن قراري وعن الوعد الذي قطعته للإمام. ساعديني على أن أكون صادقًا فيه حتى آخر لحظة، إن كنت تُحبّينني عديني أنّك ستُساعدينني على ذلك**».

وعدتُه وقلتُ: «**كما تريد**»، ثم تنحّيت عن طريقه ووافقت على ذهابه بتلك القدم المصابة. قلت له: «**كما تريد**». لكنّي كنت منهارة في داخلي. لم أستطع تحمّل رحيله. أسرعت خلفه نحو الزقاق، وضعت في جيب قميصه قرآنًا صغيرًا كان عندي، وساعدته في الوصول إلى الشارع العام وطلبتُ له سيارة أجرة. عندما ركب السيارة شعرت بأنّ الشارع والزقاق يهويان على رأسي ورافقتني الدموع في طريق العودة إلى المنزل.

مضى أسبوع على غيابه، لكنّها المرّة الأولى التي لم أستطع فيها مزاولة حياتي الطبيعية. لم تقوَ يداي على فعل شيء. كنتُ أُخاطب نفسي وأقول: «**قدم خير، لقد قلتِ: «كما تريد»، ويجب أن تنتظري المزيد**».

لم أستقرّ في مكان، كنت أنهض من هنا لأجلس هناك، وأُفكّر كيف أنّ صمد كان جالسًا هنا قبل أسبوع، وكنّا نتناول الغداء في هذا الوقت، أو نتكلّم عن هذا الموضوع. لم تدعني وشأني تلك الذكريات الجميلة للّحظات التي قضيناها معًا.

عمّت الأحزان والهموم منزلي، وعرفت في تلك الأيام أنّي حامل مجدّدًا. لقد زاد ذلك من همومي، ماذا أفعل بأربعة أطفال وأنا امرأة في الثانية والعشرين من عمرها؟ كيف لي أن أُدير حياتي وحياة أطفالي الأربعة؟ إلهي لمن أشكو حزني؟! يا ليته كان مجرّد كابوس وأستيقظ منه. ليت الطبيب يقول لي عكس ذلك. لكن ما سبب هذا النعاس والغثيان والتعب؟.

مضت ثلاثة أشهر وأنا في برزخ الشكوك، أتراني حاملًا أم لا؟ لكنه كان واقعًا ولم يعد باستطاعتي فعل شيء.

دخلَتِ المدن دائرة الحرب. كنتُ بين حين وآخر أحمل مهدي وأُنادي خديجة ومعصومة ونركض جميعًا لنختبئ تحت الدرج. كنت أتساءل: هل ستُكتب الحياة لهذا الجنين في ظلّ هذا التوتّر والاضطراب؟

ذات يـوم أُطلقت صفّارات الإنذار، فحضنت صغاري وجلسنا تحت الدرج. ارتفع صوت مضادّات الطائرات إلى درجة فكّرت أنّ الطائرات فوق بيتنا. بكى مهدي من شدّة الخوف، فـي حيـن نظرت خديجة ومعصومـة إلى أخيهمـا، وأجهشتا بالبكاء. لـم أكن أعرف كيف أُهدّئ روعهم وكدتُ أبكي معهم أيضًا. بدأتُ أُلاعبهم وأقصّ عليهم القصص، لكنّ ذلك لم ينفـع. في تلك الأثناء فُتح الباب ودخل صمـد. ارتعب منه الأطفال للوهلة الأولى واستغربه مهدي، وراح يصرخ متمسّكًا بي.

حمـل صمد خديجة ومعصومـة وقبّلهما، لكن لم يستطع أخذ مهـدي مهما حاول، ولم يكن صوت إطلاق النار ينقطع للحظة.

قال صمد: «**لمَ تجلسون هنا؟**».

قلتُ: «**ألا ترى وضعيّة الإنذار؟**».

قال ضاحكًا: «**تقصدين أنّكم تموضعتم هنا؟ أصلًا هذا المكان هو الأكثر خطورة في البيت. اذهبوا واجلسوا في الفناء فهو أكثر أمنًا**».

أمسـك بيد خديجـة ومعصومة وأخذهما إلى الغرفة، وأنـا أيضًا حملت مهدي وذهبت خلفهـم. بعد قليل رُفعت حالة الإنذار. استحمّ صمد وغيّر ملابسه، ثم شرب الشاي وغادر المنـزل. عـاد بعـد بضع ساعـات مع أحـد أصدقائه وهما يحمـلان مجموعة مـن أكياس الإسمنت والأعمدة الحديدية.

بنـى لنا صمد دشمة في الفنـاء أمام المطبخ. كان طوال الفتـرة التي قضاها بجانبنا يعمل على بنائها.

كنت أُحضّر له الشاي وأجلس أمام باب الدشمة وأظلّ أنظر إليه وهو يعمل.

قـال ذات مرّة: «**يـا لذكريات صيف تلك السنة حين كنّا نبنـي منزلنا معًا، ما الضير في أن تتكرّر تلك الأيام مرّة أُخرى بصفاء وسعادة؟!**».

قلتُ: «**كأنّك تناسيت أنّك تركتني في نهاية ذلك الصيف أيضًا وذهبت!**».

قـال: «**أتذكّر ذلـك لكنّنا بقينا معًا طوال الصيف بهناء وسرور، أعتقد أنّ تلك الفترة كانت أطول فترة أمضيناها معًا**».

شـرب الشاي وقـال: «**سأشتري سيـارة حينما تنتهـي الحـرب وسنجول العالـم معًا، نذهب من مكان إلى آخر**».

قلتُ له ضاحكة: «**مع كلّ هؤلاء الأطفال؟**».

قال: «**لا، فقط أنا وأنت وحدنا**».

قلتُ: «**وماذا سنفعل بالأطفال؟**».

قـال: «**سيكبـرون حتـى ذلـك الوقـت ونستطيـع تركهـم فـي المنـزل بمفردهـم أو نستودعهم شينا**».

أطرقت رأسي وقلت: «**مسكينة شينا، أخرج هذه الفكرة من رأسك! لن نقدر أنا وأنت على التّجوال في المدى القريب، خاصّة حين ينضمّ إلينا فرد جديد**».

وضع قدح الشاي على الصينية وقال: «**ماذا تقولين؟**».

ثم نظر إلى بطني وقال: «**متى؟**» قلت: في شهره الثالث، قال: «**أمتأكّدة أنت؟!**».

قلتُ: «**ذهبت مع زوجة السيد ستّار إلى الدكتور، هي أيضًا حامل. قال لنا الدكتور إنّ ولادتنا ستكون متقاربة**».

كنـتُ أعلم هذه المـرّة أنّه لم يُسرّ كثيرًا لذلك، رغم ذلك كان يقول: «**إنّني مسرور، إنّ الله كبير، لا تتدخّلي في شؤون الربّ، بالتأكيد يوجد مصلحة في الأمر**».

وأخيرًا اكتمل بناء الدشمة، حجرة صغيرة بأبعاد (1×1.5م). كان يبدي فرحته ويقول: «**لعمري يا قدم خير، لن تتأثّر حتى لو أصابتها قذيفة**».

ذهب بعد ثلاثة أيام، ولأنّه شعر بكآبتي وعدني أن لا يُطيل الغياب. وقد وفى هذه المرّة بوعـده، حيـث عاد بعد عشرين يومًـا. كان يتودّد إليّ أكثر من ذي قبـل، يأخذ مهدي أينما يذهب ويقول: أعلم أنّ «**مهدي**» ولد مشاغب وكثير الحركة ويُتعبك.

فـي أحد الأيام حمل «**مهدي**» كعادته وذهب. بعد لحظات، سمعت صوت بكاء «**مهدي**» يرتفـع في الزقاق. أسرعتُ إلى الزقاق فوجدته يبكي في حضن صمد، سألت صمد: «**ماذا حصـل؟**» قـال: «**انظري إلى ابنـك، إنّه مشاغب جـدًّا، لقد فتح محفظة (تابلـو) السيارة ويريد أخذ معلّبات الفاكهة منها**».

قلتُ: «**فليأخذها، إنّه طفل**»؛ أعطاني «**مهدي**» وقال: «**لم أستطع تهدئته، حاولي أنتِ**».

قلتُ: «**أعطه العلبة وسوف يسكت**» قال: «**ماذا تقولين؟ لقد أُعطيناها في الجبهة فهي طعامنا عند القتال، أنا الآن في إجازة وأكل هذا الطعام هنا فيه إشكال**».

قبّلت «**مهدي**» وحاولت إسكاته، قلتُ: «**ما هذا الكلام؟ إنّك تُصعّب الحياة كثيرًا، ليس الأمر كما تقول، هذا الطعام من نصيبك سواء كنت هنا أو هناك**».

أخرج العلبة من المحفظة ووضعها في صندوق السيارة الخلفي، بعيدًا عن عيني «**مهدي**»، وقال: «**ولمَ نحوم حول الشبهات؟**».

في الشهر الأخير من حملي، كان صمد قد وعدني أن يبقى بجانبي أثناء الولادة، إلّا أنّه لم يصلنا حينها أيّ خبر عنه. كنّا في شهر (كانون الأول) والثلج يُغطّي الطرقات. استيقظت في الصباح الباكر من دون أن أُصدر أيّ صوت كي لا أوقظ الأطفال، لففت بطني بشال صوفٍ كبير، وعقدت المنديل الذي كان صمد قد اشتراه لي حول رأسي، ثم لبست جاكيت صمد. ووضعت قبّعة على رأسي كي أبدو من بعيد على هيئة رجل يقوم بجرف الثلوج. ذهبت إلى فناء الدار ووجدت الثلوج أكثر ممّا توقّعت. أخذت السلّم من زاوية الفناء ووضعته على حافة السطح، ثم وضعت في أسفله حجرين من الآجر وأخذت المجرفة بيدي وأمسكت السلم بيدي الأخرى. صعدتُ السلّم درجة درجة وأنا أدعو الله أن لا ينزلق وأسقط أرضًا، فلو حدث ذلك سينتهي أمري وأمر جنيني.

وصلت إلى السطح أخيرًا. لم يكن الجيران قد صعدوا إلى سطوحهم بعد لجرف الثلوج. سررت بذلك لأنّ أيًّا منهم لن يراني وأنا على تلك الحال.

كان من الصعب عليّ جرف الثلوج المتراكمة، فهو عمل شاق لكن لا بدّ من القيام به. كنت أدفع المجرفة من آخر السطح إلى أوّله لكي تصل الثلوج إلى الحافة وأرميها في الزقاق. بعد قليل شعرت بألم في بطني، لكنّي قلت في نفسي: «**ها قد أنهيتِ جرف نصف السطح ولا بدّ أن تُكمليه، فلو تركتُ الثلوج على السطح سيدلف السقف وعند ذلك لن يتحمّل المشقّة أحد سواك**».

كنت أستريح بين الجولة والأخرى، وأنفخ في يدي المتجمّدتين بالرغم من أنّ جسمي كان دافئًا، إلا أنّ الصقيع كان يلفح وجهي. كدت أُنهي تنظيف السطح لمّا شعرت بحرارة وألم في ظهري، كما أحسست كأنّ حبلًا قد انقطع في داخلي. لم أعرف كيف رميت

المجرفـة على الثلوج ونزلت عن السطح، كنت خائفة للغاية، أحسست أنّ حبل صرّة الطفل قد انقطع وسوف يحدث مكروه.

كان الأطفال نائمين وظهري يؤلمني بشدّة. كنت أُردّد: يا أبا الفضل العباس، ساعدني!

ذهبت إلى الفراش ونمت بنفس تلك الملابس وتدثّرت باللحاف.

لـم أكن أعلم مـاذا أفعل في تلك اللحظات، هـل أذهب إلى المستشفـى، أم أتّجه إلى الجيران؟ لكن باب من أطرق في هذا الصباح الباكر؟!

اشتدّ ألم ظهري وسرى إلى بطني أيضًا. يا ليت خديجتي كانت كبيرة، يا ليت معصومة كانـت قادرة على مساعدتـي... بدأت أفقـد الإحساس في قدميّ، ثمّ ساقـيّ، فكلتا قدميّ ويـديّ. لم أعد أعـي شيئًا، في اللحظة الأخيرة قلت: «**يا أبا الفضل العبّاس!**» ولا أتذكّر إن أكملت جملتي أم لا!

كان صمـد واقفًا أمامـي، بشعره الأشعث ووجهه الملطّخ بالتـراب. سلّم عليّ، لكنّي لم أستطع أن أُجيبه.

قـال: «**هل ولد الطفل؟**» لـم أستطع إجابته، جلس بجانبي وقال: «**هـل وصلت متأخّرًا هذه المرّة أيضًا؟ هل حدث لك شيء؟ لماذا لا تُجيبين؟ هل أنت مريضة؟**».

كنت أنظر إليه لكنّي لم أستطع التفوّه بكلمة واحدة؛ نظر إلى عينيّ وحرّك وجهي بهدوء ثم صرخ قائلًا: «**يا سيدتي يا زهراء، قدم خير! قدم خير! هذا أنا، صمد!**».

وكأنّي استيقظت فجأة من سبات عميق، فتحت عينيّ وأغلقتهما عدّة مرّات وقلت: «**هذا أنت صمد؟ هل أتيت؟**».

نظر إليّ باستغراب، أمسك بيدي وقال: «**ماذا حدث لك؟ لمَ أنت متجمّدة؟**».

قلـت: «**كنت أجرف الثلوج، ولا أدري مـاذا حلّ بي، أظنّ أنّني فقدت الوعي**» ثم سألته: «**كم الساعة الآن؟**» قال: «**العاشرة صباحًا**».

نظـرت إلى الصغار، كانوا ما زالوا نائمين. لـم أُصدّق، لقد نمت من الساعة السادسة صباحًا حتى الآن!

ضرب صمد على رأسه وقال: «**ماذا فعلت يا امرأة؟ هل تريدين أن تقتلي نفسك؟**».

لم أكن قادرة على تحريك جسمي، كنت فاقدة الإحساس في قدميّ ويديّ.

سألني: «**هل تناولت شيئًا من الطعام؟**».

«**لا، ليس لدينا خبز**».

«**سأذهب الآن وأشتري**».

«**لا، لا داعي لذلك، تعال واجلس بجانبي، أنا خائفة لست على ما يرام، عليك فعل شيء، اذهب وأخبر جارتنا السيدة «كل كز»، أظنّ أنّه علينا الذهاب إلى الطبيب**».

راح يدور في الغرفة مرتبكًا وهو يُكلّم نفسه: «**يا سيدتي يا زهراء! احفظي لي زوجتي، يا إمامي يا حسين كن بعونها**».

قلتُ: «**لا تخف، لا يوجد خطر، لو كان سيحدث لي شيء لحدث. لكن حتى الآن لم يحدث شيء، كما إنّه لم يحِن وقت ولادة الطفل بعد**».

قال: «**فليرحمني الله ويُسامحني على أخطائي، كلّ هذا بسببي، ماذا فعلت بك؟!**».

مرّة أخرى عدت إلى تلك الحالة، فقدت الإحساس في يديّ وقدميّ، وغلبني النعاس. أتى صمد وأمسك بيدي وحرّكني قائلًا: «**قدم خير! حبيبتي قدم خير! افتحي عينيك، قولي شيئًا، لقد قضيت عليّ، ماذا فعلت بنفسك، يا ليت هذه الآلام قد أصابتني بدلًا منك! قدم خير، قدم خير، يا عمري قدم خير!**».

كان الوقت منتصف الليل عندما ولدت ابنتنا الثالثة، وفي صبيحة اليوم التالي خرجت من المستشفى.

حمل صمد سمية معه. من شدّة الفرح، كان يضحك ويقول: «**هذه البنت الوحيدة التي تُشبهني، جميلة وخفيفة الظلّ**».

جاءت أمي وأخواتي وزوجات أخوة صمد لمساعدتي. كانت شينا قد أُصيبت بجلطة منذ فترة ولم تكن قادرة على المشي، فجلست بجانبي وراحت تُقبّل يدي طوال الوقت. انشغلت أخواتي في المطبخ بطهو الطعام. بحثت بعينيّ عن صمد فلم أجده بين الحضور، ناديت أختي وقلت: «**ناوليني قدحًا من الشاي**».

عندما أتت بالشاي همست في أُذُنها: «**أليس صمد هنا؟**».

ضحكت وقالت: «**لا، عندما كنتِ نائمة علمنا أنّ زوجة السيّد ستّار قد جاءها المخاض أيضًا، فذهب السيد صمد ليأخذها إلى المستشفى**».

عاد صمد في المساء وبيده علبة حلوى ورمّان وقال: «**لقد رزق الله ستّار سمية أخرى**».

وضع حبّات الرمّان في صحن وقدّمه لي ثم جلس بجانبي وقال: «**الحمد لله هذه المرّة**

وفيت بوعدي، بالطبع ابنتنا هذه رائعة، فلو أنّها ولدت غدًا لكنت قد أخلفت بوعدي مجدّدًا».

أعطاني الصحن وقال: «**كلي الرّمان، إنّه مفيد لك**».

لم آخذ الصحن منه. فقال: «**ماذا؟ هل أنت مستاءة؟ هيّا خذيه، لقد أحضرتُه لك**».

سألتُه: «**هل تريد الذهاب بهذه السرعة؟**».

قال: «**لقد اتّصلوا بي وعليّ أن أذهب**».

قلتُ: «**ألا يُمكنك أن لا تذهب؟ ابق هنا، أُريدك هذه المرّة أن تبقى معي على الأقل شهرًا كاملاً**».

ضحك وصفّر قائلًا: «**أوووووه... شهرًا كاملاً!**».

قلتُ: «**صمد، أُقسم عليك أن تبقى**».

قال: «**هل نسيتِ ما وعدّتني به؟ ماذا قُلتِ في المرة الماضية؟**».

قلت: «**لا، لم أنس، لا أُعارض ذهابك، لكن هذه المرة ابق بجانبي ولو لأسبوع فقط**».

غرق في التفكير وراح يعبث بخيطان اللحاف ويسحبها، قائلًا: «**هذا غير ممكن، أحبّ البقاء، لكن ماذا أفعل بأبنائي في الجبهة؟ لقد أرسلتهم أمهاتهم إلى الجبهة على أمل أن أعتني بهم، ليس من الإنصاف أن أتركهم وأجلس هنا من دون فعل شيء**».

توسّلت إليه: «**صمد يا روحي، لست بلا عمل، أنت بجانبي أنا وأبنائك، ابق هنا**».

أطرق رأسه وعاد يسحب الخيوط من اللحاف. كان التلفزيون يبثّ لقطات من الحرب والبيوت المهدّمة والنساء والأطفال المنكوبين.

استيقظت سمية من النوم باكية، حملها صمد وأعطانيها لأُرضعها. عندما بدأت سميّة ترضع، ألقى صمد نظرة إليها وفجأة جرت الدموع على وجهه.

قلت: «**ما بك؟**»، أشاح بوجهه نحو الجدار وقال: «**في أوائل الحرب وفي إحدى المرّات سمعت صوت بكاء طفل، بحثت مع عدد من الإخوة عنه في أرجاء المكان، وصلنا إلى منزل كانت القذائف قد دمّرته وصوت الطفل يرتفع من داخله، دخلنا المنزل وألفينا أمًّا تضمّ طفلها الرضيع. لقد استشهدت وهي تُرضعه! وكان الطفل لا يزال يرضع من صدر أمّه الذي جفّ حليبها، لذا كان يصرخ ويبكي**».

تأثّرت كثيرًا بما قالـه. واصل كلامه: «**انظري كيف تجلسين بهدوء وأنت تطعمين ابنتك، عليك أن تشكري الله ألف مرة على هذه النعمة**».

قلت: «**الحمد لله على وجودك بجانبي، وليبقَ ظلّك فوق رأسي أنا وأولادي**».

أخذ صحن الرمّان بيده وصار يلقّمنيه الملعقة تلو الأخرى.

قـال: «**إن شاء الله، سوف تأخذين أجرك من السيدة الزهراء عليها السلام ومن الإمام الحسين عليه السلام، ما تقومين به أصعب من قتالي، أعلم ذلك، سامحيني إذًا**».

كان الرمّان لا يزال في فمي، عندما سمعت بوق سيارة في الزقاق، ومن ثم، قُرع جرس المنزل. نهض صمد وارتدى ملابسه وقال: «**لقد جاؤوا لاصطحابي، عليّ الذهاب**».

اختنقت بحبّات الرمّان التي كنت آكلها. مهما فعلت، لم أستطع بلعها، تقدّم نحوي قبّل جبيني، وقال: «**سأعود بسرعة، لا تقلقي**».

استيقظت في الصباح الباكر، على صوت سمية، كانت جائعة ويجب أن أُرضعها، لكن ما إن جلسـت في الفراش حتى غلبها النعاس مجدّدًا. نظـرت إلى السماء من النافذة، كانت لا تزال مظلمة، والساعة تُشير إلى الخامسة والنصف. نهضت وتوضّأت. عند ذلك بكت سمية مـرة أخـرى، حملتها في حضنـي وأرضعتها. كان مهـدي نائمًا بجانبـي وخديجة ومعصومة أيضًا كانتا نائمتين الواحدة بجانب الأخرى. تفطّر قلبي لمنظرهم وهم نائمون ببراءة، إنّهم أطفـال هادئون فعلًا، يبقون في المنزل من الصباح حتى المساء، لعبتهم الوحيدة أن يجروا خلف بعضهم من غرفة إلى أخرى أو يشاهدوا التلفاز، هكذا يمضون أوقاتهم وأيامهم.

تمنّيـت في لحظة أن يطلـع الصباح بسرعة كي آخذهم وأشتري لهـم أشياء تُفرحهم، لكـن ماذا أفعـل بسمية وهي ابنة أربعين يومًا، لا يُمكننـي إخراجها في هذا الجوّ القارس. كنتُ أطعمُ سمية، مسحت على رأسها وقلت: «**طفلتي البريئة، كم أنت جائعة!**».

سمعـت حركةً وكأنّ أحدًا ما خلف باب المنزل، أبعدت سمية عن صدري عنوة فضجّت بالبـكاء. ألقيت نظرة إلى الممرّ وأنا أرتجف من الخوف وناديت: «**من هناك؟ من هناك؟**» لم أسمع جوابًا فظننت أنّها قطّة.

كنـت قد وضعـت طاولة خلف الباب وقفت هنـاك وإذا بمفتاح يدور فـي القفل، سألت ثانية: «**من هنا؟**» أجابني: «**أنا صمد، افتحي**».

أزحت الطاولة بفرح وفتحت الباب. ضحك وقال: «**ماذا فعلتِ؟ لمَ لم يفتح الباب؟**».

ثـم نظـر إلى الطاولة وقـال ممازحًا: «**أيتهـا الجبانـة!**» مدّ يده مسلّمًـا: «**سلام! كيف حالك؟**» ثم ركض الأطفال، الذين استيقظوا على صوت بكاء سمية، إليه يحتضنونه بفرحة عارمة.

أخـذ صمد يُقبّل الصغار وينظر إلـيّ ويقول: «**هل أنت بخير؟ هـل تحسّنت؟**» ضحكت وقلت: «**أنا بخير، أنت كيف حالك؟**».

حمـل مهدي وأمسكت معصومة ببذلته. قال: «**هيّا أسرعوا، علينا أن نذهب. لقد أتيت بسيـارة**» سألته بتعجُّب: «**إلى أيـن؟**»، وضع مهدي على الأرض وحمل معصومة وقال: «**أريد أن آخذكم إلى الجبهة. لقد أبلغونا ليلة أمس أنّه أصبح بإمكان القادة أن يأخذوا عوائلهم لقضاء بعض الوقت، فأتيت ليلًا لاصطحابكم**».

ركضـ الصغـار بسرور، غسلوا وجوههـم ولبسوا ملابسهم. أخذ صمـد التلفزيون من زاوية الغرفة وقال: «**هذا يكفي، كلّ شيء متوافر هناك، لكن أكثري من ملابس الصغار**».

قلـت: «**دعنـي أُرتّـب الفراش على الأقـل وأُقـدّم للصغـار فطورهم**» قـال: «**سنتناول الفطـور خـلال الطريـق، أسرعي قليـلًا، يجب أن نصـل إلى مدينة «سر پـل ذهاب» قبل الغروب**».

هيّـأتُ سميـة وأخذت ملابـس لي وللأطفـال، ألبست مهدي ووضعت يـده بيد خديجة ومعصومـة وقلت: «**اذهبوا أنتـم واركبوا السيـارة**». غطّيت سمية بالبطانيـة؛ كنّا في شهر كانون الثاني وكان الجوّ شديد البرودة؛ أعطيتها لصمد، ثم أقفلت الباب واتّجهت إلى منزل جارتنا السيدة «**كل كز**» لأودّعها ثم أوصيتها بتفقّد المنزل. عندما ركبت في السيارة، رأيت السيدة «**كل كز**» ترفع طرف الستارة وتلوّح لنا بيدها.

مـا إن انطلقـت السيـارة حتى علا صـوت الأطفال، كانـوا مسرورين إذ لـم يكونوا قد خرجوا من المنزل منذ وقت طويل.

كان صمـد يقود السيـارة وكان يُجلس مهدي على ركبتيه تـارةً، ويعطيه مقود السيارّة، وتارةً أخـرى يُجلس معصومة بيني وبينه ويقول لها: «**أنشدي الأشعار لوالدك**»، ثم ينحني ويشاكس خديجة وينثر شعرها على وجهها فيعلو صراخها.

وصلنـا إلـى مدينة «**صحنة**». ركن صمـد السيارة أمام مطعم صغيـر بجانب الطريق، دخلنا إليه وتناولنا فطورًا لذيذًا ونظيفًا رغم بنائه المتواضع.

وبينما كنت أتناول فطوري، استيقظت سمية من النوم، فأرغمتني على الذهاب والجلوس في السيارة لأُرضعها وأُبدّل حفاضها.

أثناء ذلك، رأيت سيارات عسكرية ضخمة تعبر الطريق، وشاحنات أخرى تحمل مساعدات للناس ويرفرف فوقها علم إيران.

أحضر لي صمد الخبز والجبن والزبدة والمربّى، أعطانيها وقال: «**أنت لم تتناولي الفطور، خذي هذه**».

كان الصغار ينادون بابا بابا، وصمد ينشد لهم ويقصّ عليهم القصص. كانت سمية في حضني ولا تزال ترضع. نظرت إلى الطريق حيث الجبال المغطّاة بالثلوج، وإلى السيارات العسكرية، والمقاهي، والأشجار العارية من الأوراق وإلى الطريق الذي لا ينتهي.

أثناء المسير، سقطت السيارة في مطبّ، فصحوت من غفوتي. كانت السيارات العسكرية إضافة إلى حركتها على الطريق الرئيسي، تسير في حاشية الطريق الترابية، كما يسير عدد من الدبّابات على التراب بمحاذاة الطريق، أدرت وجهي إلى الخلف، ونظرت إلى معصومة التي كانت تنام وفمها مفتوح، ومهدي نائم أيضًا ورأسه على قدميها، في حين كانت خديجة تحمل سمية في حضنها، وصمد يقود السيارة بيديه الاثنتين. فسألته: «**هل أنت من وضع سمية في حضن خديجة؟**» قال: «**نعم، كنتِ متعبة، بالتأكيد سمية لم تدعك تنامين في الليل. رقّ قلبي لحالك**».

انحنيت إلى الوراء قائلةً لخديجة: «**أعطني سمية، ستتعبين يا حبيبة أمّك**». التفت صمد ونظر إليّ قائلًا: «**يا إلهي! كم أنت حنونة!**».

ضحكتُ وقلتُ: «**ما خطبكَ؟ هل تنشد فيّ شعرًا؟**» قال: «**بل أقول الحق، خلال الساعات القليلة الماضية أدركت كم أنّ تربية الأطفال أمر صعب، ما أكبر تحمّلك! تتعبين كثيرًا، أليس كذلك؟ حتى لو غضضنا الطرف عن ثرثرة مهدي وأسئلته المتنوّعة وشجارات خديجة ومعصومة، هذه سمية تكفي في إجهادك**».

كان ينظر إلى الطريق، وضع يده على مبدّل السرعة ثم قال: «**لم يبق الكثير حتى نصل، ليتك تنامين ثانيةً، أعلم أنّك تتعبين كثيرًا وتحتاجين للراحة. هنا عليك أن تستريحي، عليك أن تأكلي وتشربي وتنامي فقط، أُقسم يا قدم خير، إذا انتهت هذه الحرب وبقيتُ حيًا، فسترين ماذا سأفعل من أجلك، لن أدعك تُعانين من أي مشكلة**».

التفـتُّ إلى الخلف ونظـرتُ إلى خديجة التي غلبها النوم وهـي تنظر إلى الطريق، كما نامـت سميـة أيضًا في حضني. قـال صمد: «**نام الصغـار، وحان دورنـا الآن، حدّثيني عن أحوالك، هل أنت بخير وبصحة جيدة؟!**».

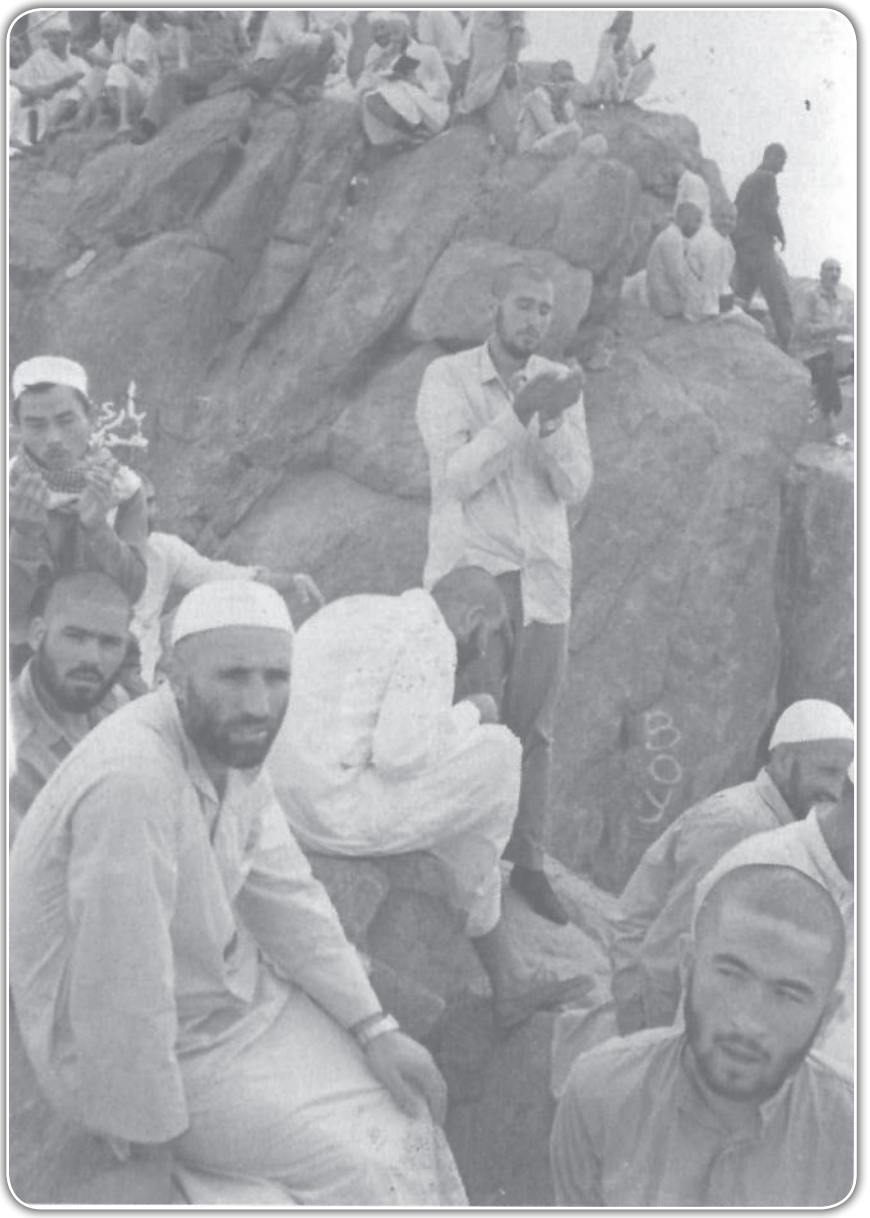

صمد في مناسك الحجّ؛ سنة 1364 هـ. ش-(1985م).

الفصل السادس عشر

الحياة في الثكنة

لـم تكن مدينة «**سر پل ذهاب**» كما توقّعـت ...، بل كانت أشبه بقرية منكوبة. لم أر فيها محالَّ تجاريّة، وإن وُجدت، فإنّ أغلبها مغلق، وقد تكوّرت أبوابها الجرّارة أو ثقبت من شدّة الانفجارات. أمّا شوارعها فقد تحوّلت إلى كثبان ترابيّة منزوعة الإسفلت، ما جعل السيارة تنزل في الحفر فتصطدم رؤوسنا بسقف السيارة.

عبرنـا الشـوارع الخالية إلا من بعض المحال المفتوحـة لبيع الفواكـه والخضراوات واللحـوم وبعض احتياجات الناس اليوميـة. قلتُ: «**هـذه مدينة أشباح!**» هـزّ رأسه وقال: «**أجل، إنّها منطقة حرب**».

بعد قليل وصلنا إلى ثكنة «**أبو ذر**»، تقدّم صمد إلى أمام نقطة الحراسة وأظهر بطاقته للحارس الـذي كان أمام الباب، تكلّم معه قليلًا ثم عاد إلـى السيارة. ألقى الحارس نظرة داخل السيارة ثم أذن لنا بالتحرُّك.

كنّـا ننظر أنا والأطفـال بدهشة إلى الدبّابـات في المعسكر وإلى الجنـود الذين كانوا يرتـدون زيًّـا موحّدًا. سألنـي صمد: «**هـل تخافيـن؟**» رفعت كتفي وقلـت: «**لا!**» قال: «**هذا المكان بالنسبة لي مثل قايش، عندما أكون هنا أشعر أنّني في قريتنا**».

ركن صمد السيارة أمام أحد المباني ثم ترجّل منها، حمل مهدي وقال: «**لقد وصلنا**».

صعدنـا أدراج المبنى المؤلَّف من عدّة طبقات؛ كانت جدرانـه وممرّاته مليئة بكتابات مختلفة بخطّ اليد، قال صمد: «**هذه الكتابات خواطر وذكريات كتبها الإخوة**».

يشتمـل الطابق الأوّل على عدّة غرف متجاورة بأبواب حديدية متشابهة. عندما وصلنا إلى الطابق الثاني، انعطف صمد إلى اليسار وسرنا معه أيضًا.

توقّـف أمـام أحـد الأبواب وقـال: «**هذه غرفتنـا**»، ثمّ فتـح باب الغرفـة التي كانت مفروشـة بموكيت رصاصـي اللون. وضع مهدي علـى الأرض، ثمّ خرج وعـاد بعد قليل

حاملًا معه التلفاز. كان هناك عدد من البطانيات العسكرية والوسادات قد رُتّبت في زاوية الغرفة.

كان في الغرفة نافذة تُطلّ على ساحة المعسكر. أخذ صمد إحدى البطانيات وقال: «**نُعلّق هذه البطانية على النافذة مؤقّتًا إلى أن تعدّ السيدة قدم خير ستارًا يُناسب ذوقها**».

نظر الصغار إلى الجدران وأطراف الغرفة بتعجّب. وضعت حقائب الملابس وسط الغرفة، وجال صمد بالأطفال ليريهم الحمام والمطبخ والمرافق ثم غسل وجوههم وأيديهم، وأحضر كوبًا وإبريقًا من الماء وضعهما وسط الغرفة وقال: «**أنا ذاهب لأحضر العشاء وسأعود بسرعة**».

كنّا في الأيام الأولى نتناول طعام الغداء معًا، لكن بعد عدة أيام، أحضر قادة آخرون عوائلهم إلى المعسكر واستقرّت كلّ أسرة في غرفة. كان في الغرفة المحاذية لنا أحد القادة مع زوجته الحامل، حيث كنّا نستيقظ كلّ يوم على صوت تقيُّؤِها. لم يتمكّن زوجها من تناول طعام الغداء معها كل يوم، فقال صمد: «**من الآن فصاعدًا أنا أيضًا لن آتي للغداء، اذهبي أنت وتناولي الغداء مع تلك السيدة كي لا تشعر بالوحدة**».

كانت الحياة ممتعة في معسكر «**أبو ذر**» رغم صعوباتها. لم يكن يمرّ علينا يومٌ لم نسمع فيه صوت انفجار قريب أو بعيد، أو أصوات الطائرات التي تقصف المناطق المجاورة. اعتدنا على ذلك، نحن الذين كنّا في همدان نركض باتّجاه الدشمة في حالات الخطر.

في إحدى الليالي، صحوت على صوت مضادّات الطائرات. كان الصوت عاليًا لدرجة أنّ سمية استيقظت من النوم مذعورة وراحت تبكي، كما استيقظ مهدي بسبب بكائها وكذلك خديجة ومعصومة.

كنّا في الليل نرفع البطانية عن النافذة، فرأيت طائرة في السماء على مسافة منخفضة جدًا؛ شعرت بالخوف، وحملت سمية معي وأسرعت إلى زاوية الغرفة وقلت: «**صمد! أحضر الأطفال إلى هنا، ستقصف الطائرة المكان الآن!**» ذهب صمد نحو النافذة وقال ضاحكًا: «**أين الطائرة؟ لمَ تُحدثين هذه الجلبة؟ لا شيء هنا**».

كانت الطائرة لا تزال في وسط السماء، حتى كان بالإمكان سماع صوت محرّكها. بدأ صمد يُمازحني مع أنّني كنت أرتجف من الخوف، فضجرت منه.

عـاد صمد في اليوم التالي مسـرورًا وقال: «**لقد استهدف الشباب تلـك الطائرة التي شاهدتها أمس فأسقطوها وأسروا قائدها**».

قلـتُ: «**لكنّك قلت إنّني مخطئة وليس هناك من طائرة**»، فأجاب: «**لأنّك كنت خائفة جدًّا فلم أشأ إرعاب الأطفال**».

يومًـا بعـد يوم، ازداد عدد جيراننا. كانـت هناك شقق إداريّة وبيـوت بعيدة نسبيًّا عن محيط الثكنـة. وكان بين الجيران بعض أبناء بلدتنا كعائلة السيد همداني والسيد بشيري والحاج سماواتي.

بدأنـا في المعسكر حياة جديدة. كانـت رائعة بالنسبة إليّ، خاصة بعد تخطّي كلّ تلك الصعوبـات. كنّـا ننام بعد صـلاة الصبح حتى الساعـة التاسعة أو العاشـرة حيث نتناول الفطـور، ومن ثمّ نغيّر ملابـس الأطفال ونرسلهم إلى الممرّ أو إلـى الطابق السفلي للّعب، ثم نغسل صحون الفطور ونجتمع في إحدى الغرف ونتناول أطراف الحديث عن الذكريات، وطوال تلك المدّة لم يحضر الرجال خلال النهار ولم يتناولوا معنا طعام الغداء.

عنـد الظهر، كان أحد الإخوة يحضر الغداء بالسيـارة. وكانت كل عائلة تأخذ حصّتها المخصّصة لها حسب عدد أفرادها.

ذات يـوم، شغلنا الحديث، فلم نسمع بوق السيـارة. وبعد طول انتظار، غادر الأخ المكلّف تسليم الغداء ظنًّا منه أنّنا خارج الثكنة، وبقينا نحن ننتظر الغداء الذي لم يصل، فكان علينا تحمّل الجوع حتى وقت العشاء.

صحـوت ذات يوم على صوت العرضـ العسكري لجنود الثكنة. رفعـت طرف البطانية قليـلًا ورأيـت الجنـود وسط الساحـة يـؤدّون المراسـم الصباحية. عندما نظـرت بدقّة، رأيـت أحد أبنـاء قريتنا بين الجنود، كان السيد آغا، فتبعتـه بنظري حتى انتهاء المراسم وانصـراف الجميع. كانت رؤية أحد المعارف في تلك الظروف تسرّ القلب. مساءً، أخبرت صمـد بالأمر، فاكفهـرّ وجهه وقطّب حاجبيـه قائلًا: «**قرّة عينـي! أصبحـت تقفين خلف النافذة تنظرين إلى الأجانب؟**»، ومنذ ذلك اليوم لم أقف خلف النافذة قطّ.

مضى أسبوعان على وجودنا في المعسكر. صباح أحد الأيام قال صمد: «**اليوم أريد أن آخذكـم في نزهة**». فرح الأطفال وأسرعـوا لارتداء ملابسهم. أخذ صمد الإبريق والأقداح والسكّر والشاي وقال لي: «**خذي أنت السفرة والخبز والملاعق والصحون**». سألت: «**إلى**

أين نتّجه؟» قال: «**إلى الخط الأمامي!**» قلت: «**أليست مخاطرة؟**» قال: «**نعم، هي كذلك، لكنّي قرّرت أن أُري الأطفال أين يُحارب أبوهم. يجب أن يعرف مهدي أين سيستشهد أبوه**».

كنت أنزعج دائمًا من حديثه عن الشهادة وأُجادله، لكن هذه المرة آثرت الصمت لأنّه كان بجانبي ولن يُغادرنا. جهّزت سمية، حملنا الأغراض وركبنا السيارة التي أقلّتنا من همدان إلى «**سر پل ذهاب**». عندما خرجنا من المعسكر، أوقف صمد السيارة. أعطاني معطفًا وقال: «**البسي هذا واخلعي العباءة. لو علم العدوّ بوجود امرأة في المنطقة لأحرق المكان**».

عندما رآني الأطفال على تلك الهيئة راحوا يقهقهون ويقولون: «**ماما صارت بابا!**».

أرقد صمد الأطفال داخل السيارة ووضع عليهم بطانية ثم قال لهم: «**اصمتوا يا صغار، إن أصدرتم صوتًا أو شاغبتم لن يسمحوا لنا بالذهاب إلى الأمام**».

كلّما تقدّمنا كان مشهد الدبابات والسيارات العسكرية والخنادق المتجاورة يزداد وضوحًا. كان منظرًا رائعًا بالنسبة لنا. تفقّد صمد المقاتلين وتحدّث إليهم ثم عاد إلينا، كانت أصوات الانفجارات القريبة والبعيدة تدوّي في المكان. توقّفنا مرّة في الطريق حيث يوجد منظار عسكري، وضعته على عينيّ فرأيت هضابًا وتلالًا، قال صمد: هناك خط العدو، تلك الدبابات والدشم التي ترينها للعراقيين.

عند الظهر، انعطفنا باتّجاه طريق فرعي. ركن السيارة خلف تلة، ونزلنا جميعًا منها. أقام صمد موقدًا هناك وأتى بإبريق الشاي من السيارة وملأه ماءً ووضعه على النار ثم وضع فيه عددًا من معلبات سمك (التونه). جلست مع الأطفال حول الموقد، أخذ صمد «**مهدي**» واتجها معًا نحو الدشم المنتشرة حولنا. كان هناك متطوّعون صغارٌ من قوات التعبئة، عندما شاهدوني مع الأطفال تحدّثوا معنا بودّ وعطف، وحملوا سمية وقبّلوا «**مهدي**» كأنّهم قد تذكّروا أهلهم وأمهاتهم وإخوتهم، ثمّ سألونا عن الأوضاع خلف الجبهات.

بعد ذلك، مددنا بطانية ووضعنا عليها مائدة الغداء الصغيرة وجلسنا حولها. فتح صمد علب الطعام وأفرغها في الصحون ثم أعطى كلًّا منّا حصّته. كان الأطفال جياعًا فأخذوا يأكلون الخبز مع التون بنهم.

بعد الغداء، أخذنا صمد إلى دشم العراقيين التي قد حرّرها جنودنا. كان يتحدّث إلى

الأطفال عن العمليات العسكرية ويُعرّفهم إلى المواضع والخطوط العسكرية بأسلوبٍ وكأنّه يتحدّث إلى أشخاص كبار السنّ أو إلى مسؤولين جاؤوا لتفقّد الجبهة.

عندما حلّ الظلام، شعرت بالخوف فقلت لصمد: «**صمد، فلنرجع الآن!**».

قال: «**هل تخافين؟**» قلت: «**لا، لكنّني أشعر بضيق شديد، اشتقت إلى أبي الحاج فجأة**».

كان هناك فتًى في الرابعة عشرة من العمر يقف وسط الظلام وينظر إليّ. رقّ له قلبي فقلت: «**مسكينة أمّه، هي الآن بالتأكيد قلقة عليه. ماذا يفعل هؤلاء الأبرياء في هذا الظلام؟**».

أجابني صمد بحدّة: «**إنّهم يقاتلون!**» ثم أخرج الكاميرا من السيارة وقال: «**دعيني ألتقط لك صورة في هذه الحالة**».

لم أكن على ما يرام، فقلت: **دعني الآن.** لم يكترث لكلامي، والتقط عدّة صور لي وللأطفال، ثم قال: «**لِمَ أنت مستاءة هكذا؟**» قلت: «**قلبي يحترق على هؤلاء الصغار، هؤلاء الشبّان والمجاهدين**».

قال: «**الحرب صعبة بالتأكيد، واجبنا هو الدفاع، وأنتنّ النساء لديكنّ واجباتكنّ الخاصّة أيضًا، وهي تربية شبّان كهؤلاء، لولا وجودكنّ وتربيتكنّ لما كان عندنا شبّان شجعان كهؤلاء**».

قلت: «**أنا أكره الحرب، أُريد أن يعيش الجميع بسلام**» فأجاب صمد: «**ندعو الله تعالى بأن يُعجّل في ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه لكي تتحقّق هذه الأمنية للجميع**».

كانت أصوات الانفجارات تزداد كلّما انتشر الظلام. ركبنا السيارة.. التفت صمد إلى الوراء حيث الدشم وقال: «**هؤلاء هم أبنائي، الذين يشغلون بالي دائمًا، سأبذل كلّ ما في وسعي لخدمتهم**».

انطلقنا في الظلام الدامس ومصابيح السيارة مطفأة، وشغل ذاك المجاهد اليافع تفكيري وتساءلت: كيف يستطيع ذلك المسكين الحراسة في هذا الظلام والبرد وكيف يمضي ليلته وكيف يُصبح؟.

في اليوم التّالي، عندما استيقظ صمد لصلاة الصبح، استيقظتُ معه. عادة كنت أبقى في الفراش قليلًا أصارع النعاس وأتباطأ حتى ينهي صمد صلاته ويذهب، لكن في

ذلـك الصباح نهضت باكرًا، توضّـأت وصلّيت مع صمد. عندما ارتدى بزّته وتهيّأ للذهاب، قلت: «**ليتك تعود ظهرًا لنتغدّى معًا كما كنّا في السابق**»، ضحك وألقى عليّ نظرة ودودة مضحكة، ثم قال: «**يبدو أنّك اشتقت إلى والدك الحاج؟**» قلتُ: «**اشتقت له بالتأكيد، لكن إن أتيت على الغداء سيخفّ شوقي له**». عندما فتح الباب ليذهب غمزني وقال: «**سيدة قدم خير، أنت تتدلّلين مجدّدًا؟!**».

طويت عباءة الصلاة ووضعتها في السجادة. عندما غادر نهضت وذهبت إلى المطبخ. كانـت السيدات الأخريات قد أتين أيضًا، جهّزت الفطور وعدت لأوقظ الأطفال، ثم تناولنا الطعـام معًـا. غسلت الأقـداح وأرسلت الصغـار ليلعبوا في الطابـق الأول حيث كان هناك غرفـة تُستخدم كمستودع للبطانيات التـي أرسلها الناس للمجاهدين، وقد تمّ توضيبها في هذه الغرفة حتى بلغت السقف، وكان التزحلق عليها هو لعبة الأطفال الوحيدة.

بعـد ذهاب الأطفـال أطعمت سمية ونامت، ثـم أخذت الثياب المتّسخـة ووضعتها في طشـت لغسلها. فجأة دوّى صـوت مرعب اهتزّ المبنى على أثره، خـرج الجميع من الغرف مذهوليـن وبـدأ الأطفال يصرخون من الخوف. رميت الطشت علـى الأرض وأسرعت نحو النافـذة، رأيـت الغبار والتـراب يُغطّيـان قسمًا من المعسكـر. ضجّت السيـدات وركضن مـن مكان إلى آخر، تحيّرتُ مـاذا أفعل، كانت هذه المرة الأولى التـي تتعرّض فيها الثكنة للقصـف. أردت الذهـاب ناحيـة الأطفال لكن سرعـان ما دوّى انفجار آخـر ورمى بي إلى الطـرف الآخر مـن الغرفة. شعرت بـدوار قوي لكن الأطفـال شغلوا بالـي، فحملت سمية ونزلـت بسرعة إلى الطابق الأول. كانت سميـة تبكي خائفةً، أما الصغار فكانوا في الطابق الأسفـل يواصلـون اللعب في تلـك الغرفة، ولانشغالهـم باللعب، لم يسمعـوا شيئًا. في تلك الأثناء، نزلت نساء أخريات مضطربات إلى الأسفل. ما إن نادينا الأطفال حتى هزّ المبنى انفجار آخر. انتبه الأطفال هذه المرّة وتعلّقوا بأثوابنا من الخوف، صعدت إحدى السيدات إلى الطابق الثاني تُفتّش الغرف، الواحدة تلو الأخرى وتطلب من الجميع أن يجتمعوا وسط الممرّ في الطابق الأرضي. كنّا خمسة عشر شخصًا من الكبار مع ثمانية أطفال. وانتشرت رائحة البارود القوية والتراب في الممرّ. ضجّ الأطفال بالبكاء وقلقنا نحن على الرجال.

قالـت إحدى النساء: «**المسافة بيننـا وبين الخط الأمامي قليلـة، إذا سقطت الثكنة سوف نقع جميعنا أسرى!**».

دبّ الرعب في قلبي جرّاء التفكير في أسري وأسر أولادي. عندما هدأت الأوضاع قليلًا، عدنا إلى الطابق الثاني، وقفنا خلف النافذة ورحنا نراقب الدخان كي نعرف المنطقة المستهدفة، فجأة صرخت إحدى النساء قائلة: انظروا هناك، يا إمام رضا!

نظرنا فإذا بنا نشاهد عدة طائرات تُحلّق على مستوى منخفض. رأينا بأم أعيننا إطلاقها للقنابل. الأمر الوحيد الذي كان باستطاعتنا القيام به، هو الانبطاح أرضًا ووضع أيدينا على رؤوسنا والصراخ: «**يا أطفال، ضعوا أيديكم على رؤوسكم ولا تغلقوا أفواهكم**». تمسّك الأولاد بي من شدّة الخوف من دون صراخ، بينما كانت سمية تبكي بشدّة. في تلك اللحظات دوّت أصوات انفجارات متتالية واهتزّت الأرض من تحتنا.

فكّرت في نفسي أنّ كلّ شيء قد انتهى وأنّنا سنموت جميعًا. مرّ على انبطاحنا أرضًا ربع ساعة، ثم رفعنا رؤوسنا الواحدة تلو الأخرى. كان الدخان قد ملأ الغرفة والزجاج قد تحطّم كلّه، لكن الشريط اللاصق على النوافذ حال دون تناثر الزجاج علينا أو على الأرض، فحمدنا الله على سلامة الجميع.

كانت أصوات مختلفة ومرعبة لا تزال تأتي من الخارج فقالت إحدى النساء: «**فلنخرج من المبنى، المكان لم يعد آمنًا**».

نهضنا وخرجنا من المبنى. كان الغبار والدخان يملآن الأطراف، وبالكاد نرى الطريق. لم ندرِ في أي وجهة نسير. عندها قالت إحدى النساء: قبل عدّة أيام، عندما قُصفت أطراف المعسكر، قال لي زوجي: «**إذا ساءت الأوضاع فجأة، اخرجوا من البيت، وانتشروا في الوديان القريبة**».

كانت هناك أسلاك شائكة خلف الشقق الإدارية، وقد قُطع بعضها. عندما كنت أتنزّه مع صمد أو مع السيدات كنّا نعبر من خلالها، أما الآن ومع كلّ هؤلاء الأطفال وكل هذا الاضطراب والعجلة، بدا العبور من بين الأسلاك المقطّعة صعبًا، فالأطفال كانوا يضجّون بالبكاء، كما إنّهم لا يستطيعون عبورها بمفردهم.

بعد نصف ساعة على الانفجار الأخير تقريبًا، كنّا قد ابتعدنا تمامًا عن المعسكر. وصلنا إلى نهر جافّ، يعلوه جسر قديم. وقفنا قليلًا على ذلك الجسر ننظر إلى المعسكر وإلى الشقق الإدارية، فرأينا في السماء سربًا من الطائرات تُحلّق على ارتفاع منخفض بحيث استطعنا رؤية طيّاريها بسهولة وهم بالتأكيد رأونا أيضًا. دبّ الرعب فينا، فأسرعنا إلى أسفل الجسر وبعد قليل سمعنا دويّ انفجارات متعدّدة.

قالت إحدى النساء مذعورةً: «**سيهبط الطيار لأسرنا!**». شرحنا لها كثيرًا أنّ الطائرات لا يمكنهـا الهبوط في هذه البساتين إلا أنّها لم تُصدّق، وكانت تُكرّر كلامها بإصرار وتُلقي الرعـب في قلوب الأخريـات. لكن ما كان يُقلقنـا أنّ السيدة حامـل، فحاولنا التحدّث عن ذكرياتنـا أو عن أمور أخرى للتخفيف من قلقها. لكنّ الطائرات لم ترد تركنا وشأننا، فكلّ نصف ساعة تقريبًا كانت تأتي ثماني طائرات لقصف الثكنة.

حـان وقت الظهر ولم يكن بحوزتنـا ماء أو طعام. كان الأطفال يتضـوّرون جوعًا. كذلك كنّـا قلقين على الرجال إذ إنّهم سيبحثون عنّا ولن يجـدوا أيّ أثر لنا. بدأت إحدى السيدات بقـراءة دعاء التوسل ورحنا نُردّد معها. لكـنّ بكاء الأطفال أفسد علينا لذّة الدعاء فصاحت إحـدى النسـاء: «**لا يصحّ أن نبقـى مكتوفات الأيـدي، سأذهب إلـى الثكنـة لأُحضر طعامًا للأطفال**»، عندئذ تحمّس عدد من النساء وذهبن معها.

فـي البداية لم نوافقهنّ الرأي لخطورة الأمر، لكن بعد أن هدأت الأوضاع قليلًا، ذهبن وأوصيناهنّ بالعودة سريعًا.

بعد أن انطلقت النسوة أصابنا قلق غريب حيث عاودت الطائرات قصفها للثكنة.

مـرّت اللحظـات ثقيلة وحسبناها ألف سنة إلى أن رأينا النسـوة يهرولن يمينًا ويسارًا، إلى أن وصلن. كان بحوزتّهن كمية كبيرة من المأكولات والماء والخبز والفواكه. كاد الجوع يقضي على الأطفال؛ بعد أن تناولوا الطعام، ناموا على أقدامنا.

عنـد العصـر، ازداد قلقنا إذ لم نكن نعلم مـاذا ينتظرنا. توضّأنـا بالماء الذي جلبته النساء وصلّينا، كانت اللحظات تمرّ ببطء، واستمرّ استهداف المعسكر بالقصف.

بعد غروب الشمس، سيطر الاضطراب علينا. هل نعود إلى المنزل أو نبقى في البستان؛ كنّا في حيرة من أمرنا، إلى أن قرّرنا العودة أخيرًا. كان الشيء الوحيد الذي آنسنا في تلك اللحظات صوت دعاء السيدة الشجي، وهي تتلو هذه المرّة آية ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[1].

حين اقتربنا من الشقق الإداريّة، شاهدنا عددًا من الرجال يسيرون في الأنحاء، كأنّهم يبحثـون عن شيء ما. ما إن رأونا حتى ركضوا نحونا. كان صمد بينهم ملطّخًا بالتراب من رأسه إلى أخمص قدميه، بدا واضحًا أنّه منهك للغاية. سألنا مباشرة عن أحوال المعسكر

(1) سورة النمل، الآية 62.

الذي تحوّل إلى كومة من التراب وقد استشهد فيه الكثيرون. كان هناك عدد من السيارات المركونة أمام البوابة. أشار صمد لنركب في واحدة منها. سألت: «**إلى أين؟**» قال: «**إلى همدان**»، ثم ساعد الأطفال ليركبوا السيارة. قلت: «**أغراضنا! انتظر قليلًا لأذهب وآخذ ملابس الأطفال**». جلس في السيارة وقال: «**ليس لدينا وقت، الأوضاع خطرة، أسرعي، يجب أن أوصلكم بسرعة وأعود**».

قلت وأنا أركب السيارة: «**على الأقل دعني آخذ ملابس سمية، عباءتي..**».

احتدّ كلامه وقال: «**اركبي، قلتُ لك إنّ الأوضاع خطرة، من المحتمل أن تُقصف الثكنة مجدّدًا**». أغلقت باب السيارة وسألت: «**لمَ لم تأت قبل الآن؟ أين كنت من الصباح؟**» ضغط على دوّاسة الوقود، قال: «**لو تعلمين أيّ ظروف مرّت علينا. عرفنا منذ القصف الثاني أنّ العراقيين يريدون تدمير الثكنة، فقرّرت سحب كتيبتي. جعلت الشباب يعبرون من تحت الأسلاك الشائكة واحدًا تلو الآخر وأرسلتهم إلى الوديان القريبة، الحمدلله لم تتضرّر شعرة واحدة من رأس أحدهم، خرج الثلاثمئة جميعهم بخير، لكن سقط عدد كبير من الشهداء والجرحى في الكتائب الأخرى. ليتني استطعت إنقاذ تلك العناصر أيضًا**».

حلّ المساء؛ كنّا ما زلنا نسير في الطريق المظلم والخالي. فجأة، تذكّرت ذلك الشاب الذي رأيته في الخط الأمامي، انقبض قلبي وسألت: «**صمد، أين هم عناصرك الآن؟ هل لديهم طعام؟ أين سينامون الليلة؟**».

كان ينظر إلى الأمام حيث الطريق المظلم. هزّ رأسه وقال: «**كلّهم في هذا الوادي، إنّهم في مأمن، لكن ليس بحوزتهم طعام، لا بدّ أن يتحمّلوا حتى الصباح**».

رقّ قلبي لهم، وقلتُ: «**ليتك تبقى معهم**» التفت إليّ بدهشة: «**ومن يأخذكم إذًا؟! قلت: ألا يمكن أن نذهب مع أحد زملائك؟ مع العوائل الأخرى؟**».

لمع في ذلك الظلام بريق الدموع في عينيه، وأجاب: «**لا، لا يمكن، السيارات ضيّقة ولا تتّسع لعائلتين، جميعهم أخذوا ما استطاعوا من العائلات، أتمنّى لو أبقى هنا لكن لا يوجد حل آخر، يجب أن أنقلكم بنفسي**».

خنقتني العبرة، وقلت: «**وماذا عن الشهداء والجرحى؟**».

لم يُجب. قلتُ: «**ليتني كنت أعرف قيادة السيارة**»، غيّر مبدّل السرعة وزاد في سرعته قائلًا: «**فلنتّكل على الله، سنذهب الليلة وسوف أعود صباح الغد**».

في تلك الظلمة لم تُفارقني صورة ذاك الفتى، كنت أُفكّر أين هو الآن؟ ماذا يفعل؟ كيف يقضي هؤلاء الثلاثمائة ليلتهم في تلك الوديان وفي هذا الجو البارد؟ ماذا عن الكتائب الأخرى، والجرحى، والشهداء؟!

غداة ذلك اليوم، بعد أن أوصلنا صمد إلى همدان، عاد إلى ثكنة أبي ذر ولم يرجع حتى العيد.

في أواخر شهر حزيران 1985م، وبعد مضي عدّة أسابيع شعرت أنّي لست على ما يرام. خطر على بالي ذات يوم مراجعة الطبيب. أودعت الأطفال عند جارتنا السيدة «**دارابي**» وذهبت إلى المستوصف. بعد المعاينة، طلبت الطبيبة بعض التحاليل. أجريتُ التحاليل التي طلبتها واستلمتُ نتيجتها. بعد عدّة أيام راجعت المستوصف. ما إن رأت الطبيبة النتيجة حتى قالت: «**أنت حامل!**».

دارت بي الدنيا، وتمسّكت بطرف الطاولة كي لا أهوي أرضًا. فقدت الإحساس في قدميّ ويديّ وهمست في سرّي: «**يا صاحب الزمان!**».

أمسكت الدكتورة بيدي وساعدتني على الجلوس ثم قالت بلطف: «**ما خطبك يا عزيزتي؟ كم ولد لديك؟**».

أجبت بانزعاج: «**ابنتي الرابعة لا تزال في شهرها السادس**».

أمسكت بيدي وقالت: «**كان يجدر بك أن تتريّثي قليلًا، لكنّك الآن حامل، وعليك أن تفكّري بنفسك وبالطفل بدلًا من التوتّر. من الآن فصاعدًا عليك المجيء إلى هنا مرة كلّ شهر لتكوني تحت المراقبة**».

سألتُها: «**هل هذه التحاليل صحيحة فعلًا؟ ربما لا أكون حاملاً**».

ضحكت الطبيبة وقالت: «**آسفة إنّ تحاليل هذا المختبر دقيقة جدًّا**».

لم أدرِ ماذا أفعل وإلى أين أتوجّه ولمن أشكو همّي، كيف سأستطيع معاودة تجربة الحمل هذه مع أطفالي الصغار؟ كيف سألدُ مرة أخرى يا إلهي! آه، وهل بإمكاني تحمّل صعوبات إضافيّة؟ لا، لست قادرة على كلّ تلك المعاناة وتربية طفل جديد.

أعطتني الطبيبة نسخة لبضعة أدوية، وحاولت أن تواسيني، كانت تتحدّث إليّ لكنّ بالي كان في مكان آخر. خرجت من المستشفى، وجلست تحت شجرة بعيدة عن الأنظار، ألقيت العباءة على وجهي وأجهشت بالبكاء. ليت أختي كانت بجانبي، ليت شينا كانت معي،

ليت **صمدي** كان هنا، يا إلهي، لماذا؟ أنت ترى حياتي وتعلم بأنّني وحيدة وغريبة في هذه المدينة، كيف سأدير أمور كلّ هؤلاء الأطفال؟ إلهي، أغنني بتدبيرك عن تدبيري.

كنت أحدّث نفسي وأبكي، وبعد أن أفرغت همومي، ذهبت إلى المنزل. كان الأطفال في منـزل **السيدة دارابي**، عندما رأتني أدركت سوء حالي وسألتني عن السبب. فأخفيت عنها الموضـوع في البداية، لكنّـي في النهاية بحتُ لها بكلّ شيء. واستني وقالت: «**يا سيدة قدم خيرا! لا تكفري بالنعمة، ادعي الله أن يُعطيك طفلًا سالمًا**».

أخذت الأطفال وعدت إلى المنزل غاضبةً، فتحت خزانة الملابس، تناولت ثوب الحمل ومزّقتـه قطعة قطعة. كنت أبكي وأردّد: **ما دام هذا الثوب موجودًا سأحمل ثانية، سأمزّقه وأتخلّص منه.**

كان الأطفال ينظرون إليّ باستغراب، وأنا أرمي الثوب الممزّق في سلّة المهملات.

بعد ذلك طُرق الباب. فتحه الأطفال ودخلت **السيدة دارابي** ومعها شيء من الطعام.

عندمـا رأتني على تلك الحالة راحت تُحدّثني عن الأقارب والأصدقاء والمعارف الذين لديهـم سبعة أو ثمانية أطفال، عن العوائل التي بقيت لديهم حسرة إنجاب ولد واحد، وعن الذين أنجبوا طفلًا معوّقًا لكفرهم بالنعمة.

شعرت بالارتياح لسماع كلامها، وما لبث أن قامت وأعدّت مائدة الطعام، وأصرّت على أن أتناول شيئًا منه. كانت تقول: «**لا تعكّري صفو هؤلاء الأطفال الأبرياء، أبوهم ليس بجانبهم، على الأقل لا تُزعجيهم**».

بعـد عدّة أسابيع تصالحتُ مع نفسي واعتدتُ على الأمر. أتى **صمد** بعد شهر؛ في هذه المرّة، نوى البقاء في همدان أسبوعين. وعندما أحسّ بانقباض قلبي، قال: «**لا تحزني من أجل أمور كهذه، بل عليك أن تفرحي بها، لم يبتلنا الله بمرض مستعصٍ لا سمح الله، بل أنعم علينا، لذا وجب علينا شكره، هيّا أسرعوا، جهّزوا أنفسكم، نريد أن نحتفل**».

غيّـر ملابـس الصغار وجهّز سمية قائـلًا لي: «**أنت أيضًـا قومي واستعـدّي، نريد أن نذهب إلى السوق**».

لـم أُصـدّق أنّ صمد الذي لم يُمسـك بيد أبنائه ليأخذهم إلـى أوّل الزقاق، يُصرّ على أخذهم إلى السوق. عندما رأيت فرحة الأطفال، وافقت على ذلك رغم تعبي.

ذهبنـا إلى سوق مظفري في همـدان. اختار لهم بعض الألعـاب والملابس، كلٌّ حسب

ميلـه مـن دون أن يكتـرث لملاحظاتي أنّ هذا غيـر جيّد أو ذاك يبلـى بسرعة، ويقول: «**لا عليك، دعي الأطفال يفرحون، نريد أن نحتفل**».

ذهبنا في النهاية إلى أحد المحال واشترينا عباءة ومنديلًا، كما اشترينا ثوبًا فضفاضًا أبيض اللون مزيّنًا بأزهار وردية. حينها قال: «**انتهينا! هذا ثوب الحمل الأخير!**».

عضضت على شفتي في إشارة لخفض صوته، رغم أنّ صاحبة المحل كانت بعيدة عنّا، ولم تسمعه، إلا أنّي خجلت من ذلك.

عند الظهيرة، وصلنا إلى البيت. خرج واشترى طعامًا جاهزًا. فرح الصغار بملابسهم وألعابهم، وبعد تناول الغداء مباشرة استسلموا للنوم وهم يمسكون بألعابهم وملابسهم.

فـي صبـاح اليوم التّالي، عندما ذهـب صمد إلى المقرّ، شعـرت بإحساس جميل، فقد ذهـب عنّي الشعـور بالانقباض وحلّ مكانـه الانشراح والسرور وتحمّسـتُ لتنظيف المنزل وإعـداد مرق اللحم. حمّمـتُ الأطفال وكنستُ الفناء ثم نظّفـت المطبخ وخزائنه، فأصبح المنزل يفوح برائحة الورود.

عـاد صمـد إلى المنزل لتناول طعـام الغداء، طلقُ المحيا، فأحـاط به الأطفال من كل جانب. جلس وراح يُقبّلهم ويحتضنهم قائلًا: «**الله الله يا سيدة قدم خير! ما أطيب رائحة هذا الطعام!**». أجبته ضاحكة: «**إنّه مرق اللحم بالليمون، طعامك المفضّل**».

نهضـ وقال: «**أنـت طيّبـة ولذلك طلبـك الإمام الرضـا** عليه السلام» نظـرت إليه بتعجّب وسألته بلهجة غير واثقة: «**سنقصد مشهد؟!**».

وبينمـا هـو يُلاعب الأطفال قال لي: «**ستذهبون إلى مشهـد؟!**» دنوتُ منه وقلتُ: «**بالله عليك! لا تُعذّبني، قل لي الحقيقة!**».

حمـل سمية ونهضـ قائلًا: «**سمعتُ اليـوم صدفة أنّ هنـاك رحلة للنسـاء إلى مشهد، فسجّلت اسمك، إنّها فرصة جيدة**».

قلـتُ: «**وماذا عنـك إذًا؟**» قبّل شعر سمية وقال: «**هذا السفـر خاص بالسيدات يا ماما، وعلى كل بابا أن يبقى في المنزل**».

قلـتُ: «**لـن أذهـب، إمّـا أن نذهـب معًـا أو لا أذهـب، كيف يُمكننـي الذهاب مـع هؤلاء الصغار؟**».

وضع سمية على الأرض وقال: «**ائتيني بمرق اللحم أوّلًا، فأنا جائع. لقد سجّلت اسمك**

وعليك الذهاب، سيمدّك هذا السفر بطاقة جديدة. أنا سوف أهتمّ برعاية خديجة ومعصومة وتصحبين معك مهدي وسمية، كما إنّني سجّلت اسم شينا أيضًا».

- «شينا لا تستطيع السفر، أنت تعلم أنّها منذ إصابتها بالجلطة لا تتحمّل مشقّة الرحلات البعيدة، هي بالكاد تستطيع المجيء إلى همدان!».

- «حسنًا، ما رأيك أن تذهب والدتي معك، هكذا لن تكوني وحيدة».

- «ليتك تستطيع أنت مرافقتنا».

- «زيارة الإمام لها أهلها وأنا لست منهم، هنيئًا لك! اذهبي واذكريني عند الإمام الرضا عليه السلام وقولي له: يا إمام رضا، أصلح زوجي».

- «يا لحظّنا؟ أُسافر إلى مشهد وأنت تبقى في المنزل!» فجأة ضحك قائلًا: «فعلًا إنّك محقّة! لا بدّ أن يكون أحدنا في البيت، إمّا أنت وإمّا أنا!».

جمعتُ أغراضي تلك الليلة، وفي الصباح ذهبنا إلى مديريّة الحرس، حيث نقطة انطلاق الحافلات. جلسنا في صالة كبيرة. كانت سمية في حضني بينما أم صمد تُمسك بيد مهدي. خديجة ومعصومة كانتا أيضًا بجانبنا. وُضعت في الصالة شاشة تبثّ فيلمًا إلى حين انطلاق الحافلات. فجأة، تقدّمت إحدى السيدات ونادت بصوت مرتفع: «**السيدة محمدي، يريدونك عند الباب**».

أخذت والدة صمد سمية وأسرعتُ إلى الباب، ألفيتُ صمد واقفًا على الدرج، سألتُه بقلق: «**ماذا حدث؟**» قال: «**أعطني البشارة أولًا!**» ضحكتُ وقلت: «**حسنًا، سأحضر لك هدية من مشهد**».

تقدّم وهمس في أذني: «**إنّ قدم الطفل الذي في أحشائك، من ذهب، انتبهي عليه جيدًا**».

ثم تابع كلامه وهو يرمق بطني: «**ما رأيك أن نُسمّي الطفل «قدم خير» إن كانت فتاة؟!**».

كان يعلم أنّ اسمي لا يُعجبني لذا عمد إلى مشاكستي. قلت: «**لا تكن سمجًا، بالله عليك، أسرع وقل لي ماذا حدث؟**» قال: «**علمتُ للتوّ أنّنا سنمتلك سيارة**».

أفرحني هذا الخبر وقلتُ: «**مبروك! إذًا سنذهب في المرة القادمة إلى مشهد معًا**

وبسيارتنا»، رفع يديه إلى السماء وقال: «**آمين يا رب! الله وحده يعلم كم أنّ قلبي مشتاق للزيارة**».

عدتُ إلى الصالة وأنا أُحدّث نفسي: ما أروع ذلك! صمد محقّ، إنّ هذا الطفل مبارك؛ في البداية كان موضوع الزيارة والآن السيارة. اللهم تمّم أمورنا على خير.

وبينما نحن نُتابع مشاهدة الفيلم، عادت السيدة مرّة أخرى ونادتني: «**سيدة محمدي، ينتظرونك عند الباب**».

كان صمد مرة أخرى، قلتُ: «**ها، ماذا حدث؟ هل من خبر جديد؟**».

ضحك وقال: «**لا، اشتقتُ لك فقط، تعالي لنتمشّى قليلًا في الشارع حتى يحين موعد انطلاق الحافلات**».

ضحكتُ وقلتُ: «**اخجل قليلًا يا رجل، أليس لديك عمل؟**» قال: «**سآخذ إجازة لساعة**». سألتُه: «**وماذا عن الأطفال؟ سيُتعبون والدتك المسكينة**» قال: «**نذهب إلى مرقد بابا طاهر**[1] **ونعود سريعًا**»، قلتُ: «**حسنًا، اذهب وخذ الإذن، وأنا سأُخبر والدتك**».

عدتُ مجدّدًا وجلست في الصالة بيد أنّ الفيلم لم ينته. عادت تلك السيدة بعد قليل وقالت: «**يا سيدات! حان وقت الصعود إلى الحافلات**».

حملتُ سمية وأمسكت أم صمد بيد مهدي. كانت خديجة ومعصومة تُمسكان طرف عباءتي، لم تكونا تعلمان أنّنا لن نصطحبهما معنا إلى مشهد، كانت المسكينتان فرحتين وتستعجلان ركوب الحافلة. عندما وصلنا إلى المحطة رأيت صمد واقفًا، تقدّم نحوي وأخذ خديجة ومعصومة وقال: «**لقد أحضرتُ الإذن لكن للأسف..**» رقّ قلبي لقوله وقلتُ: «**لا بأس، عندما أعود سنذهب إلى مرقد «بابا طاهر» ونتناول الطعام هناك**».

دنا منّي وهمس في أذني: «**قدم خير، ليتك تخبّئيني في حقيبتك وتأخذيني معك**».

قلتُ: «**أأدركت الآن صعوبة موقفي؟ أرأيت كم أنّ الفراق صعب؟!**».

صعدنا الحافلة وجلسنا قرب النافذة. رأيتُ صمد من النافذة يُمسك بيدي خديجة ومعصومة وهما تبكيان تُريدان اللحاق بنا. كانت المرّة الأولى التي أودّع فيها الطفلتين، خنقتني العَبرة ولم أستطع منع نفسي عن البكاء، أشحتُ وجهي وذرفتُ دموعي بعيدًا عن

---

(1) بابا طاهر: هو شاعر إيراني وصوفي، عاش في القرن الخامس الهجري قمري أي الحادي عشر ميلادي، يُلقّب بالهمداني وله مزار كبير في شمال محافظة همدان (المترجم).

عيون خديجة ومعصومة. بعد قليل نظرتُ إليهم وابتسمتُ. وانطلقت الحافلة، كان صمد لا يزال يُمسك بيدي الصغيرتين، ركض الثلاثة خلف الحافلة ملوّحين لنا بأيديهم.

كما توقّع صمد، فقد ضخّت الزيارة في حياتي دمًا جديدًا. كنّا نتوجّه إلى مقام الإمام باكرًا للصلاة والدعاء. كنّا في بعض الأحيان، بعد أن نفرغ من الدعاء والزيارة وبينما نحن في طريق العودة إلى الفندق، نشعر بالندم لتركنا المقام. لم نكن نرغب بالابتعاد عنه فنعود مجدّدًا إلى الحرم الشريف.

ذات مرّة، كنت جالسة أنظر إلى الضريح، فجأةً دخلت مجموعة إلى الحرم ترفع نعوشًا وتردّد «**لا إله إلا الله**»، والناس يرمونهم بالزهور وماء الورد.. سألتُ عن الأمر وعرفتُ أنّهم يُشيّعون شهداء من مشهد. عندها، تذكّرت صمد وتجمّعت الدموع في عينيّ، وضعت الطفلين عند أم صمد وأسرعت خلف النعوش. كان وجه صمد يتراءى لي بينهم، ومهما حاولت، لم أستطع أن أدعو له، تذكّرتُ كلامه حين أوصاني بالدعاء: «**اللهم أصلح زوجي**»، لكن لم أستطع قول ذلك، إذ لم توجد أيّ مشوبة تُعيبه برأيي. وقفتُ جانبًا أنظر إلى النعوش التي كانت تتماوج فوق أكتاف الناس فانقلب حالي لهذه المشاهد الحزينة. بقيتُ واقفة هناك إلى أن انتهى طواف الشهداء. تفاجأتُ لرؤيتي الضريح خاليًا، وأصبح من الممكن تلمّسه بسهولة، فأنا حتى ذلك الوقت، لم أستطع الاقتراب من الضريح، لكنّي الآن لم تفصلني عنه سوى خطوات. تعلّقت بالضريح وأنا أذرف الدموع، قائلةً: **يا إمام رضا، أنت أعلم بما في قلبي، أستودعك حياتي، فخِر لي ولعائلتي ما أنت أهله.**

ولم أستطع الدعاء لصمد مهما حاولتُ. فجأة، شعرت براحة وسكينة في داخلي، كأنّي بلا هموم وأحزان. بعد قليل، ازداد تدافع النساء، فخرجتُ من بينهنّ بصعوبة، وعدتُ إلى حيث والدة زوجي، أخذتُ منها الطفلين وخرجنا من الحرم.

توجّهنا إلى سوق «**بازار الرضا**»، وقرّرنا شراء كلّ الهدايا والحاجيات دفعة واحدة. رغم أنّني تعبتُ من حمل سمية، لكنّنا اشترينا كلّ أغراضنا وعدنا إلى الفندق.

في اليوم الثالث، وبينما نحن نتناول طعام الغداء، جاءت مسؤولة الرحلة، جلست معنا إلى طاولة الطعام وقالت: «**سيدة محمدي، عليك أن تعودي إلى همدان قبلنا**».

اقشعرّ بدني من الخوف ولم أستطع تمالك نفسي، فسألتها: «**ماذا حدث؟ هل حدث مكروه لزوجي وأولادي؟!**».

انتبهت السيدة إلى فعلتها بأنّها أخبرتني بطريقة مخيفة، فقدّمت لي الاعتذار. كانت قد أرعبتني فعلاً، تلعثمت في الكلام وسألت: «**هل حدث مكروه لطفلتيّ أم لصمد؟ ماذا عن أمي هل حدث لها مكروه؟..**».

أمسكت السيدة بيدي وقالت: «**لا يا سيدة محمدي، لم يحدث أيّ مكروه لأحد، لقد اتّصل الحاج بنفسه وقال إنّه سيتشرّف بالسفر إلى مكة خلال هذا الأسبوع، وطلب عودتك سريعًا كي يُجهّز نفسه للسفر**».

قدّمت لي السيدة كوبًا من الماء وعندما شربته تحسّنت حالي.

غداة ذلك اليوم، عدنا إلى طهران بالطائرة حيث كانت سيارة «**پيكان**» بانتظارنا لتُقلّنا إلى همدان. ركبنا السيّارة وعدنا إلى همدان.

عندما وصلنا إلى الزقاق، رأيت صمد واقفًا أمام الباب ومعه خديجة ومعصومة، أتى لاستقبالنا، ولإنزال الحقائب من السيارة.

كان صمد قد مدّ سجادة على الشرفة ونظّف الفناء حيث فاحت منه رائحة الورود. كما وضع السماور[1] في زاوية الشرفة فقدّم لنا الشاي مع الكعك والفواكه.

خرجت خديجة ومعصومة لرؤيتي، وجلستا في حضني. أتى صمد وجلس بيني وبين والدته وهمس في أُذُني ممازحًا: «**يُقال إنّ النساء بلاء، أسأل الله أن لا يترك بيتًا من دون هذا البلاء!**».

انتهت التحضيرات بأسرع ممّا توقّعت، وعزم على السفر إلى مكة. عند الوداع قلتُ باكيةً: «**يا قليل الإنصاف، على الأقل خذني معك إلى ذلك المكان**».

قال: «**لا تحزني، فيما بعد سيحين دورك، يبدو أنّ الحظ لا يجمعنا في السفر**».

طال سفره وعاد بعد أربعين يومًا. بعد عودته أمضى معنا عشرة أيام، انشغلنا فيها بإعداد الولائم، لكن كلّما كانت الأيام تمرّ كان يشعر بالضيق ويقول: «**أكاد أجنّ، مضى خمسون يومًا وأنا لا أعرف شيئًا عن أحوال الإخوة ولا عن أوضاعهم، عليّ الذهاب في أسرع وقت**».

ذهب أخيرًا. كنتُ أعرف أنّه لن يعود عمّا قريب؛ كان يأتي كلّ خمسة وأربعين يومًا ليمضي معنا يومًا أو يومين ومن ثم يعود إلى الجبهة.

---

(1) السماور: آنية معدنية تُشبه الإبريق وهي طريقة خاصة لإعداد الشاي من خلال طبقتين.

انقضى الصيف، ثم حلّ الخريف وانقضى. كنّا في شتاء عام 1985م. قلتُ لصمد في آخر إجازة له: «**صمد! هذه المرّة عليك البقاء إلى جانبي**».

وعدنـي بذلك. لكنّه لـم يعد حتى بعد انقضـاء اليوم الأخير من حملـي. يومها قدّمتُ للصغـار عشاءهم وخلدوا إلى النوم، لكن لا أعرف لماذا لم تغفُ عيناي، ذهبت إلى منزل جارتنـا السيدة «**دارابي**» التي كانت تربطني بها علاقة وطيـدة، وبما أنّ زوجها كان تعبويًّا يتردّد إلى الجبهة، كنّا نتردّد إلى بيوت بعضنا براحة أكثر، كنّا نُمضي أغلب الليالي إمّا في منزلي، أو في منزلها.

جاءت لزيارتها في تلك الليلة أخت زوجها. فجأة، قالت لي السيدة دارابي: «**أظنّ أنّك ستلدين الليلة**» قلتُ: «**لا أظنّ ذلك**».

قالت: «**ألا تُريدين أن أُرافقك إلى المستشفى؟**».

أجبتُها ضاحكة: «**لا، هذه المرة لن يولد الطفل قبل أن يأتي صمد**».

عندمـا عدت إلى المنزل عند الساعة الثانيـة عشرة. حدّثت نفسي: ربما تكون السيدة دارابـي محقّة، وقد يولـد الطفل الليلة. لذلك قمتُ بتنظيف المنزل منتصف الليل وجهزتُ الأغراض وملابس الطفل ثم حاولتُ النوم. لكنّي لم أستطع ذلك. بدأتُ أتقلّبُ في فراشي قليـلاً إلى أن سمعتُ صوت البـاب. فرحتُ كثيرًا وقلتُ: بالتأكيد هذا صمد. لكنّ صمد معه مفتاح. فتحتُ الباب، كانت السيدة دارابي. قالت: «**لقد سمعت سيارة الإسعاف، ظننتُ أنّ المخاض فاجأك وجاءت السيارة لنقلك إلى المستشفى**».

قلتُ: «**لا، لا شيء حتى الآن**»، قالت: «**أنا قلقة عليك، سأنام عندك الليلة**».

لم يكن قد مضى نصف ساعة حتى بدأت أشعر بالألم. وتدهورت حالتي أكثر بعد ساعة، فذهبت السيدة دارابي وأيقظت أخت زوجها، وطلبت منها البقاء عند الصغار، ثم استأجرت سيـارة لنقلي إلى المستشفى. بعد إجراء الفحوصات اللازمة، تمّ إرسالي إلى غرفة الولادة فورًا وبعد ساعة أو ساعتين ولد الطفل. في صباح اليوم التّالي أتى الجيران إلى المستشفى وأعادوني إلى المنزل. وقامت النسوة بتقسيم الأعمال المنزلية على بعضهنّ.

اتصلـت السيدة دارابي بوالديّ للمجـيء إلى همدان. أتى والدي عصرًا بمفرده، وتألّم كثيـرًا لرؤيتي في الفراش وقال باللغة التركية: «**يا عزيزة والدك لماذا أصبحت غريبة، يا حبيبة والدك لم تكوني من قبل وحيدة**».

ثـم جلس بجانبي وقبّلني على جبيني وقال: «**لماذا لـم تُخبرينا بإنجابك الطفل. لقد قالوا إنّك مريضة، لم تستطع شينا المجيء معي**».

فـي تلك الليلـة ذهب والدي إلـى بيت شمـس الله - أخي صمد- في همـدان لإحضار زوجته، ثم أرسل وراء شينا، وبعدها انشغل بشراء حاجيات البيت.

مـرّ أسبوع، لم يكن وضـع شينا الصحّي يسمح لها بمساعدتـي، فكانت تجلس بجانبي وتتحسّـر باستمرار كيف أنّها لا تقوى على فعل شـيء. عندما رأى والدي ذلك، أرسل شينا إلى قايش. بقيت أخواتي بجانبي يومين أو ثلاثة ثم انصرفن إلى منازلهنّ، ولم يبق بجانبي سوى زوجة السيد شمس الله.

ذات يوم، أتت إحدى الجارات وقالت: «**زوجك الحاج ينتظرك على الهاتف**». ساعدتني معصومـة زوجة السيد شمـس الله وألبستني ثوبًا دافئًا كما ألبستنـي عباءتي، ثم أمسكت بيـدي وذهبنا إلى منزل جارنـا. عندما أخذت سماعة الهاتف كنـت أتنفّس بصعوبة، قال صمد: «**حياتي قدم خير، هذه أنت؟**» قلتُ: «**سلام!**» ما إن سمع صوتي حتى بدأ يسألني عن حالـي كعادتـه، أراد أن يسألني عن الطفل إن كان قد ولـد، لكنّه خجل لوجود أحدهم قربه واكتفى بالاطمئنان عنّي.

لم أكن أحسن حالًا منه، فجارتي ومعصومة كانتا قربي وخجلتُ كذلك أن أخبره بولادة الطفل، واكتفيتُ بقول: «**أنا بخير، أنت كيف حالك؟ هل أنت بخير؟**».

أشارت لي معصومة كي أخبره بولادة الطفل.

لكنّنـي خجلـت من الجارة. فضاقـت معصومة بي ذرعًا وأخـذت السماعة منّي سلّمت عليه وقالت: «**يا حاج، لقد ارتاحت السيدة قدم خير، ووُلد الطفل!**».

فـرح صمد كثيرًا لسماعه هذا الخبـر ولشدّة ارتباكه نسي أن يسأل عن جنس المولود، واكتفى بالقول: «**سأعود غدًا**».

في اليـوم التّالي، كانت عيناي مسمّرتين نحو الباب منذ الصباح الباكر، وكلّما سمعت صوتًا كنت أقول: «**هذا صمد بالتأكيد**». لكنّ صمد لم يأت في ذلك اليوم. انقضى أسبوعان وأنـا أنتظر قدومه. غادر الجميـع، كلٌّ إلى حياته وانشغالاته وبقيـت بمفردي أرعى خمسة أطفال صغار والكثير من الأعمال.

كانـت السيدة دارابي الجارة الوحيدة التي تتفقّدني بين حين وآخر؛ رغم أنّ زوجها قد

عاد جريحًا من الجبهة، كانت تأتي باكرًا كلّ يوم لتُساعدني قليلًا ثم تنصرف إلى أعمالها. أحيانًا كانت تبقى بجانب الصغار كي أتمكّن من الذهاب إلى شراء الأغراض.

في أحد الأيام، كنت والسيدة دارابي نتحدّث عن همومنا ومشاغلنا. حدّثتني عن حالة زوجها الجريح وعيادة الزوّار له وتعبها وعنائها.

كنّا غارقتين في الحديث، فجأة فُتح الباب ودخل منه أخي. حين أدرك أخي وجود امرأة غريبة في البيت خرج من الغرفة وأغلق الباب. لحقتُ به، وإذا بصمد وأخي ينتظران أسفل الدرج، عندما سمعت السيدة دارابي حديثنا انصرفت إلى بيتها.

قال أخي ممازحًا: «**ظننّا أنّكم تمضون أيامًا صعبة لكن الأمر يبدو عكس ذلك، إنّكم تنتهزون الفرص وتستمتعون بأوقاتكم لدرجة أنّكم لم تسمعوا طرق الباب منذ نصف ساعة!**».

قال صمد معلّقًا: «**إنّه محقّ، طرقنا الباب كثيرًا حتى تمكّنا من فتحه**».

ما إن دخلا الغرفة حتى ذهب صمد نحو الطفل الجديد، حمله قائلًا: «**سلام! أصبيّ أنت أم بنت؟ أنا بابا، هل تعرفني؟ أنا ذلك الأب العديم الإنصاف الذي يتحدّثون عنه!**».

حدجني بغمزة وقال: «**حياتي قدم خير، سامحيني، لقد أخلفتُ بوعدي كالعادة**».

ضحكتُ، لكنّي لم أستطع أن أقول له شيئًا أمام أخي.

التفت إلى أخي وقال: «**كن واسطة خير بيني وبين أختك**»، فقال أخي ضاحكًا: «**مسكين هو، لا تتشاجري معه**».

جاء الصغار وتجمّعوا حوله كالعادة. أخذ يُقبّلهم ويمسح على رؤوسهم ثمّ سألني: «**وما اسم المولود؟**» قلت: «**زهراء**».

عند ذلك عرف أنّ طفله الخامس بنت، فقال: «**يا له من اسم رائع! يا زهراء!**».

من اليمين إلى اليسار: خديجة، معصومة، مهدي، سمية وزهراء إبراهيمي هجير، في تاريخ 1390/4/20هـ.ش - (2011م).

أنا، زهراء ومهدي، سد «إكباتان» في همدان؛ خريف 1387هـ.ش - (2008م).

الفصل السابع عشر

شهادة ستّار

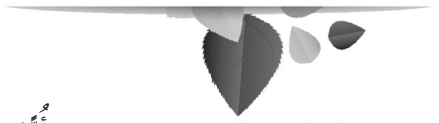

مـرّ عام 1365 (1986م) قاسيًا. كنت في الرابعـة والعشرين من عمري، أُمًّا لخمسة أطفال صغار، ولا أستطيع إنجاز أعمالي بالكامل. تأزّمت الأوضاع أكثر ووصلت الحرب إلى الذروة وانهمك صمد في التحضير للعمليات المتتالية.

كانـت خديجة في الصف الثانـي ومعصومة في الصف الأوّل، وبسبب انهماك الأطفال بواجباتهـم المدرسيّة، قلّما تردّدنا إلى قايش. كذلك والدي الحاج، انشغل بشينا ومرضها ولم يعد يزورنا كثيرًا.

كنـت في أغلب الأحيان، أستيقظ باكرًا وأبقـى لساعات متأخّرة من الليل أعمل وأطبخ وأنظّف وأُراقب الأطفال وهم يدرسون حتى بدا عليّ الإرهاق والتعب.

في شهر كانون الثاني من تلك السنة بدأت عملية «**كربلاء 4**»، سمعت مسبقًا من إخوتي أنّ صمـد سيُشـرف على إدارة العمليـة. اعتراني قلـق إزاء هذه العمليّة علـى غير العادة. كنـت أجـول بلا هدف من غرفة إلى أخرى، أو أجلس علـى سجادة الصلاة لساعات أحمل مسبحتي وأشتغل بالدعاء بينما المذياع يبثّ أخبار العملية طوال النهار.

أتـت أمّ صمد إلـى منزلنا، كانت قلقة مثلي ولا تنفكّ المسكينـة تردّد من الصباح إلى المساء: «**يا صمد**» و«**يا ستّار**»!

عصـر ذات يوم، قبعـت كلّ واحدة منّا في زاويـة تحمل همومها. فجـأةً، سمعنا طرقًا علـى الباب. أسرع الأطفال نحـو الباب، فإذا به السيد شمس الله عائـدًا من الجبهة للتوّ. بـدا مستاءً ومتجهّمًا. أحسست أنّ ثمّة مكروهًا قد حدث، أصرّت أم صمد عليه كي يُخبرنا بشـيء. أشـار لي السيد شمـس الله، من دون أن يُثير انتبـاه أمّه، أن أذهـب إلى المطبخ. ذهبـتُ إلى المطبخ بحجّة إعداد الشاي، ولحق بي وقـال بصوت خافت: «**سيدة قدم خير، اسمعيني جيدًا، لا تصرخي لا أريد أن تشعر أمي بشيء**».

تجمّـد الـدم في أطرافي، اتّكأت على الثلاجـة وقلت باكية: «**يا أبـا الفضل! هل حدث مكروه لصمد؟**».

خنقته العبرة وتغيّر لون وجهه، فخرج صوته متهدّجًا: «**لقد استشهد ستّار!**».

دارت بي الدنيا ولطمت على رأسي، وسألته: «**متى؟!**».

مسـح السيد شمسـ اللّه دموعه وقال: «**باللّه عليك لا تصـدري أيّ ردّ فعل يُثير انتباه أمي، استشهد منذ عدّة أيام، وعلينا أخذ أمي إلى قايش**»، ثم خرج من المطبخ.

احتـرتُ مـاذا أفعل. أطلتُ مكوثي في المطبخ قدر الإمـكان بحجّة إعداد الشاي لكنّني كنـتُ أبكي. كلّما حاولت التوقّف عن البكاء لم أستطع، إلى أن ناداني السيد شمس اللّه من الصالة، حينها غسلتُ وجهي ثم نشّفته بطرف عباءتي وأحضرت الشاي إلى الصالة.

جلسـ السيد شمس اللّه بجانـب والدته ينظر إلى التلفاز. عندمـا دخلت الصالة قال: «**أريد الذهاب إلى قايش لزيارة الأقرباء، هل ستأتون معي؟**».

علمتُ أنّها خطّة، فأجبته بسرعة: «**يا له من اقتراح جيد! منذ وقت طويل وأنا أرغب برؤيـة أبـي الحاج، لقد اشتقتُ لشينا أيضًا، أخبروني أنّها مشتاقة لنا كثيرًا، سآتي معكم وأعود بعد عدّة أيام**».

جهّزت أغراض الأطفال بسرعة، وأخذتُ معي ثوبًا أسود اللون. كدتُ أختنق في الطريق إلـى قايش مـن شدّة الهموم، فمن جهة كنت أفكّر في «صدّيقة» زوجة ستّار، وكيف سأنظر فـي عينيها، كان قلبي يحترق من أجـل أطفالها، ومن جهة أخرى لا أستطيع أن أبوح بشيء أمام والدة صمد.

عندمـا وصلنا إلـى قايش بدا أنّ الجميع قـد علم بشهادة ستّار، فقـد علّقت اللافتات السـوداء على الجدران والأبواب ما جعل والدته المسكينة ترتاب لرؤية ذلك وسألت مرارًا: «**ماذا حدث؟ هل حصل شيء لأبنائي؟!**».

عندما وصلنا إلى المنزل ارتجف قلبي. وجدنا الباب مفتوحًا يتردّد إليه رجال بلباس الحداد. أدركتْ والدته حدوث أمر ما، وكنت أواسيها: «**لم يحصل شيء، ربما توفّي أحد الأقارب**».

مـا إن وصلنـا إلى الفنـاء حتى ركضـت «صديقة» نحونـا كأنّها كانـت تنتظرنا، رمت بنفسهـا في حضني وأجهشت بالبـكاء وهي تنتحب: «**عزيزتي قدم خير، كيـف لي الآن أن أُربّي سمية وليلى؟**».

كانـت سمية في الثانية مـن عمرها، كابنتي سمية التي وقفت مدهوشة تنظر إلى أمّها، أمّـا ليلـى فقد أكملت شهرها السادس. ما إن علمت أم صمد بالأمـر حتى سقطت مغشيًّا عليها أمام باب المنزل.

انتشـر خبر شهادة ستّار في القريـة واحتشد الناس في فناء الدار. كانت النساء تعزّي أم صمد ويبكين معها ويسعين لمواساتها.

غـداة ذلك اليوم كان المنـزل مليئًا بالضيوف، فجأة صرخ الأطفـال في الفناء: «**جاء السيـد صمد!**» فأسرعنا نحو الفنـاء. نعم، أتى صمد، لكن بأيّ حال؟! أتى نحيف الجسم، أشعـث الشعـر، مكفهرّ الوجه. لـم أجرؤ على الاقتراب منـه أمام نظرات «**صديقـة**» أو أن أسأله عن حاله، دسست نفسي بين النساء وغطيتُ وجهي بعباءتي وبكيت.

ركضـت «**صديقـة**» باكيةً نحو صمد، وهي تصرخ: «**يا سيد صمـد، أين ستّار؟! يا سيد صمد، أين أخوك؟!**».

جلسـ صمد في الفناء وقد أخفى وجهه بيديه، ثـم ارتفع صوته مجهشًا بالبكاء. تفطّر قلبي لرؤيته على هذه الحال، وصديقة لا تزال تضجّ وتصرخ: «**يا سيد صمد، ألم تكن قائد ستّار؟ قل لي ماذا أُجيب أطفاله الصغار إن سألوني ألم يكن عمّنا بالقرب منه؟!**».

ضـجّ الناس في الفناء بالعويل والبكاء من كلام «**صديقـة**» التي نادت أطفالها وقالت: «**سمية! ليلى! تعاليا هنا، لقد جاء عمّكما، وأتى بأبيكما معه!**».

احترق قلبي حزنًا على صمد. كنتُ أعرف أنّه لا يستطيع تحمّل هذا الكلام وهذه الهموم والمصائب. نفد صبري، فأسرعتُ إلى الغرفة وأجهشتُ بالبكاء بصوت مرتفع. كنت حزينة علـى صمد وعلى صدّيقة وعلى طفلتيها. نظرتُ مـن النافذة، كان صمد لا يزال جالسًا في الفناء. تمنّيت لو أذهب وأجلس بجانبه لمواساته. كنتُ أُدرك تمامًا أنّه يشعر بالوحدة أكثر من أيّ وقت مضى. لم أستطع التحمّل، خرجت إلى الفناء حيث كانت والدته جالسة أمامه وقد ألقت برأسها على قدميه وهي تبكي وتنوح: «**حبيبي صمد، ألم أستودعك أخاك؟!**».

بينما صمد بقي مطرقًا رأسه وهو يبكي. تقدّم منه بعض الرجال، أمسكوه من كتفيه وأخذوه إلى غرفة الرجال. وأنا اقتربتُ من أخت زوجي وأمه و«**صديقة**» وعدت بهنّ إلى الغرفة.

علمتُ من المعزّين أنّ جسد ستّار بقي في منطقة العدو، وأنّ صمد لم يأت به رغم أنّه كان قادرًا على ذلك، لذلك كانت أمّه حزينة تبكي بمرارة وتسأله: «**صمد، لِمَ لم تأت بابني؟!**».

آخـر الليل وعندما خلا المنزل مـن الناس، جاء صمد إلى غرفة النساء وجلس بجانب أمّه، أخذ يدها وقبّلها قائلًا: «**أمّي العزيزة، سامحيني، نعم كنت قادرًا على الإتيان بجسد ستّـار لكنّـي لـم أفعل ذلك لأنّ أجساد بقيـة إخواني بقيت هناك أيضًـا. هم كذلك لديهم أمهـات وإخـوة وأخـوات، لو أنّـي أحضرت جسـد ستّار مـاذا سأُجيب أمهـات الشهداء يوم القيامـة؟ مـاذا سأُجيـب أخواتهم وإخوانهـم؟!**» كان يقول ذلك ويبكـي، حينها انتبهت أنّ ثيابه ملطّخة بالدم، فأشرت إلى أخت صمد وقلت: «**يبدو أنّ صمد جريح!**».

كان جريحًـا بالفعـل، لكن لم يرغب أن يشعر أحد بذلـك، عندما بدّل ملابسه. أدركت أخته أنّ أحد كتفيه مضمّد، وأنّ جرحه عميق ولا يزال ينزف. على الرغم من ذلك لم يقرّ له قرار وقد بذل قصارى جهده لإقامة عزاء يليق بستّار.

مضـت ثلاثة أيـام ولم أتمكّـن خلالها من التحـدّث إلى صمد، إلا مـن خلال نظرات كنّـا نتبادلهـا أحيانًا، كنتُ أخجل مـن «صديقـة» وأتعمّد الابتعاد عن صمـد كي لا أخدش مشاعرهـا ومشاعر أطفالها، لذلك أودعت أطفالي عنـد أختي. كنت أخشى أن يحتضنهم صمد ويحنو عليهم أمام أنظار عائلة ستار فيتألموا لذلك.

مساء اليوم الثالث جاءت ابنة أخت زوجي وقالت: «**خالي صمد يريدك**».

حبسـتُ أنفاسـي، وصار قلبي يخفق بسرعـة وشعرتُ أنّه كاد ينخلع مـن صدري كأنّها المرّة الأولى التي أذهب فيها للقائه. رأيته واقفًا في الفناء، سلّم عليّ فأطرقتُ رأسي، سأل عن أحوالي وقال: «**أنت بخير؟ أين الأطفال؟**».

قلتُ: «**أنا بخير والأطفال عند أختي، أنت كيف حالك؟**».

رفـع رأسـه إلى السماء وحمد الله. لـم أُردف شيئًا، ووقفتُ باستحيـاء، لا أدري لمَ كنت أشعر بالذنب. قلتُ في نفسي: «**الآن وبعد استشهاد ستّار وبعد أن أصبحت «صديقة» صاحبة العزاء، كيف أرضى لنفسي أن أقف قرب زوجي وأتحدّث إليه أمام أنظار الجميع؟!**» كذلك صمـد لم يقـل شيئًا. انصرف عنّي واتّجـه إلى غرفة الرجال لكنّه استـدار إلى الوراء وقال: «**سنذهب بعد العشاء لنزور الأطفال، لقد اشتقتُ إليهم**».

نادانـي بعـد العشاء. خرجتُ إلى الفناء من دون أن ينتبـه أحد لذلك، ثم أسرعتُ نحو الزقـاق. جـاء صمد إلى الزقاق خلفـي وقال: «**لماذا تركضيـن؟**» قلتُ: «**لا أريـد أن تراني صديقة بجانبك، ستحزن بالتأكيد**».

تأوّه متمتمًا: «**يا ستّار، يا ستّار، والله لقد كسرت ظهري!**».

قلتُ له وأنا أختنق بعبرتي: «**ألم تقل يومًا إنّ الشهادة تتطلّب من يليق بها؟ إذًا نال ستّار أجر أعماله، فهنيئًا له!**».

هزّ صمد رأسه وقال: «**أنت محقّة، أنا أبكي لكنّني أشعر بالهدوء في قرارة نفسي، أشعر أنّ ستّار بخير وبحالة جيدة. عليّ أن أحزن من أجل نفسي فقط**».

كانت النيران تلسعني في داخلي لمجرّد التفكير بطفلتيّ «**صديقة**»، لكن كنت أرغب في تخفيف الهموم عن صمد، فقلتُ: «**هنيئًا له، ليته يكون شفيعنا**».

وصلنا إلى منزل أختي وتجمّع الأطفال حول صمد. جلس مهدي في حضنه ولم يكن يرغب في ترك صمد، كذلك راحت سمية تلاطفه بينما خديجة ومعصومة تُقبّلان يده ورأسه. كنتُ أنظر إلى صمد وإلى الصغار وأذرفُ الدموع. لم يلبث أن شاهدني بتلك الحالة حتى قال وكأنّه أدرك ماذا يدور في بالي: «**ليتنا نأخذ سمية ابنة ستار معنا، المسكينة قلبها محزون كسير**».

قلتُ: «**نعم، إنّها تُدرك كل ما يدور حولها، لهفي عليها! أما أختها ليلى فلا أظنّ أنّها تدرك أباها جيّدًا**».

ترك صمد الأطفال، ونهض من مكانه قائلًا: «**خذي سمية معك إلى همدان لبعض الوقت، ربما تخفّ أحزانها**».

غداة ذلك اليوم ذهبنا إلى همدان، كان صمد قد أخبرني أنّ لديه عملاً في الحرس لبضعة أيام، لذا قرّرت مرافقته كي لا يبقى وحيدًا. وانطلقنا باتجاه همدان ومعنا سمية ابنة ستار.

أثار لعب الأطفال في طريق العودة ضجّة كبيرة داخل السيارة، وكانت سمية تُشاركهم في ذلك.

قلتُ: «**فعلنا خيرًا بإحضار هذه الطفلة معنا**».

نظر إلى سمية بعطف ولم ينبس ببنت شفة.

سألته: «**كيف استشهد؟**».

توهّجت عيناه كالجمر. قال لي وهو يمسك المقود وينظر إلى الأمام: «**لقد استشهد قربي، وأمام ناظريّ، كنت قادرًا على إرجاع جسده إلى الخطوط الخلفية..**».

أردتُ أن أُزيل عنه الحزن فربّتُ على كتفه بضربة خفيفة وقلت: «**لقد تحسّن جرحك**».

قال غير مبالٍ: «**لم يكن جرحًا عميقًا!**».

ضغطت بيدي على الضماد، فصرخ من شدّة الألم، قلتُ ضاحكة: «**لم يكن جرحًا عميقًا!**» ثم ضحك هو أيضًا وقال: «**هذه أيضًا ذكرى أخرى، آه، يا «كربلاء 4»**[1].

قلتُ: «**سمعت أختك تقول إنّك احتجزت في سفينة محروقة لمدة أسبوع**».

التفت ونظر إليّ باستغراب وقال: «**أسبوع؟! لا، أقل بكثير، احتجزت يومين**».

قلتُ: «**أخبرني عن ذلك**» تأوّه وقال: «**ماذا تريدين أن أقول؟**».

قلتُ: «**كيف حدث؟ كيف احتُجزت في السفينة؟**».

قال: «**بعد استشهاد ستّار، تسرّب أمر العملية. كنّا على وشك الانهزام، ولا بدّ من العودة إلى الخطوط الخلفية. كان الكثير من الشباب ما يزالون في أرض العراق بين شهيد أو جريح، ولم نستطع فعل شيء جرّاء القصف العنيف. طلبتُ من الناجين التراجع إلى الخلف. كم كان صعبًا وداع اللحظات الأخيرة، وداع الشباب، وداع ستّار..**».

وضع رأسه للحظات على مقود السيارة، صرخت: «**ماذا تفعل؟! انتبه!**».

رفع رأسه فورًا ثم قال: «**كانت ليلة عجيبة، ونهر «أروند» في حالة جزر. كان عليّ الرجوع برفقة حميد حسين زاده، فغصنا في الوحل حتى الركب. فجأة رأيت سفينة محترقة عالقة في الوحل، وقد لحقت بنا نيران العراقيّين من كل جانب. أُصيبت السفينة بثغرات كبيرة، فألقينا بأنفسنا إلى الداخل عبر إحدى الثغرات. أمضينا ليلة عصيبة، لم يغمض لنا جفن حتى الصباح. تموضعنا هناك في مكان آمن نسبيًا لنستريح قليلًا وننام بعيدًا عن أنظار العدو حيث كان التعب قد أخذ منّا كل مأخذ**».

قلتُ: «**إذًا لم يكن قلقي وقلق والدتك عبثًا، لقد عشنا القلق لحظة بلحظة طوال الفترة التي أُصبتَ أنت فيها وارتفع ستّار شهيدًا**».

لم يكترث لكلامي، كأنّه لم يكن في هذا العالم، حتى شغب الأطفال وضجيجهم لم يستطع إيقاظه من عالمه، كان يسرد ذكرياته من دون توقّف:

«**احتجزنا في السفينة صبيحة يوم 25 كانون الثاني، من دون ماء ولا طعام، كنّا ننتظر الليل كي نستطيع تنبيه الشباب إلى مكان وجودنا بطريقة ما. عندما حلّ**

(1) اسم العمليات التي جرت آنذاك.

الظلام خلعت قميصي القطني وبدأت أُلوّح به للإخوة. وقد نجحت الخطة ورأوني. حاولوا إنقاذنا عبر إرسال مجموعة إلينا، لكنّ نيران العدوّ الكثيفة وجريان الماء حالا دون تقدّمهم وأفشلا محاولاتهم».

أدار رأسه صوبي وقال: «**هل تعرفين حسين بادامي؟**».

قلت: «**نعم، ما خطبه؟**».

قال: «**وضع مكبّرًا للصوت أمام النهر لإيصال صوته إلينا وأخذ يقرأ دعاء الصباح وعندما وصل إلى عبارة: «يا ستّار العيوب» كرّرها ثلاث أو أربع مرات، ليقول لي: ستّار! نحن نهتمّ بكم ونراقبكم، وقال مرّة بوضوح باللغة التركية: ترقّبونا، الليلة سندخل الماء لإنقاذكم**».

ضحك وقال: «**انزعج العراقيون كثيرًا من مكبّر الصوت، لعمرك يا قدم خير، أطلقوا باتجاهه ألفي قذيفة حتى أصابوه أخيرًا**».

قلت: «**وكيف نجوت؟**».

قال: «**في ليلة 27 من شهر كانون الثاني، جاءت مجموعة من قوات «المهدي 33» من مدينة «شيراز»، كانت المجموعة تتمتّع بخبرة ولياقة بدنيّة عالية، اقتربت من السفينة وأنقذتنا ببراعة**».

ضحك ثانية وقال: «**بعد نقلنا إلى الجانب الآخر من النهر بدأ العراقيون بإطلاق النار على السفينة، كنّا قد وصلنا إلى اليابسة وهم ما زالوا مستمرّين بإطلاق النار نحوها**».

سكت قليلًا ثم أدخل يده في جيب قميصه وأخرج المصحف الذي كنتُ قد وضعته فيه حينما ودّعته في إحدى المرات، وقال: «**احتفظي بهذا المصحف ذكرى**».

كان القرآن مثقوبًا وملطّخًا بالدم. سألته بدهشة: «**ماذا حصل لهذا المصحف؟**».

قال وهو يُغيّر مبدّل السرعة بجهد بسبب جروح كتفه: «**لو لم يكن معي هذا القرآن لكنت الآن بجوار ستّار، أنا واثق أنّ السبب يعود إلى هذا القرآن، ما أعظمه! لقد مرّت الرصاصة بمحاذاة قلبي وخرجت من ظهري، أتُصدّقين؟!**».

قبّلتُ القرآن وقلتُ: «**الحمد لله، الحمد لله مئة ألف مرة!**».

اختلس نظرة إليّ وارتسمت ابتسامة على شفتيه، ثم سكت بعد ذلك ولم يتفوّه بكلمة حتى وصولنا إلى همدان، أما أنا بقيت أُقبّل القرآن وأحمد الله.

فـور وصولنـا إلـى همـدان، أنزلنا أمـام باب الـدار وانصـرف إلى عملـه، ورجع في المسـاء حيث كان الأطفال قد تناولوا عشاءهـم واستعدّوا للنوم. كان قد أحضر معه بعض «**النقرشات**» للأطفـال كالبسكويت والشيبس، جلس بينهـم وراح يرمي في أفواههم حبّات الشيبس حبّة حبّة؛ أثارت تصرّفاته هذه دهشتي، كأنّ صمد هذا غير الذي كان في الأمس أو فـي الصبـاح، إذ انقلبـت تصرُّفاته وأخلاقه، فـكان يدغدغ سمية ابنة ستّـار، ويقبّلها، ويلعب معها.

فـي صبيحـة اليوم التالي، ذهبنا إلى قايش، لكنّه أخبرنـي مساءً أنّه يريد الذهاب إلى الجبهة، وطلب منّي العودة معه إلى همدان.

قلـتُ: «**مـا دمت تنوي الذهاب إلـى الجبهة، دعني أبقى بجانب صديقـة بضعة أيام**»، قال: «**لا، إن رافقتني الآن، لن تساور أمي الريبة، لكن لو عدتُ بمفردي سوف تتيقّن بأنّي سأعـود إلـى الجبهة وستحـزن. يكفيها المسكينة ما تُعانيه، هـي الآن محزونة ومكسورة الخاطر**».

مسـاء ذلك اليوم، عدنا مجدّدًا إلى همدان وأخذنا سميةَ ابنة ستّار معنا أيضًا. استيقظ صمـد فـي الصبـاح الباكـر، صلّى صـلاة الصبح ثم قـال: «**قدم خيـر، أنـا ذاهـب، انتبهي للأطفال، اهتمّي بسمية ابنة ستّار، ولتَبْقَيْ هنا طالما رغبتِ بذلك**».

سألته: «**ومتى ستعود؟**».

قال: «**هذه المرّة سأعود سريعًا**».

رجع صمد نهاية الأسبوع. قال: «**جئت هذه المرّة لأبقى بجانبكم أسبوعًا أو أسبوعين**».

فـي الليلة الأولـى بعد عودته، استيقظتُ مـن النوم، منتصف الليل، إثـر سماع صوت. بحثت عن صمد فلم أجده في الصالة. ألقيتُ نظرة على الدشمة التي كان قد بناها سابقًا، فوجدتها مضاءة. ذهبت إلى هناك فوجدت صمد جالسًا على سجادة صلاته داخل الدشمة يكتب شيئًا على الورقة.

قلتُ: «**صمد، أنت هنا؟!**».

ارتبك، ثم طوى الورقة ووضعها داخل القرآن.

قلتُ: «**ماذا تفعل هنا في هذه الساعة من الليل؟**».

قال: «**تعالي اجلسي، أحتاجك في أمر**».

جلست أمامه. أحسست بالبرد، فقلت: «**الجو بارد هنا**».

قال: «**لا بأس بذلك، لديّ شيء مهم**» ثم وضع يده على القرآن وقال: «**لقد كتبت وصيتي ووضعتها هنا داخل القرآن**».

امتعضتُ من حديثه وقلتُ: «**أحدثت هذا الضجيج في منتصف الليل، أيقظتني من النوم كي تتحدّث عن هذه الأمور؟! يا لهدوء أعصابك!**».

قال: «**اصغي إليّ يا قدم خير ولا تهزئي بي**».

قلتُ: «**إذًا تحدّث بما يسرّ القلب**». ضحك وقال: «**والله إنّه عين السرور، سرور ما بعده سرور**».

أخذ القرآن وقبّله، قال: «**من تعاليم الشريعة أن يترك المسلم وصية قبل موته. كتبتُ لكم عن كلّ شيء، لا أُريد أن يضيع حقّكم من بعدي. لا أملك أموالًا، لك نصف هذا المنزل الصغير والنصف الآخر للأطفال. أوصيتُ أن أُدفن هنا في همدان، أنتم أيضًا ابقوا هنا، فذلك أفضل للأطفال. إن تمّ العثور على جثمان ستّار بعد شهادتي ادفنوه بجانبي**».

خنقتني عبراتي وقلتُ: «**أبعد الله ذلك اليوم، أدعو الله أن أموت قبلك**».

ضحك وقال: «**أما أنت، عليك أن تناديني بستار بعد شهادتي، الحاج ستّار! تمرّني على ذلك فلا أحد يعرفني باسم صمد، وإذا لم تفعلي ستتأذّين!**».

كان اسم «**صمد**» حسب بطاقة الهوية «**ستّار**»، بينما اسم أخيه «**ستّار**» في الهوية: «**صمد**»، لكنّ الجميع كانوا ينادونهما بطريقة معكوسة. كان صمد يقول: حين يناديني أحد في الجبهة أو في العمل «**صمد**»، أظنّ أنّه إمّا مخطئ أو يريد أخي! كان يضحك ويقول ممازحًا: هذا والدنا وتصرّفاته!.

نهضتُ وقلتُ بشيء من الحدّة: «**أشعر بالنعاس، تصبح على خير، يا حاج صمد!**».

دسست نفسي تحت اللحاف من شدة الصقيع، كان البرد يسري في جسمي وأسناني يصطكّ بعضها ببعض. كان حديث صمد يتكرّر في مخيّلتي فلم أستطع النوم.

صباح اليوم التالي، استيقظ صمد قبلنا جميعًا، وخرج لشراء الخبز والجبن. أعدّ الفطور، ثم أيقظ معصومة وخديجة من النوم، أطعمهما وأخذهما إلى المدرسة. عندما عاد، كنت أغسل أواني عشاء الليلة الماضية وسمية وزهراء ومهدي ما زالوا نائمين.

ساعدنـي قليلًا، ثم ذهب إلى الدشمة وأخذ أكياس الإسمنت الموجودة فيها ووضعها تحت الـدرج، بعـد ذلك صعـد إلى السطح ليتفقّـده، وأخيرًا دخـل الحمام ليستحـمّ، ثم ارتدى قميصًا جميلًا كان قد اشتراه من مكة. كم كان يليق به!

عنـد الظهـر، ذهب وأحضـر خديجة ومعصومة مـن المدرسة، ثم أشـرف على كتابة واجباتهما المدرسيّة، إلى أن حان وقت الغداء فنادى: «**يا صغار! تناولوا الغداء واستريحوا قليلًا، بابا سيأخذكم إلى السوق مساءً**».

غمرتهم الفرحة. وبينما نحن نتناول الغداء طُرق الباب. كان والد زوجي. لا أعرف كيف علم بعودة صمد. قال: «**جئت لنذهب إلى الجبهة معًا، أريد أن أبحث عن جسد ستّار**».

قـال صمـد: «**عزيـزي أبي، قلتُ لـك مـرارًا، إنّ جسد ابنـك وأخي ستّار ليـس الجسد الوحيـد الـذي بقي فـي الجانب الآخر من النهـر، بل هناك الكثير مـن أجساد الشهداء، ونحن نُخطّط الآن لعمليات أخرى لعبور نهر «أروند» واسترجاع أجسادهم**».

أصرّ والده وقال: «**لن أرضى بهذا الكلام، لا بدّ أن أذهب لأرى أين ابني، إن لم ترغب بالمجيء معي أخبرني كي أذهب بمفردي**».

نظر صمد إليّ ثم التفت إلى أبيه قائلًا: «**أبي، حبيبي، ذهابك إلى المنطقة لن يحضر جسـد ستّـار، إن كنـت تظـنّ ذلك هيّـا لنذهـب الآن، لكنّني أعـرف أنّها محاولـة فاشلة**»، احتـدم أبوه وقال: «**لا تحـاول إقناعي بهذه الحجـج الواهية، لقد قـرّرت الذهاب وسوف أذهب برفقة شمس الله إن لم تأتِ أنت**».

جلـس صمـد وراح يشرح لأبيه بهدوء كامل في أيّ منطقة يقـع جثمان ستّار، لكنّ والده لم يقتنع أبدًا، فتحجّج صمد بأنّ شمس الله في الجبهة. قال والده: «**سأذهب بمفردي!**».

قـال صمـد: «**أعلم بأنّـك تشتـاق لابنـك، وإن كان ذلك يرضيـك ويفرحـك، لا بأس! سنذهب إلى المنطقة صباح الغد**».

لم يُجب والده بشيء، بل خرج قاصدًا منزل السيد شمس الله لتفقّد أحوال أبنائه.

حزن الأطفال عندما عرفوا أنّ صمد لن يأخذهم إلى السوق. لكنّه راح يُلاعبهم ويهتم بدروسهـم، ساعد خديجـة في الإملاء ومعصومة في النسخ. كنـت واقفة في زاوية الغرفة أنظـر إليه. انتبه لي فجـأة، فضحك وقال: «**قدم خيـر، لمَ تنظرين إليّ هكـذا؟ انتبهي لا تحسديني بنظراتك! أشعلي البخور من أجلي!**».

قلتُ: «**وهل تريد الذهاب فعلًا؟**».

قال: «**سأعود بسرعة، لن يستغرق الأمر أكثر من يومين أو ثلاثة. أبي منزعج، الحق معه، إنّه صاحب العزاء، سوف آخذه إلى ضفّة «أروند»** حيث استشهد ستّار وأعود سريعًا».

قلتُ: «**أجل، سريعًا!**».

ضحك وقال: «**أُقسم بحياة قدم خير سأعود سريعًا، لقد أخذت إجازة. ربما لا يستغرق الأمر يومين أو ثلاثة. قومي الآن وقدّمي فنجان شاي إلى زوجك الحاج! عليك أن تُقدّري ثمن هذه اللحظات**».

من اليمين إلى الشمال: شهيد أصغري، صمد حيث كان نائبًا لقائد كتيبة 155، حميد رضا رهبر قائد كتيبة 155، وشهيد رضا رحيمي؛ جزيرة مجنون؛ سنة 1363هـ.ش ـ (1984م).

أسوأ الحالات وأصعب الظروف في الجبهة كانت تعني له أحلى الذكريات وأجملها.

الفصل الثامن عشر

الاستعداد للشهادة: أريهم صورتي

كنــتُ أُعدّ الفطور عندما جاء والد صمد باكرًا في صبــاح اليوم التّالي. قال: «**البارحة رأيت ستّارًا في المنام، كان متضايقًا فقلتُ له: حبيبي ستّار، كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ فأدار وجهه وقال: «أنا صمد!»** اقتربت منه لأُقبّله لكنّه غاب عنّي فجأة».

لــم يستطع حبــس دموعه فقال: «**لقد اشتقتُ لولدي، إنّه يتعـذّب في أرض العدو بين البعثيين. لا أدري لمَ كان منزعجًا منّي**».

أراد صمــد أن يُخفّــف عــن أبيه فقال ممازحًا: «**لا يا أبــي، أنا أعتقد أنّـه بحالة جيّدة، يطيــر فــي الجنة وهو في ســرور وحبور، وأظـنّ أنّه متضايق منك لأنّـك خلطت اسمينا ببعضهمــا البعض**». عضضــت على شفتــي فانتبه صمد وغيّــر كلامه قائــلًا: «**أصلًا هو منزعج منّي لأنّي أخذت اسمه!**».

ثم التفت إليّ وقال: «**حتى زوجتي منزعجة منّي، أليس كذلك يا سيدة قدم خير؟!**»

رفعت كتفي مُظهرة عدم اكتراثي لحديثه.

تابع مزاحه: «**كلّما أوصيها بالتعوّد على مخاطبتي بالحاج ستّار، لا تقبل. حين يأتون ليخبــروك أنّ الحــاج ستّار قد استشهــد، عليك أن تعرفي أنّهم يقصدونني أنا، ولا تقولي لهم إنّ ستّار أخا زوجي وقد استشهد منذ فترة!**».

قــال ذلك وضحك، كان يتوقّع سماع ضحكاتنا، لكنّنا أبدينا امتعاضنا ونظر إليه والده بحدّة.

لمّا رأى صمد ذلك الوضع قال: «**الحق عليك يا أبي، ما هذه المشكلة التي سبّبتها لنا بسبب اسمينا؟!**».

أجابــه والــده مقطّبًا حاجبيه: «**لــم أتسبّب بأي مشكلــة لكما ولســت السبب في ذلك، كنتَ صمد منذ البداية، لكن بعد ولادة شمس الله وستّار التوأم، ذهبت إلى دائرة النفوس**

لأصدر لكم بطاقات الهويّة؛ وكثيرًا ما كان الناس في ذلك الوقت يتأخّرون في إصدار هويات لأبنائهم، وبعضهم كان يؤجّل الأمر إلى حين تزويجهم. لقد أخطأ المسؤول في دائرة النفوس، فسجّل اسمك «ستّار» وكنت الأكبر بينهم. ورغم أنّ شمس الله وستّار توأمان، إلّا أنّه كتب تاريخ ولادة الأوّل 1965م والثاني 1958م. ولمّا أردت تسجيلكم في المدرسة سألني المدير: أيهما أكبر؟ فقلنا أنت. فقال: هذا اسمه ستار ويمكنه أن يحضر في الصف الأوّل، لكن لم يحن وقت الآخرين بعد. لقد بذلت جهودًا كثيرة لتصحيح أخطاء الهويات لكنّي لم أُفلح».

تبسّم صمد وقال: «**في البداية كنت أتأذّى كثيرًا، وكلّما ناداني المعلّم بستّار إبراهيمي نظرت إليه بدهشة، من جهة أخرى كان زملائي في الصف وأصدقائي ينادونني صمد. تحيّرت بين هذا وذاك، ومضى وقت طويل حتى تأقلمت مع الوضع**».

نظر صمد إليّ ثانية وقال: «**على كلّ حال تمرّني يا سيدتي؛ عليك أن تنادي زوجك «الحاج ستار»**».

قلتُ: «**كفاك غنجًا، ألم يقل الحاج بأنّ اسمك منذ البداية كان صمدًا**».

اكتفى صمد بذلك القدر من الحديث ولم يُتابع أكثر، قال لأبيه: «**عزيزي أبي، من الأفضل أن تأخذ حمّامًا ساخنًا كي تستعيد نشاطك، وأنا لديّ بعض الأعمال البسيطة سأُنجزها ريثما تنتهي من الاستحمام**».

قبل والده العرض، وأنا قمت بتجهيز مائدة الفطور. أيقظت خديجة ومعصومة، فجاء صمد وجلس قرب المائدة وقال: «**قدم خيرا**». نظرتُ إليه. كنتُ مستاءة وقلقة، وقد شعر بذلك، كانت هذه حالتي كلّما أراد الذهاب إلى الجبهة: متضايقة ومنزعجة.

قال: «**أريد أن أبوح لك بسرّ**».

حدجته بنظراتي. واصل كلامه وهو يتناول رغيف الخبز: «**في ليلة العمليات طلبت من ستّار الذهاب إلى الفوج الثالث. كان القارب الأول مستعدًا ليقلّنا إلى الضفّة الأخرى من نهر «أروند»، عددتُ عناصري فوجدت أنّ هناك شخصًا إضافيًّا، سألت عدة مرات: من هو العنصر الإضافي؟! لم يُجبني أحد. فاضطررت لتفحّص وجوه الجميع بالمصباح اليدوي الذي كان بحوزتي، تفحّصت وجوههم واحدًا تلو الآخر فرأيت أنّ ستّار هو العنصر الإضافي. قلتُ له غاضبًا: ألم أطلب منك الذهاب إلى الفوج الثالث؟**

أخذ يتوسّل إليّ ويلحّ عليّ كي أسمح له بالمجيء معنا. ليتني لم أقبل، لكن لا أعلم كيف وافقت على مجيئه.

عبرنا «أروند رود» تلك الليلة بعناء ومشقّة. واقتحمنا الأسلاك الشائكة تحت نيران العدوّ الكثيفة، وعلى الرغم من قلّة عددنا، تمكّنا من اقتحام خط العدو وبقينا نترقّب وصول كتيبة قوات الغوص، لكن كتيبة الغطس لم تنجح في اقتحام الخط والتقدّم، بقينا بمفردنا نواجه العراقيين ونقاتلهم وجهًا لوجه بتلك الأسلحة الخفيفة. فجأة سمعت ستّار يناديني، ذهبت إليه فوجدته مصابًا في قدمه. ضمّدت قدمه بالكوفية وقلت: أخي، تحمّل قليلًا حتى يصل الإسناد.

لكثرة ما أطلقنا النار خلال الاشتباكات أصبحت أسلحتنا شديدة الحرارة، ما تسبّب بحروق في يدي».

فتح يديه وأراني آثار الحروق. كنت قد رأيتها سابقًا لكنّه لم يخبرني عنها شيئًا وأنا لم أسأله.

قال: «**صبّي لي الشاي**». كان صوت الماء يأتي من الحمام. سمية وزهراء ومهدي كانوا نائمين وخديجة ومعصومة تتناولان الفطور وتنظران إلى أبيهما بدهشة. وضعت الشاي أمامه وقلت: «**ماذا حصل بعدها؟**».

قال: «استمرّ العراقيون في إرسال قوّاتهم إلينا مجموعة تلو أخرى، وكنّا لم نزل ندافع عن أنفسنا بأسلحتنا الخفيفة. وبينما نحن على تلك الحال، سمعتُ صوت ستّار ثانية، ركضتُ نحوه، وجدتُه هذه المرة ممسكًا بذراعه، كان جرحه خطيرًا، ضمّدتُ ذراعه، قبّلتُ وجهه وقلتُ: حبيبي أخي، لقد جُرح الكثيرون، يجب أن تتحمّل! ثم رجعتُ ثانية. كانت الأوضاع حرجة للغاية، كان عناصر كتيبتي قاب قوسين أو أدنى من الشهادة أو الجرح أو الأسر. سمعتُ صوت ستّار مجدّدًا ورأيته غارقًا بدمه حيث انفجرت قنبلة يدوية على مقربة منه فمزّقت صدره، احتضنتُه وحملتُه إلى دشمة قريبة منّا، قلتُ: يجب أن تتحمّل، سوف أُعيدك معي. كان هناك أحد الجرحى أيضًا واسمه «درويشي»، نقلته إلى الدشمة الاسمنتيّة نفسها. عندما أردتُ أخذ ستّار معي، قال لي درويشي: حاج! أتريد أن تتركني وحيدًا؟ أُقسم عليك بالله أن تأخذني معك أيضًا. ألستُ من عناصر كتيبتك؟! وضعت ستّار على الأرض وذهبت إلى «خير الله درويشي»، حاولت رفعه عن

الأرض فقال ستار معترضًا: يا عديم الإنصاف! أنا أخوك! خذني أولًا، أنا أسوأ حالًا منه. كان الموقف صعبًا، صعبًا للغاية. احترتُ ماذا أفعل».

رفع صمد فنجان الشاي وشربه من دون تحليته دفعة واحدة. قال: «**قدم خير! كنت في حيرة من أمري، وأخيراً اتخذت قراري وقلتُ: لا أقدر أن أحمل إلا واحدًا منكما، قولا ماذا أفعل؟ فبدأ كلّ منهما يلحّ عليّ أن أحمله أوّلًا، اقتربتُ من ستّار قبّلتُ وجهه وقلتُ: وداعًا يا أخي، سامحني! كنت قد طلبت منك أن لا تأتي.**

قال لي في تلك اللحظة الصعبة: ابنتاي؛ اهتمّ بهما.

قلتُ: هل تريد شيئًا؟ قال: أنا عطشان.

أخرجت مطرة الماء لأسقيه، لكنّها كانت فارغة تمامًا».

وضع فنجان الشاي على السفرة وقال: «**حبيبتي قدم خير، بعد استشهادي اروي هذا الحديث لوالدي، أعلم أنّه الآن لا يحتمل سماعه، لكنّه لا بدّ أن يعرف الحقيقة».**

قلتُ: «**إذًا هكذا استشهد ستّار؟**» قال: «**لا.. كنت أُودّعه، وبينما أنا أُقبّل وجهه وصل العراقيون وأمطرونا بوابل من النيران. حينها أُصبت بطلقة في كتفي فجُرحت، ألقيتُ بنفسي خارج الدشمة إلى الماء، سمعت من الشباب بأنّ «خير الله درويشي«قد أسره العراقيون وأطلقوا النار على ستّار فاستشهد عطشانَ!».**

نهض واقفًا، قلت: «**تناول فطورك**».

قال: «**لا أرغب في تناوله، بعد استشهادي اروي لأبي وأمي تفاصيل هذه الحكاية واطلبي منهما مسامحتي إن كنت مقصّرًا في إنقاذ ابنهما».**

ثم التفت إلى خديجة ومعصومة وقال: «**عزيزتَي بابا، هيّا لنذهب إلى المدرسة».**

عندما ذهب صمد خرج والده من الحمام ليتناول الفطور ويستعدّ للذهاب.

حين عاد صمد، قلتُ له: «**عليك الذهاب قبل أن يستيقظ الأطفال وإلّا ستضطرّ للتأخّر بسببهم».**

شرع صمد بإعداد حقيبته، فاستيقظ مهدي، وتبعته سمية وزهراء. لعب معهم قليلًا ثم ودّعهم، لكنّ مهدي جرى خلفه وظلّ يضرب على الباب المغلق ويبكي حتى اضطرّ صمد للعودة، قبّل مهدي ورمى بالألعاب أمامه في الغرفة لإلهائه، ثم حاول الهرب منه ليذهب، فجرت سميّة خلفه، فقال لي: «**اذهبي واطلبي من أبي أن يدخل**». كان والده ينتظره في الزقاق.

دخل والد صمد وجلس على الدرج، ضجر من الانتظار، فراح ينادي صمد.

أحضر صمد كرسيًّا وطلب منّي إعطاءه عددًا من البطانيات ليُعلّقها على النوافذ، فتقينا برودة الطقس وإطفاء الأضواء في حالات الإنذار.

انشغل مهدي وسمية وزهراء باللعب بعد أن اطمأنّوا إلى عدم مغادرة أبيهم. استغل صمد الفرصة ودّعني ثم خرج من الغرفة بذريعة أخذ الكرسي إلى تحت الدرج وذهب.

طُرق الباب بعد بضع دقائق، تساءلت في نفسي ماذا يحصل لصمد اليوم؟!

ألفيته لدى الباب فسألته:«**ماذا حدث؟**» قال: «**لقد نسيت مفاتيحي**». أعطيُته إيّاها، وبقينا لحظة وحدنا على الدرج. قبّل جبيني وقال: «**سامحيني قدم خير، ففي كلّ هذه السنوات لم أجلب لك إلا المشقّة**».

أردتُ أن أقول له شيئًا لكن سرعان ما غاب عن ناظريّ، فجلست على الدرج غارقة في لجج أفكاري.

غيّمت على فؤادي سحابة من الكآبة، فذهبتُ إلى فناء الدار بحجّة إحضار المازوت. حملت الصفيحة وكانت ثقيلة جدًّا، نقلتها بصعوبة بالغة إلى جانب الشرفة. كان الجو باردًا والثلوج تُغطّي الفناء، كنتُ أرتجف من شدّة البرد. نظرتُ إلى النافذة فرأيتُ الأطفال يقفون خلفها وقد رفعوا طرف الستار لمشاهدتي، حينها وقع بصري على صورة صمد المعلّقة وإلى جانبها القرآن الذي وضع فيه وصيّته.

تذكّرتُ كلامه: «**إذا اشتاق لي الأولاد أريهم هذه الصورة**».

لست أدري أي سرّ كانت تخبّئه تلك الصورة، كنت كلّما نظرت إليها شعرت بضيق في صدري، وكأنّ هموم العالم ترزح على قلبي. كانت آلاف الأفكار السيّئة تراودني لمجرّد النظر إليها.

حملت الصفيحة ثانيةً لأُدخلها إلى الغرفة، وكنت أنتعل خُفًّا بلاستيكيًّا. فجأةً، زلّت قدمي ووقعتُ على الأرض، ووقعتْ صفيحة المازوت على قدمي، سحبت قدمي من تحت الصفيحة، كان الألم شديدًا كإبرٍ تنخر عظامي، رأيت الأطفال يضربون بأيديهم على الزجاج، لكنّني لم أقو على النهوض فبقيتُ مرمية على الثلوج والدموع تجري على خدودي رغمًا عنّي.

إسودّ لون إبهام قدمي وشعرتُ بوهنٍ في بدني، بكى الأطفال كثيرًا عندما رأوني على

هذه الحال. مرة أخرى وقعتْ عيناي على الصورة. لم أكن أرغب في البكاء أمام الأطفال، فعضضت على شفتي عساني أحبس بذلك عبرتي، وضجّ داخلي بنداء: «**صمد، حبيبي صمد، هلّا أغثت أهلك وعيالك؟ متى ستكون لنا؟!**».

كنتُ لا أزال أشعر بحرارة قبلته الأخيرة على جبيني، نهضت إلى الغرفة بعناء شديد.

حاولت تهدئة الأطفال فلم أفلح. تفطّر قلبي عليهم، أنزلت الصورة وقلتُ لهم: «**تعالوا، انظروا إلى بابا كيف يضحك!**».

هدأ الأطفال والتفّوا حول صورة صمد. قبّل مهدي الصورة، كذلك فعلت سمية. كانت زهراء تمسح الصورة بيدها وتُردّد على لسانها: بابا، بابا، ثم تنظر إليّ وتضحك بصوت عال. اتسخ زجاج الصورة بسبب تقبيلهم ولمسهم إياه.

ضغطت على إبهامي وطلبت من سميّة إحضار كوب من الماء.

شربت الماء واستلقيت بجانب الأطفال، وكان بانتظاري الكثير من الأعمال من قبيل إعداد الغداء، وغسل ملابس زهراء ورفع المائدة التي بقيت منذ الفطور على الأرض.

اقترب موعد إحضار خديجة ومعصومة من المدرسة. وضعتُ عدة حبّات من البرتقال في وعاء أمام الأطفال، ولمّا انشغلوا باللعب بها، خرجت خلسةً وأنا أعرج لإحضار خديجة ومعصومة.

الفصل التاسع عشر

الوداع الأخير والوصيّة

مرّ عشرون يومًا من شهر آذار. وصمد وأبوه لم يرجعا بعد يومين أو ثلاثة كما وعدني. كان مساءً حزينًا والأطفال يشاهدون التلفاز. بدأت درجات الحرارة ترتفع شيئًا فشيئًا في الخارج، كذلك الثلوج راحت تذوب ببطء. وبدأ الناس بالاستعداد لتنظيف بيوتهم احتفاءً بالسنة الجديدة. أمّا أنا فقد تملّكني الضجر فلم أقو على العمل في المنزل فكنتُ أُمنّي نفسي بعودة صمد ما بين اليوم والغد؛ سننظّف المنزل معًا ونشتري للأطفال ملابس للعيد.

فجأة مرّت في مخيّلتي صورة التنورة التي اشتريتها أمس برفقة أخي. ساورني شعور سيّئ حين تذكّرتها ولمتُ نفسي، لمَ اشتريت في بداية السنة الجديدة تنّورة سوداء؟ لقد جاء أخي صباح الأمس وأخذني إلى السوق ليشتري لنا ملابس العيد. رفضتُ في البداية وقلتُ: «**عندما يأتي صمد سيشتري للصغار ثياب العيد**». لكنّه ألحّ كثيرًا وقال: «**على الأقلّ خذي شيئًا لك فقط، ألست أخاك الأكبر؟!**».

من تقاليد قريتنا أن يقوم الأخ بشراء الهدايا لأخواته في بداية السنة. لم أرض أن أكسر قلبه، فذهبنا معًا إلى السوق، لكن لا أدري لمَ اخترت تنّورة سوداء من بين كلّ تلك الملابس الملوّنة والجميلة، استنكر أخي ذوقي قائلًا: «**أختي الحبيبة، لا أُعارض ذوقك، لكن من الأفضل أن تختاري ثوبًا أو شيئًا آخر ملوّنًا**»، أجبته: «**لا، هذه جيدة**».

لكن سرعان ما ندمت، وتمنّيت لحظة وصولي إلى المنزل لو أنّي أصغيت إلى نصيحته ولم أشترِها في بداية السنة، ثم واسيت نفسي: «**لا بأس، عندما يعود صمد سأذهب معه وأبدّلها بتنّورة أو سترة من لون آخر**».

كان الأطفال يشاهدون التلفاز، وخديجة تكتب فروضها؛ قالت لي: «**أمّاه، لقد نسيت شيئًا، عندما خرجت من المنزل لشراء الخبز أتى عمّي شمس الله أخذ ألبوم الصور من الخزانة واختار منها صورة من صور أبي وأخذها معه**».

سألتها غاضبة: «**لمَ لم تُخبريني بذلك باكرًا؟!**».

أطرقتْ رأسها وقالت: «**نسيت**».

وكأنّ همـوم الدنيـا قد صُبّت على رأسي، ورحت أضـرب أخماسًا بأسداس: ترى لماذا أتى السيد شمس الله إلى منزلنا ومن دون إذن منّي فتح الخزانة وأخذ منها صورةً لصمد؟ كنت غارقة في هذه الأفكار حين طُرق الباب.

هرع الأطفال وركضوا نحو الباب. وصاح مهدي بشوق: «**بابا! .. جاء بابا...**».

لم أعرف كيف وصلت إلى الدرج؛ كان والد زوجي قد فتح الباب ودخل الفناء ومعه أخي أمين. سألت بدهشة: «**جئتم مع صمد؟ هل صمد معكم؟!**».

بـدا والد زوجي أكثر هرمًا والغبار يعلو وجهه، أجابني بانقباض: «**لا... جئنا بمفردنا، صمد بقي في الجبهة**».

سألتُ: «**كيف فتحتم الباب؟ ولا مفتاح معكم؟!**».

أجابني مرتبكًا: «**مفتاح! نعم، ليس بحوزتنا مفتاح، لكنّ الباب كان مفتوحًا**».

قلـتُ: «**لا، لـم يكن الباب مفتوحًا، أنا متأكّدة. قمتُ بإغلاقه بنفسي حين عودتي من الدكان. لقد أغلقت الباب بالتأكيد**».

أزعجه إصراري وقال: «**ربما خرج الأولاد خلسةً وفتحوه**».

لم أتمادَ في النقاش معه رغم ثقتي بما قلت وسألتُه: «**إذًا أين صمد؟!**».

أجاب بلا مبالاة: «**في الجبهة!**».

قلتُ: «**كان من المقرّر أن يعود معكم وخلال يومين أو ثلاثة**».

أردف قائـلًا: «**بمجـرّد وصولنـا إلـى المنطقة افترقنا عـن بعضنا، توجّـه صمد إلى مهمّته. وبقيتُ أنا أبحث عن ستّار ولم أجده، ولا أعرف شيئًا عن صمد لغاية الآن**».

ظننـتُ أنّ سبـب حزنه يعود إلى عدم تمكّنه من العثور على جثمان ستّار، تنحّيت جانبًا ودعوتهمـا للدخول إلى البيت، لكـنّ شعوري بالقلق لازمني طوال الوقـت. كنتُ أتساءل في نفسـي: أتـراه صادقًا؟ لمَ جاء مع أخـي أمين الذي كان في قايش، أنـا متأكدة أنّه كان في قايش. ترى هل حدث مكروه لا سمح الله؟!.

سألت ثانية: «**هل حقًّا ليس لديكم خبر عن صمد إن كان بخير أم لا؟!**».

أجـاب والـد صمد بانزعاج: «**لقـد قلتُ لـك إنّي لا أعـرف شيئًا عن صمـد، أنا متعب للغاية، جهّزي لي فراشًا لأنام**».

سألتُ باستغراب: «**ستنامون الآن في بداية المساء؟! اسمحوا لي أن أعدّ العشاء**».

قال: «**لست جائعًا، أشعر بنعاس شديد، جهّزي لي ولأخيك فراشين، نريد النوم**».

التفّ الأطفال حول أخي، سألت أمين عن أحوال شينا، أجابني بطريقة مريبة، قلت في نفسي: «**ربما حدث مكروه لشينا لا سمح الله!**» أقسمت عليه بحياة والدي وقلت: «**أُقسم عليك بحياة أبي الحاج، هل حدث شيء لشينا؟!**».

بدا أمين منزعجًا كما والد زوجي وقال: «**والله لم يحدث شيء لشينا، هل تريدين أن أحضرها غدًا إلى هنا ليرتاح بالك؟!**».

التزمتُ الصمت بعد هذا الكلام، قمتُ وأحضرتُ فراشًا لوالد زوجي. بعد أن خلد للنوم في فراشه، تركت الأطفال مع أخي وذهبت إلى بيت السيدة دارابي. أخبرتها بما جرى وقلتُ: أريد الاتصال بالحرس ربما أعرف شيئًا عن صمد».

وإذا بالسيدة دارابي التي كانت تضع الهاتف أمامي برحابة صدر وتغادر الغرفة لأجري اتصالي كي لا تُسبّب لي الحرج، تجلس الآن بجانب الهاتف وتقول: «**اسمحي لي أن أتصل أنا**». جلست أمامها حيث كانت تطلب الرقم ثم تتوقّف وتقول: «**الخط مشغول، لا يمكن الاتصال، كأنّ هناك مشكلة في الخطوط**».

بقيت جالسة مدّة نصف ساعة تقريبًا أنظر إليها كيف تُجري الاتصال، كانت على غير عادتها، تتمتم بكلمات لم أكن أسمعها جيّدًا، وحين تجري الاتصال تقوم بقطعه فورًا قبل أن يكتمل الرقم. قلتُ: «**إن كان لا يمكن الاتصال الآن سأعود بعد قليل، سأُطعم الأطفال ثم أعود**».

عدتُ إلى المنزل فلم أجد أخي بجانب الأطفال، كان في الغرفة حيث أبو صمد وكانا يتحدّثان معًا بصوت خافت. ما إن دخلت الغرفة حتى سكتا.

ازداد قلقي وقلتُ: «**لمَ أنتما مستيقظان؟ هل حدث شيء؟ أُقسم عليكما بروح ستّار أن لا تُخفيا عنّي شيئاً، فأنا قلقة**».

قال والد صمد: «**لا يا زوجة ابني، لم يحدث شيء، كنّا نتحدّث حديث رجل لرجل عن أمور تتعلّق بالعائلة، ماذا تتوقّعين أن يحدث؟ لو كان قد حدث شيء لكنّا أخبرناك بالتأكيد**».

عدت إلى الصالة حيث زهراء وسمية ومهدي كانوا يلعبون معًا، وخديجة ومعصومة تكتبان فروضهما. كان لا بدّ أن أُعدّ شيئًا للعشاء لكن القلق كان ينهش قلبي ولم يقرّ لي

قـرار. ذهبـت إلى منزل السيـدة دارابي مجدّدًا. قلـتُ: «**أستحلفـك الله، اتّصلي بزوجك واسأليه عن أحوال صمد**».

قالت السيدة دارابي بلا تريث: «**لقد تحدّثت معه قبل قليل، قال إنّ صمد بألف خير وعافية وقال إنّهما معًا**».

كـدت أطير من الفرح، قلتُ: «**جزاك الله خيـرًا، إذًا اتّصلي مرة أخرى كي أتحدّث مع صمد قبل أن يغادر إدارة الحرس**».

مكثتْ قليلًا ثم أخذتْ التلفون وبدأتْ تتّصل وتقول: «**الرقم مشغول**».

وأخيرًا قالت: «**يا للهول، لقد انقطع الخط كليًا**».

انزعجـت من تصرُّفاتهـا. استأذنتها وعدتُ إلـى منزلنا. استحوذ القلـق على كياني، أحسستُ أنّ السيدة دارابي تُخفي عنّي شيئًا ما.

عندما وصلـت إلى المنزل رأيت أخي ووالد صمد يجلسان في الصالة وبيدهما القرآن الـذي وضـع فيه صمد وصيّتـه، وهما يقرآنها. عندمـا رآني أبو صمد وضـع الوصية داخل القرآن قائلًا: «**لم نستطع النوم، قلنا فلنقرأ القرآن**».

عضضت على شفتي وأبديت انزعاجي قائلة: «**ما الذي تريدان إخفاءه عنّي؟ أنّ صمد قد استشهد؟!**».

أخذتُ القرآن من والد صمد وضممته إلى صدري وقلتُ: «**لقد استشهد صمد، أعرف ذلك**».

نظر والد زوجي إليّ بتعجّب وقال: «**من قال لك؟!**».

فجـأة أجهش أخي بالبكاء. بكيتُ أنا أيضًـا، فتحتُ القرآن وأخذتُ منه الوصية، قبّلتها وقلـتُ: «**حبيبي صمـد، أولادك ما زالوا صغارًا، ما هذا الوقت الـذي اخترته للرحيل؟ يا عديم الإنصاف، كيف تركتني من دون وداع؟ ألم أستحقّ منك ولو وداعًا بسيطًا؟!**».

وضعـت يدي علـى القرآن وقلتُ: «**إلهي، أُقسـم عليك بهذا القرآن أن يكـون هذا كذبًا، وأن يعود صمدي مرة أخرى، إلهي، رُدّه إليّ مرة أخرى**».

أسنـد والد صمـد رأسه على الجدار وأخـذ يبكي، كان كتفاه يهتزّان مـن شدّة البكاء. اقتربـت خديجـة ومعصومة منّي وجلستا بجانبـي كأنّهما فهمتا كل شـيء وشرعتا بالبكاء معـي، بينما جلست سمية على ركبتيّ تمسح دموعي، ومهدي ينظر إليّ بدهشة وعلا صراخ زهراء في أرجاء الغرفة.

كان والد زوجي يبكي وينادي ولديه «**يا صمد يا ستّار!**». أجلس مهدي في حضنه، أخذ يقبّله وينشد رثاءً باللهجة التركية[1]. فجأةً هدأ وقال: «**لقد كتب صمد في وصيته: «قولوا لزوجتي أن تحيا كزينب عليها السلام»**». وقال إنّ «**مهدي هو رجل البيت بعد غيابي**».

ثم أخذ يبكي من جديد.

حمل أخي صورة صمد، أسرع الأطفال نحو الصورة، أخذ الأوّل يقبّلها والآخر يمسحها بيده وزهراء تردّد بكلامها العذب: بابا، بابا!

رفع أخي يديه إلى السماء وقال: «**اللهم منّ علينا بالصبر، كيف لنا تحمّل كلّ ذلك، كيف يمكن لأختي أن تُربّي هؤلاء الأيتام؟**».

بعد قليل بدأ الجيران يتوافدون إلى منزلنا تباعًا، كانوا يضمّونني وهم يبكون، ويقبّلون الأطفال. لمّا وقع نظري على السيدة دارابي اشتدّ نحيبي. كانت تولول وتقول: «**قطّعت نياط قلبي يا قدم خير، ألهبتِ روحي أنت وأطفالك يا قدم خير، غصّتك أضرمت النار في فؤادي يا قدم خير!**».

عندها علا نحيبي وقلتُ: «**كنت تعرفين قبل الآخرين أنّ أطفالي أصبحوا يتامى**».

كانت السيدة دارابي تبكي بشدّة، وكاد أن يُغمى عليها.

كنتُ في تلك الليلة كطيرٍ ذبيح، بقيتُ حتى الصباح أتفقّد أطفالي بين حين وآخر وأُقبّلهم واحدًا واحدًا. كان المساكين يستيقظون على أنيني.

بكيتُ بحرقة حتى الصباح وذرفتُ الدموع لغربتنا بعد صمد. لم تهدأ النار في داخلي بينما كنت أشعر ببرودة تسري في بدني.

اعتنى الجيران بي وذرفوا الدموع مثلي. كانوا يدورون حولي بحنوّ كالفراشات، ولأنّي لم أستطع إرضاع زهراء، أخذوها للاهتمام بها.

في صبيحة اليوم التّالي، وصل الأقارب والأصدقاء والمعارف إلى همدان بواسطة الحافلات، كانت عيونهم كالجمر من شدّة البكاء. ثم جاء أصدقاء صمد وقالوا: «**لقد أحضروا جثمان صمد إلى مركز الحرس**».

جهّزنا أنفسنا للذهاب وإلقاء النظرة الأخيرة عليه حيث كانوا قد وضعوه في شاحنة كبيرة مبرّدة، بجانب شهداء آخرين. فتحوا باب السيارة، كانت النعوش قد نُظّمت بعضها

(1) يوجد منطقة في شمال إيران يتكلّم أهلها اللهجة التركيّة.

فـوق بعض. ناديت: «**صمد! أحضروا لي صمـدي، فنحن لم نر بعضنا منذ زمن طويل**». صعـد شقيقه تيمور إلى السيارة حيث كان واقفًا بجانبي، وأخذ ينزل النعوش من الشاحنة بمساعـدة الآخرين، لكنّ صمد لم يكن بينها، أخيـرًا وضع السيد تيمور أمامي نعشًا وقال: «**إنّه أخي**».

تحلّـق الإخوة والأخوات، والده، والدته ووالدي، حول النعش. كنت أتمنّى أن تكون شينا بجانبي لأبكي في حضنها، لكنّها لم تكن بحالة جيدة ولا قدرة لها على الخروج من المنزل في الآونة الأخيرة.

لـم يبـق لي ولأطفالي مكان حول نعش صمد، جلست عنـد قدميه وبكيت بهدوء، وقلتُ: «**كان ولم يزل هذا هو نصيبي منك، الشخص الأخير، النظرة الأخيرة**».

نفـد صبر والـدَي صمد، إذ لم يكـن قد مضى على شهـادة ستّار شهـران وهذا صمد شهيدهـم الثاني. رفع إخوة صمد النعش ووضعوه في سيـارة الإسعاف. أردتُ أن أركب في نفـس السيـارة، فلم يسمحـوا لي، طلبت أن أجلـس بجانب النعش خـلال الطريق إلى «**باغ بهشـت**»[1] فمنعونـي. كنت أُريد أن أختلي به وأتحدّث إليه لكنّهـم لم يسمحوا لي وأخذوني بقوّة إلى سيارة أخرى. انطلقت سيارة الإسعاف ومضينا في إثرها.

كانـت السيـارة التي تقلّ نعش صمد تسير في المقدّمة بسرعة، وكنّا نسير خلفها ببطء فتفصـل بيننـا سيارات أخرى. لا أذكر من كان يقود السيـارة، لكنّي قلتُ له: «**أُقسم عليك بالله أن تسرع أكثر، اسمح لي أن أرتوي من رؤيته في اللحظات الأخيرة**».

لكنّ السائق فقد أثر سيارة الإسعاف فافترقنا حتى في اللحظة الأخيرة. ضاق صدري ذرعًـا، كان عنـدي الكثير الكثير من الـكلام الذي لم أَبُح به بعـد. أردتُ إفشاء عشق تسع سنوات أضمرته في قلبي، أردتُ أن أُخبره عن أشواقي، وعن ليالٍ وأيام ذرفت فيها الدموع من أجله. أردتُ أن أقول له بأنّ قلبي صار متيّمًا به بشدّة.

عندمـا وصلنـا إلى «**باغ بهشت**»، أسرعتُ وقلـتُ: «**أُريد أن أقول لـه كلماتي الأخيرة**». كانت الحشود قد حضرت قبلنا. ما إن وصلنا حتى ارتفع النعش على الأكف. ركضت خلفه. رأيـت النعش في المقدّمة والنـاس ينتظرون الصلاة عليه فوقفت فـي الصف. بعد انتهاء

(1) روضة الشهداء.

الصلاة، تماوج النعش على الأكتاف مجدّدًا. كان صمد للناس، كالعادة، وهم الآن يبعدونه عنّي، بلا غسل وبلا كفن، بثوب الجبهة الأخضر الجميل. ناديت: «**ائتوني بأطفالي، سيُطالبونني غدًا بأبيهم، دعوهم يرون أنّ أباهم قد ذهب ولن يعود بعد اليوم**».

عمّت أصوات البكاء والنحيب أرجاء «**باغ بهشت**». أنزلوا النعش عن الأكتاف، ورأيتُ صمدي غافيًا فيه بوقار وسكينة.

أخذتُ خديجة ومعصومة ودنوتُ منه. أنا التي كنت قبل دقائق مضطّربة إلى حدٍّ كبير، تراني قد استعدت رباطة جأشي فجأة. كان صوت والد زوجي يتردّد في أذني: «**كتب صمد في وصيته: قولوا لزوجتي أن تحيا كزينب عليها السلام**».

جلستُ بجانب النعش. كانت قد أصابته رصاصة في وجنته اليسرى ووجهه ملطّخ بدمه ولم يكن في جسده أيّ جرح آخر. كان ممدّدًا بهدوء، باسم الثغر. كم كانت تلك البدلة الخضراء تليق به. كان وجهه جميلًا وينبع نورًا تمامًا مثلما كان في ذلك اليوم حين عاد مرتديًا ذاك القميص الملوّن الذي أحضره من مكة.

كان بياض أسنانه لافتًا. ليته لم يوجد أحد هنا، ليت هذا الجمع المتّشح بالسواد يختفي من حولي. تمنّيت أن أنحني وأُقبّل جبهته كما فعل في لقائنا الأخير. لكنّي خجلت، فقلتُ بصوت خافت: «**في أمان الله!**». لم يُمهلوني وقتًا أكثر لأُطيل معه الكلام. جاء عدّة أشخاص وأخذوا صمدي، الذي عشقتُه. أخذوه وأبعدوه عنّي. عندما وضعوا الرصائف القبر وأهالوا التراب على الجدث أحسستُ أنّ جسدي قد تجمّد وأنّ الحرارة التي كانت متّقدة أمس في داخلي، قد خمدت. فقدتُ الإحساس بقدميّ وتهاوى زجاج فؤادي على صفحة أملي الخائب. وشعرتُ أنّني بين كلّ هؤلاء الناس وحيدة تمامًا بلا معين كأنّي أهيم في صحراء أركض خلف سراب أبحث عن ملاذي، أو كأنّي أهوي من شاهق إلى وادٍ سحيق.

بعد لحظات قليلة، وجدتُ نفسي جالسة فوق قبره ومعي أطفالي الخمسة. لم أُصدّق أنّ صمد تحت التراب، تحت هذا الكمّ الكبير من التراب! كلّما أصررت على الجلوس بجانبه، لم يسمحوا لي، أخذوا بيدي وأركبوني السيارة. عدنا إلى المنزل حيث كان يكتظّ بالمعزّين. كان أصدقاؤه يأتون ويتحدّثون عن ذكرياتهم مع صمد. لكنّني لم أكن أرى أحدًا ولا أسمع صوت أحد. لم أكن أُصدّق أنّ صمدي هو هذا الذي يتحدّثون عنه. كنت أتمنّى أن يُغادر الجميع وأبقى أنا مع أطفالي، لأحتضن مهدي، وأُقبّل زهراء، وأمسّد شعر خديجة،

وأهدهـد لمعصومـة على قدميّ، وأحدو فـي أُذُن سمية؛ لأشتمّ أطفالـي الذين تفوح منهم رائحـة صمد، كان في وجه كلّ واحد منهم شـيء من صمد. ذهب الجميع وبقيت بمفردي؛ بقينا بمفردنا، وأصبح مهدي ابن السنوات الثلاث رجل بيتنا.

لكن لا، بل كان صمد أيضًا معنا، كنت أراه في كلّ لحظة، في كلّ دقيقة، كنت أراه وأشمّ رائحتـه في كلّ شيء. كويت القميص الذي اشتراه مـن مكة، وعلّقته على المشجب بجانب ملابسنـا. كان الأطفـال كلّمـا عادوا مـن المدرسة يمسحـون بيدهم على قميصـ أبيهم، يشمّونه ويُقبّلونه. كانت رائحة صمد تفوح بين ملابسنا. لم يغب عنّا، كان الأطفال يسمعون صوته: «**اهتموا بالدروس، أحبّوا بعضكم، انتبهوا لوالدتكم ولا تنسوا ذكر الله**».

فـي بعض الأحيان كان يقتـرب منّي كثيرًا، كنت أسمع هسيسه[1] في أُذُني: «**قدم خير! أسرعـي، انتبهـي لتربيـة الأطفـال ورتّبـي أمورهـم، لا تتأخّـري، لماذا تتباطئيـن، علينا الذهـاب مـن هنا وبسرعة، أسرعي، أنا بانتظارك. أقسم يا قدم خير هذه المرة لن أدخل الجنة من دونك. أسرعي، منذ وقت طويل وأنا جالس هنا أنتظرك. اُنظري إلى أولادنا، لقـد كبـروا، أعطني يدك، سوف يواصـل الأولاد طريقهم. اقتربـي أكثر، ضعي يدك في يدي، كفانا وحدة، لا بدّ أن نكمل بقية الطريق معًا..**»[2].

(1) الهسيس: صوت الهمس.

(2) وقـد أكملـت «قـدم خير» طريقها إليـه، وذهبت إلى حيث ينتظرهـا الشهيد إلى أعلى عليّيـن مع محمد وآله الطاهريـن وسلّمـت روحها إلى بارئها بعد معاناة مع المرض الذي كتمته عن أولادها، وصبرٍ على الفراق في شهر 1-2010م (المحرِّر).

مركز نون
للتأليف والترجمة

مركزُ نـون، مـنْ مؤسَّساتِ جمعيَّةِ المعارفِ الإسلاميَّةِ، يـختصُّ بتخطيطِ البرامجِ والمتونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ، وتـأليـفِ وإعــدادِ الـمـتـونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ الـعـامَّـةِ، مُراعياً القواعدَ المنهجيَّةَ والبحثيَّةَ والتربويَّةَ، وحِفظَ الأصالةِ الإسلاميَّةِ.

سأنتظركِ...

خواطر ومذكَّرات ابنة شـينا
زوجة الشهيد
ستار إبراهيمي هجير

قولوا لزوجتي أن تحيا
كزينب عليها السلام

1001504

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان ـ بيروت ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

DBUK 03 336218